سلسلة الترجمات - 7






# BORN BELIEVERS

The Science of Children's Religious Belief

JUSTIN L. BARRETT, PH.D.

# فطرية الإيمان

## كيف أثبتت التجارب أن الأطفال يولدون مؤمنين بالله؟

د. جستون باريت

ترجمة : مركز دلائل

# فطرية الإيمان

# فطرية الإيمان

## ولدوا مؤمنين

## Born Believers


جستون باريت

Justin Barrett


ترجمة

مركز دلائل

**فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر**

دار وقف دلائل للنشر

فطرية الإيمان/ دار وقف دلائل للنشر - الرياض ١٤٣٨هـ

٣٦٨ص؛ ١٧,٥٠ × ٢٥ سم (سلسلة الدراسات؛ ١٢)

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٩١٤-٣-١

١- الإسلام والفطرة ٢- الإيمان (الإسلام) أ- العنوان

ب- السلسلة، ديوي ٢٤٠ ١٤٣٨/٧٠٨٤

رقم الإيداع: ١٤٣٨/٧٠٨٤



**الطبعة الأولى**

**١٤٣٨هـ**

مضمون الكتاب يعبر عن رأي مؤلفه
ولا يعبر بالضرورة عن رأي المركز




Dalailcentre@gmail.com

الرياض - المملكة العربية السعودية

ص ب: ٩٩٧٧٤ الرمز البريدي ١١٦٢٥

Dalailcentre@

+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠

طبعت في الدار العربية للطباعة والنشر
ARABIAN PRINTING & PUBLISHING HOUSE
الجوال / +٩٦٦ ٥٦٣ ١١٠ ٥٦٣

| | |
|---|---|
| فطرية الإيمان: | **Born Believers:** |
| علم المعتقدات الدينية للأطفال | **The Science of Children's Religious Belief** |
| جستون باريت | **Justin Barrett** |
| ترجمة: مركز دلائل | |

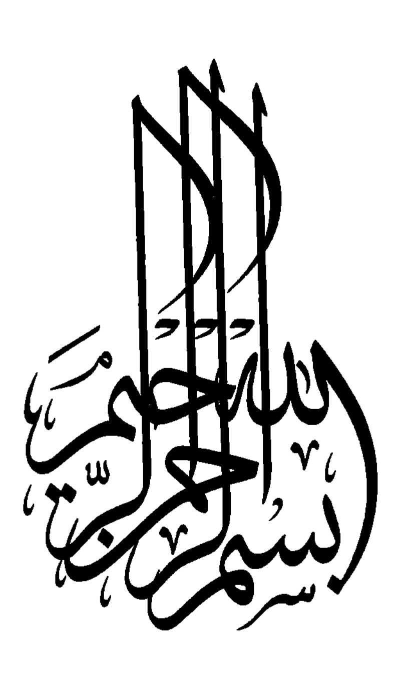


## تصدير:

لا شك أن الترجمة هي من أوسع أبواب الاستزادة المعرفية والعلمية وتبادل الخبرات بين البلدان والأمم والثقافات والشعوب، ومن هنا كان لسلسلة (الترجمات) لدى مركز دلائل عناية خاصة في انتقاء أفضلها وأكثرها ملاءمةً، مع الوضع في الاعتبار عدم تبني المركز لكل مكتوب أو منقول بالضرورة.

**وفي هذا الكتاب** قام جستون باريت Justin Barrett من واقع تخصصه في علم الإدراك الديني بتجميع أشهر الأبحاث العلمية التجريبية التي تم إجراؤها منذ قرابة عشرين سنة إلى اليوم على أطفال من عمر ٩ شهور إلى بضع سنوات، حيث يستعرض معنا نتائجها المذهلة التي تؤكد على ولادة كل الأطفال بالأدوات العقلية التي تمكنهم من الإيمان بخالق متمايز عن البشر ذي قدرة عظيمة، وكيف بتحليل طريقة الأطفال في التفكير نتعرف على طريقة استنباطهم لوجود الخالق من أبسط البدهيات العقلية مثل علاقة (السببية) في الأشياء.

**مركز دلائل**


بسم الله الرحمن الرحيم

# فهرس المحتويات

## المقدمة

# في القطار إلى جابور[1]

لقد بدأ الموسم الحار وألقت الشمس لظاها على المشهد الممتد خارج القطار في الطريق من أكرا إلى جابور في الهند، وفي الداخل تسربت عواصف الغبار الصفراء في الممرات وبين الصفوف، وجلست لسوء الحظ على كرسي له صرير من الفينيل التركوازي يلتصق بالجالس عليه، ونظرت إلى المرافقين لي في القطار، وبالقرب مني رأيت رجلًا متوسط العمر يرتدي قطعة قماش واحدة بلون برتقالي فاقع وقد ألقى طرفها على إحدى كتفيه مثل العباءة، وبمقابل رأسه الأصلع انتشر شعر شائب مجعد على كتفيه ويديه وقدميه العاريتين.

وهنا صاح رجل حسن الهندام من طرف مقصورة القطار (إنه كاهن) بعد أن لاحظ نظراتي، ثم بدأ حوار بيني وبين البرهمي حسن المظهر ذي الشارب الأسود العريض، وكانت محادثة طويلة تم فيها عرض تفسيرات مختلفة لجوانب متعددة من الهندوسية، وفي نهاية المطاف وصل الحديث إلى الغاية التي زرت الهند من أجلها، فقد جئت إلى الهند كعالم نفس يدرس مفاهيم الناس عن الآلهة.

---

(١) مدينة جابور أو جايبور بالهند، هي عاصمة ولاية راجستان، وتشتهر باسم المدينة الوردية (المترجم).

وسألني محدثي (وماذا وجدت؟) ولأنني باحث شاب أعتقد بأهمية ترك التسرع في طرح النتائج دون دليل جيد، كنت مترددًا في الادعاء بأني قد اكتشفت شيئًا، على الأقل حتى الآن، لكن سؤاله اقتضى الإجابة، فأخبرته أن أول مجموعة من التجارب التي قمت بها بخصوص المفاهيم عن الآلهة يبدو أنها تدل على أن البالغين يعانون من صعوبات في استخدام اعتقاداتهم المعلنة عن الإله ضمن بعض السياقات، فعلى سبيل المثال رغم أنهم ينكرون أن الإله له مكان محدد إلا أنهم يفهمون بعض القصص عن الإله على افتراض أنه في مكان وزمان محددين مثل البشر، (للمزيد عن هذه الدراسات انظر الفصل السادس)، ولكنني أعمل على تجارب جديدة أيضًا مع الأطفال الصغار وتبين أن الصغار يفكرون بالإله بطريقة أسهل من الكبار وبصورة أفضل مما توقعته بداية، فالبالغون قد فاجأوني بصعوبة استعمالهم للمفاهيم عن الإله، مقابل استعمال الأطفال للمفاهيم عن الإله بيسر وسهولة.

وقد توقعت أن يقوم الرجل البرهمي حسن المظهر هنا بهز رأسه مع ابتسامة لطيفة كما فعل من قبل العديد من أصدقائي وأقربائي، وليعبر بذلك عن عدم وجود اهتمام لديه بهذا أو إنكاره للاهتمام به، ولكن على العكس من ذلك ابتسم الرجل ابتسامة العارف وسأل بثقة (هل تريد أن تعرف السبب؟) قلت له (نعم بالتأكيد)، فشرح لي أنه بعد الموت نذهب إلى الإله ثم نعود بعد ذلك إلى جسد آخر[1] ولأن الأطفال كانوا مع الإله منذ فترة قريبة فيمكنهم فهمه أكثر من قدرة

---

(١) هذه عقيدة الهندوس في تناسخ الأرواح، وهي أن نفوس الأموات تعود في أجساد جديدة كل مرة، وهكذا

البالغين على ذلك، فلم ينسوا بعد أو ينشؤوا مرتبكين ومشوشين بالدنيا. وبالمعنى الحقيقي كما فسر لي الرجل: فالأطفال قد جاؤوا إلى الدنيا بمعرفة الله أنقى وأدق من معرفة البالغين.

ومنذ تلك الرحلة في القطار قمت بالعديد من الدراسات الإضافية على المعتقدات الدينية، كما اكتشف زملائي في ميدان دراستي وهو علم الإدراك الديني Cognitive Science of Religion مزيدًا من الأدلة على أن الأطفال لديهم ميل طبيعي إلى التفكير والاعتقاد في الآلهة، ومما يثير الدهشة أن الدليل إلى الآن يوافق ما أشار إليه الرجل البرهمي من الميل الفطري الملحوظ عند الأطفال نحو التفكير والاعتقاد في الآلهة، ويبين هذا الكتاب كيف ينمي الأطفال عقولهم فطريًا بحيث تدفعهم للاعتقاد بالإله أو الآلهة التي تخص ثقافتهم، فالناس قد يولدون عمليًا مؤمنين.

والمقارنة هنا قد تكون مفيدة، فلعلك قد سمعت مرة بشخص (ولد موسيقيًا) أو (ولد فنانًا)، وتتذكر والدتي أنه عند ولادة أخي قال الأطباء إنه (ولد لاعب كرة سلة) (لم يصبح كذلك)، الأطفال لا يولدون وهم يغنون أو يرسمون أو يرمون كرة السلة ببراعة، لكن هذه التعبيرات تعني أن الأطفال الصغار يولدون بمؤهلات ما إن أعطيت حدًا أدنى من الفرص والدعم الثقافي، ستكشف بطريقة

---

باستمرار، وأما التفسير الإسلامي فيعتمد على تعرف الأنفس على الله في عالم الذر قبل الولادة، وإشهادهم أنه ربهم (المترجم).

تثمر إتقان الغناء أو الفن أو كرة السلة، ونقول بطريقة مشابهة وليست مطابقة؛ يولد كل أطفال البشر متحدثين، أي قدر لهم أن يمتلكوا لغة. ويولدون مشاة، أي سيتعلمون المشي طبيعيًا. وبطريقة مشابهة يولد الأولاد مؤمنين بنوعٍ ما من الإله.

الأطفال عرضة للاعتقاد بالكائنات فوق الطبيعية مثل الأرواح والأشباح والملائكة والشياطين والآلهة، وذلك في السنوات الأربع الأولى من حياتهم نتيجة النمو الطبيعي للإدراك ضمن بيئات بشرية طبيعية. وفي الواقع يوجد أدلة على أن الأطفال قد يقبلون ببساطة فكرة وجود خالق غير بشري للعالم الطبيعي كلي القدرة وكلي المعرفة وكلي إدراك، أزلي وبيده الخير كله.

واختصارًا سنسمي هذا النوع من الإله الخلاق (الله) أو God بحرف كبير في الإنكليزية، وهذا صحيح، إذ تَبين أن عقول الأطفال مضبوطة فطريًا لتعتقد بالآلهة عمومًا، وربما لتعتقد بالله على وجه الخصوص.

وعند قراءتك لهذه المقولة عن وصف طبيعية الاعتقاد الديني ربما تفكر الآن في طرح تعليل بديل لتدين الأطفال، ولعلك قد رأيت فيلمًا مصورًا لأطفال مدرسة إسلامية بجلاليبهم التقليدية ويرددون آيات القرآن بطريقة طقسية مرارًا وتكرارًا لساعات كل يوم، وهو أمر يبدو للمراقب الخارجي بأنه نظام من البرمجة الإكراهية، وربما سمعت أيضًا بالتقاليد الكهنوتية التي تسجن الشباب عمليًا لسنوات من حياتهم وتمنعهم من الاتصال مع العالم الخارجي إلى أن يلتزموا بقيم واعتقادات كبار القوم، وقد أقنعت هذه النماذج بعض المراقبين لنمو التدين بأن ما يلزم لإقناع

الأطفال بالاعتقادات المذهبية هو غسل أدمغة عميق ومنهجي وقاسٍ.

والنسخة الأكثر ضبطًا لهذا التعليل الشائع لظاهرة ميل الأطفال للإيمان بالآلهة يمكن تسميته فرضية التلقين indoctrination hypothesis، وتتلخص في أن الأطفال يؤمنون بالله لأن والديهم وغيرهم من البالغين ذوي الأهمية في محيطهم يُعلمونهم الإيمان: أي أنهم يلقنونهم الإيمان. وبما أن الأطفال لا يملكون الإمكانات الذهنية ليفكروا لأنفسهم، فسيتبعون بشكل أعمى ما يمليه الكبار عليهم، وبكل الأحوال فإن رفضهم أو معارضتهم لهذا الإملاء قد يجعلهم عرضة للإيذاء.

يظن بعض الأشخاص الأذكياء خطأً أن التعليل بالتلقين يفسر كل شيء. عرضت أنا وعالم الأديان الإدراكي باسكال بوير Pascal Boyer في مؤتمر ما يمكن تسميته أطروحة (فطرية الدين naturalness of religion)، والتي تقول إن البنية الطبيعية للعقل البشري ضمن الظروف العادية تجعل الإيمان بالآلهة أمرًا متوقعًا بالكامل، وقد وُجِّه لنا سؤالٌ بهذا الخصوص: (ألا تتعلق المسألة أنه في وسعك تعليم الأولاد الإيمان بأي فكرة مجنونة طالما لا يمكن نفيها، وطالما أنك ستعاقبهم ما لم يؤمنوا بها؟) وقد عرض بوير جوابه كما يلي: إذا أخبرت طفلًا أن ديك تشيني[1] مصنوع من الجبن الأخضر، وذلك فقط عندما لا ينظر إليه أحد، فلن يهم كم ستعاقب هذا الطفل وكم ستهدده باللعنة الأبدية إن لم يؤمن بذلك، لأن أفضل ما ستحصل عليه من هذا الطفل هو الادعاء والتظاهر بالاعتقاد بأن ديك تشيني

---

(١) سياسي أمريكي، كان نائب الرئيس الأمريكي السابق جورج دبليو بوش (المترجم).

مصنوع من الجبن الأخضر، لكنك لن تستطيع إجباره أو تلقينه ليؤمن بهذا الاعتقاد وإن كان لا يمكن نفيه). ولا شك أن بوير وضع في اعتباره البحوث التي أجراها علماء النفس المختصون بالنمو أمثال هنري ويلمان Henry Wellman وبول هاريس Paul Harris والتي بينت أنه حتى الأطفال قبل سن دخول المدرسة يدركون الفرق بين الحقيقة والخيال[1]؛ فالأطفال في سن قبل دخول المدرسة يعلمون أن الصورة التخيلية للحصان الصغير (بوني) أو الوحوش لا يمكن رؤيتها أو لمسها من قبل أي كائن، حتى لو أثارت لديهم عواطف ومشاعر عميقة من الراحة أو الخوف، فهم في ذلك لا يختلفون كثيرًا عن البالغين الذين قد يتأثرون عاطفيًا أثناء مشاهدتهم فلمًا ما: رغم معرفتنا بأن هذه المشاهد ليست حقيقية أو واقعية إلا أنها تبقى قادرة على إثارة مشاعرنا وخفق قلوبنا؛ بل وحتى دفعنا إلى البكاء[2].

إن الأفكار الدينية مختلفة جدًا عن الأفكار المدعاة أو الخيال، فمنذ أن بدأت بإلقاء محاضرات عامة عن المعارف التي بُنِيَ هذا الكتاب عليها وأنا أتلقى الكثير من التقارير من أناس يخبرونني فيها عن مدى سهولة اعتناق أطفالهم للدين وعن مدى صعوبة صدِّهم عن الإيمان بالله. فقد أخبرتني زميلة عمل سابقة عن بناتها الثلاث، وتبلغ أكبرهن الثامنة من عمرها تقول: (أنا مسيحية لكن زوجي ملحد، وقد قررنا ألا ندفع أولادنا في أي اتجاه، لكن هذا لا يبدو أنه مهم، فالبنات الثلاث جميعهن يؤمنَّ بالله وبدرجة عميقة، بل إن «صوفي» أكبرهن تشاجرت مع أبيها وأخبرته أنه

مخطئ باعتقاده أن الله غير موجود)[1] كما أبدت أم ملحدة من أوكسفورد في إنكلترا ذهولها عندما اكتشفت أن طفلها ذا السنوات الخمس لديه إيمان راسخ بالله رغم كل جهودها للعكس. وافق والدان غير مؤمنين من إنديانا بعد تردد على إرسال طفلتهما وهي في سن الروضة إلى رحلة تنظمها مدرسة الكتاب المقدس[2]، وقد عادت الطفلة إلى المنزل من هذه الرحلة مبدية رغبة عارمة للاستمرار في التعرف على الله. كما اكتشف زميل دنماركي (سأعود إلى ذكره لاحقًا) أن طفلته الصغيرة قد تلقت صدفة حالة من الإيمان بالإله وذلك في أحد أشد المجتمعات علمانية على سطح الأرض. إن هذه القصص والكثير غيرها ليست هي الأسباب التي تدعوني إلى القول بأن الأطفال يولدون مؤمنين، لكنها تقول إن ما يجري هنا هو شيء مختلف عن المصادفة أو التلقين؛ فلماذا يكون من السهل أن ندفع الأطفال ليؤمنوا ويقتنعوا بنوع من الآلهة أكثر من المعتقدات الأخرى كالاعتقاد بفوائد نبات البروكلي مثلًا، أو أن عمتهم الكبرى ليست مرعبة حقًا، أو الاعتقاد بعدم وجود إله؟

يعلم آباء الأطفال الصغار، والمراهقين منهم على وجه الخصوص! أنهم لا يستطيعون ببساطة برمجة معتقدات أطفالهم. نستطيع أحيانًا (تلقينهم)، لكننا غالبًا نفشل في ذلك. فعلى سبيل المثال تذكر الممثلة الكوميدية جوليا سويني Julia Sweeney أنها حاولت تربية ابنتها لتكون ملحدة، لكنَّ الأمر بدا صعبًا، وتشرح

---

(١) صوفي هو اسم مستعار، وكذلك كافة أسماء الأطفال المذكورة في هذا الكتاب للخصوصية (المؤلف).

(٢) يسمي النصارى كتابهم بالكتاب المقدس مثلما نسمي نحن القرآن بالقرآن الكريم أو المجيد ونحو ذلك (المترجم).

سويني ذلك في هذه الخلاصة الممتعة من مقابلة أجرتها مع سان فرانسيسكو كرونيكل San Francisco Chronicle حيث تقول سويني:

لقد أخبرتُ طفلتي في البداية أن الله ما هو إلا فكرة تقول بأن رجلًا كبيرًا يعيش هناك أعلى السحاب وهو خالق كل شيء، فقالت ابنتي: (نعم أنا أؤمن بذلك!) فتابعت قولي: (أجل صحيح؛ لأن هذه الفكرة تبدو كشخصية كرتونية، لكن الحقيقة ليست كذلك، وسأخبرك بالحقيقة)، قمت لاحقًا بإخبارها عن التطور[1] وقد سألتني عنه كثيرًا باعتباره حكاية قبل النوم، كانت تقول لي: (أخبريني كيف أن الناس لم يكونوا هناك عندما كانت الديناصورات تعيش على سطح الأرض) وكنا نعيد ذكر القصة مرارًا وتكرارًا، ولم أكن أدري في الواقع مقدار ما تستوعبه حقًا، لكنها بدت معجبة بالقصة، يبدو أنها قد تجاوزت الأمر لاحقًا، ولكنها باتت تقول: (أنا أؤمن بالله حين أكون في المدرسة، لكنني لست كذلك حين أرجع إلى المنزل)[٣]

تبين هذه الخلاصة كم هو صعب تلقين الأطفال معتقدات تبعدهم عن الإيمان الديني، فربما وصلت الطفلة إلى صيغة توافقية مع موقف والدتها المعارض للإيمان بالله بإخبارها أنها لن تؤمن بالله في البيت. إن المحاولات المستمرة من سويني لتلقين ابنتها الإلحاد بالله واجهت صعوبات حقيقية بسبب الميل الفطري للأطفال نحو الإيمان الديني. فالأطفال لا يتقبلون الإيمان بكل الأفكار على حد سواء.

---

(١) المقصود هنا هو التطور الداروويني أو في صورته الحديثة التي تزعم نشأة الحياة وتنوع الكائنات الحية وتحولها إلى بعضها البعض بالصدفة والطفرات العشوائية، وذلك في ظل الانتخاب الطبيعي الأعمى بعيدًا عن أي تصرف إلهي حكيم في الخلق (المترجم).

إلا أن فرضية التلقين لا تزال قائمة، لأن الناس غالبًا لا يقدرون تمامًا مدى المعلومات التي يملكها أطفالهم مسبقًا منذ الولادة أو المعلومات التي يكونون متأهبين لاكتسابها بسهولة وسرعة.

نميل عادة إلى الأخذ بفرضية تعتبر أن عقول الأطفال تشبه أوعية فارغة تنتظر من يملؤها، ولا يهم ما الذي تضعه في رؤوسهم طالما أنه ليس كثيرًا.

وفق هذه الرؤية للعقول البشرية فإن تعلُّم الإيمان بالله، وتعلُّم الإيمان بوجود جسيمات دون ذَرِّيَّةٍ هو تقريبًا العملية نفسها. وقد تكون الفوارق الوحيدة هي فرص التعلم والتحفيز. إذ يحيط بالأطفال كثيرون ممن يحدثونهم عن الله بأكثر مما يحدثونهم عن الجسيمات دون الذَرِّيَّة، وربما يوجد حافز أكبر عند الأطفال ليتعلموا عن الله، لأن مفهوم الله يمنحهم الطمأنينة في الليالي المظلمة والعاصفة.

سأعود إلى هذه القضية لاحقًا، لكنني هنا أودُّ دحض المفهوم القائل بأن العقول البشرية ليست إلا أوعية فارغة تنتظر من يملؤها[٤]. تتجاهل هذه الرؤية وجود عدد معتبر من الميول الفطرية في العقول البشرية تتيح لها حل المشاكل المهمة المتعلقة ببقائها ومخاوفها الحياتية. إذ يقوم العقل البشري منذ الولادة باكتساب أنواع من المعلومات والتعامل معها بكفاءة أكثر من غيرها. فعلى سبيل المثال تظهر الدراسة أنه في غضون ساعات من الولادة فقط، يتمكن الأطفال الرضع مكتملو النمو من تقليد بعض التعبيرات الوجهية، مثل زم الشفتين أو فتح الفم، فلو رأى الرضيع أحدًا يمد لسانه إليه، فعلى الأرجح سيمدُّ لسانه[٥].

تتطلب هذه الأفعال بطريقة ما أن يميز الرضيع الوجوه، ويميز ما الذي تفعله تلك الوجوه، ومن ثَمَّ تطبيق مُناظر لذلك الفعل على عضلاته الوجهية، رغم أنه لم ير وجهه الخاص على الإطلاق! فالبشر ممتازون في تمييز الوجوه منذ الولادة، وبالوصول إلى مرحلة البلوغ فإنه بإمكاننا التمييز والتذكر والتفريق بين آلاف الوجوه دون أي جهد، وهي عملية صعبة على أكثر الحواسيب تعقيدًا. وبالمقابل فإن حل عمليات الضرب لأعداد من ثلاث أرقام تتطلب من البشر جهدًا معتبرًا وتعليمًا موجَّهًا، في حين أن الحواسيب قد حلت هذه المسائل بسهولة منذ عدة عقود.

تبين المقابلة بين عملية تمييز الوجوه وإجراء عمليات الضرب أن العقل البشري متخصص في التعامل مع بعض أنواع المعلومات والمسائل بسهولة أكثر من غيرها. وبالمثل ليست كل الأفكار أو المعتقدات ممكنة الاكتساب بقدر سهولة اكتساب أي فكرة أخرى. إذ نجد أن كثيرًا من الأفكار التي يدرسها الفيزيائيون أصعب تعلمًا من كثير من المعتقدات الدينية، لأنها بالفعل أكثر صعوبة للذهن، فعقولنا تجدها أكثر غرابة مقارنة بالأفكار الدينية وأكثر بعدًا عما تفكر به عقولنا طبيعيًا.

وبغض النظر عن الثقافة ودون الحاجة إلى تلقين بالإكراه، ينمو الأطفال بنزعة للبحث عن معنى محيطهم وفهمه، وعند منح المجال لتطور عقولهم ونموها طبيعيًا يؤدي بهم هذا البحث إلى اعتقاد بعالَم مُصَمَّمٍ له غاية، وأن صانعًا حكيمًا قد صممه، ويفترضون أن هذا الصانع المقصود كلي القدرة، وكلي العلم، وكلي

الإدراك، وأبدي. ولا يحتاج هذا الصانع أن يكون مرئيًا أو متجسدًا مثل البشر. ويربط الأطفال بسهولة هذا الصانع بالخير الأخلاقي وبأنه مصدر الإلزام بالقيم الأخلاقية. تعلل هذه الملاحظات والاستنتاجات جزئيًا سبب الانتشار الواسع للإيمان بالآلهة بهذه الصفات العامة عبر الثقافات وعلى مدى التاريخ.

حاول التفكير بالأمر بالطريقة التالية؛ لعلك تذكر إحدى ألعاب الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة التي تستعمل لتمييز ومطابقة الأشكال المختلفة وهي لعبة مجوفة شبه دائرية فيها أشياء حمراء وزرقاء اللون والكثير من الأشكال الصفراء وفراغات مقابلة تناسبها، يقدم النمو الطبيعي للطفل عددًا من الفراغات المفاهيمية ذات الأشكال المحددة. وإحدى هذه الفراغات مخصصة لمفهوم الإله، ويكون الأطفال قادرين طبيعيًا على استقبال الشكل (الفكرة الثقافية) بما يلائم الفراغ الممثل لمفهوم الآلهة بمختلف أشكالها. يمكن لمفهوم بعض الآلهة أن يملأ هذا الفراغ أفضل من غيره، لكن الكثير من مفاهيم الآلهة تملأ الفراغ جيدًا. ولكن لعلك تذكر أنه أثناء اللعب باللعبة يمكنك حشر القطعة الخاطئة في بعض الفراغات لأنها تلائمها تقريبًا بما يكفي. وبالمثل فإن الفراغ التصوري للإله في ذهن الطفل يمكن أن يُمْلَأَ بكينونات وأفكار أخرى غير الآلهة مثل الطواغيت البشرية أو الحكومات أو الانتقاء الطبيعي ذي الإرادة المستقلة أو الصدفة، إن عملية إدخال هذه التصورات غير المناسبة في الفراغات سيتطلب قليلًا من الإقحام والحشر، وعمل تصوري زائد، لكن في النهاية يمكن حشرها.

سأتحدث في الفصول الأحد عشر القادمة كيف ينمي الأطفال اعتقاداتهم بالآلهة وأبين بعض الأدلة العلمية التي تدعم ذلك، وليس بوسعي توفير كل الأدلة، لكنني سأقدم ما يكفي منها لجعل المسألة مقنعة، فالبحث العلمي بهذا الخصوص حديث ولا زال جاريًا، لكنه يدل على تعليل عام وواضح للاعتقاد خلال فترة الطفولة[6].

شرحت في الفصل الأول كيف يبدي الأطفال منذ العام الأول في حياتهم علامات على أن أسلوب تعاملهم مع الكائنات ذات القصد (العوامل المسببة للفعل) يختلف جدًا عن الجمادات المنفعلة، ويبدون اهتمامًا معتبرًا تجاه هذه العوامل، ودون هذه النزعة ستكون درجة انتشار إيمان الأطفال بالآلهة مشابهة لانتشار إيمان الأطفال بالأرقام التخيلية (أي شديد الندرة). ثم عرضت أدلة في الفصل الثاني والثالث على أن الأطفال يأتون إلى الدنيا بميل لرؤية الانتظام والغاية بل وحتى التصميم الهادف في العالم الطبيعي، كما لو أن كل شيء في العالم له وظيفة محددة وأُعِدَّ بترتيبٍ مقصود من أحدٍ ما ليحقق تلك الغاية. ونظرًا لاهتمام الأطفال بالعوامل الفاعلة، وميلهم إلى رؤية التصميم المقصود في العالم الطبيعي فليس من المستبعد افتراض وجود خالق مريد (إله).

وصفت في الفصلين الرابع والخامس الاختبارات التي أجريت بالإضافة للأطفال الأمريكيين والبريطانيين، على أطفال يونانيين أيضًا، ومن شعب المايا وإسبانيين، وتقول هذه الاختبارات إن للأطفال اندفاعًا فطريًا لتوقع ما الذي

يعرفه الله ويراه ويسمعه قبل أن يتمكنوا من توقع الأمور نفسها بدقة للبشر. كما أن الأطفال يبدؤون إدراكهم بافتراض أن الآخرين سيحيون إلى الأبد، ثم يكون عليهم أن يتعلموا لاحقًا أن ذلك غير صحيح بالنسبة للبشر والحيوانات.

وناقشت في الفصل السادس مقتضيات العلم بتلخيص ما كشفهُ علم دراسة الدين في مرحلة الطفولة على أنه تدين فطري، أي نوع الإيمان الديني الذي ينجذب إليه الأطفال طبيعيًا.

بناءً على حجتي بخصوص ميل الأطفال للإيمان بالآلهة نتيجة للطريقة التي تنمو بها أذهانهم في السنوات الأولى من العمر؛ فقد يتساءل أحدهم إن كنت أعتقد أن الإيمان بالله أمرٌ طفولي أو صبياني، وقد أجاب سيغموند فرويد عن هذا السؤال بالإيجاب(١)، لكني سأطرح إجابتي الخاصة عن هذا السؤال في الفصل السابع. وأتناول فرضية التلقين في الفصل الثامن مستخدمًا الأبحاث التي عرضت في الفصول السابقة مع اعتبارات إضافية. ولكن إن كان الأطفال يولدون مؤمنين وكان الدين فطريًا تمامًا، فكيف نعلل وجود الملاحدة؟ هل الإلحاد مناقض للفطرة الطبيعية؟ سأتناول هذه المواضيع بالدراسة في الفصل التاسع. أما الفصل العاشر فيناقش مسألة هل يلزم المعلمين والوالدين ومسؤولي الرعاية أن يعلموا الأطفال عن الله والدين، وهل هذا نافع للأطفال، أم أنه نوع من الإساءة لهم كما يقول

---

(١) سيغموند فرويد أحد علماء النفس الذين حاولوا وضع تفسيرات مادية طبيعية لا دينية ولا أخلاقية لكل شعور وسلوك إنساني أو دين (المترجم).

العديد من الملاحدة الجدد مؤخرًا؟ وأعرض في الفصل الحادي عشر مقترحات لكيفية تحفيز نمو الأطفال بشكل سليم وفعال سواء كان المسؤول عنهم متدينًا أم لا دينيًا.

أتمنى أن يثير هذا الكتاب شهيتكم للأبحاث الجديدة والمزدهرة من الدراسات النفسية والتطورية للدين. وفي نهاية هذا الكتاب سأضع ملاحظات المصادر.

***

الجزء الأول

# الأدلة

## الفصل الأول

## العوامل الفاعلة الخفية في كل مكان

إذا سنحت لك فرصة زيارة مدينة أوكسفورد يومًا ما، وأرجو تتمكن من ذلك، فلا تنسى بعد الاستمتاع بالمشي بجوار القمم المستدقة الحالمة وساحات الجامعة التاريخية، أن تزور متحف بت-ريفرز Pitt-Rivers Museum والذي يعد موقعًا لمجموعة الآثار الأنثروبيولوجية[1] الخاصة بجامعة أوكسفورد. إن زيارة هذا المتحف ستشعرك كما لو كنت تتجول وتفتش في محتويات أحد مستودعات تاريخ البشرية.

إحدى المعروضات الشائعة شديدة الحساسية هي خزانة زجاجية بعنوان (التعامل مع الأعداء الموتى)، يوجد بداخلها عدد من الرؤوس المحنطة والمنكمشة، وقد أدخل في بعضها عصي مدببة وشفرات مثلمة. وتحوي خزانة زجاجية مجاورة

(١) الأنثروبولوجيا هو علم دراسة الإنسان في نشأته وتاريخه على الأرض وتكوينه وما يتعلق به من قضايا (المترجم).

عددًا من التماثيل الجميلة المزخرفة يحمل العديد منها أجزاء بشرية وأجزاء حيوانية، وبعضها له أطراف كثيرة. ومع متابعتك التجول في المتحف ستجد المزيد من الأشياء الغريبة من كافة أرجاء العالم:

دمى الفودو voodoo جاحظة العينين، تمائم منحوتة يدويًا، أكفان صغيرة تحوي قططًا محنطة... إن ما يجمع هذه الأشياء المتباينة معًا بالإضافة لقمم أوكسفورد الحالمة الشهيرة هو الدين؛ فكل واحدة من هذه المعروضات الغريبة تحمل رمزية دينية في الثقافة التي أتت منها. إنها مذكرات مرئية للوجود واسع الانتشار والمتنوع للاعتقاد بالآلهة عبر الأزمنة والثقافات.

إن الأغلبية الساحقة من الثقافات وكذلك الأغلبية الساحقة من الشعوب تؤمن بنوع ما من الإله أو الآلهة. فلو اعتبرنا الآلهة كل الكائنات ذات الإرادة والتي تملك مواصفات خاصة لا يملكها البشر ولا الحيوانات مثل (كونها لا مرئية، أو أبدية، أو تشكلت من البرونز) فإن الإيمان بالآلهة قد حدث في كل عصر وفي كل حضارة، وتتمتع الكثير من الحضارات بالتدين لدرجة يبدو معها أن وجود دين من نوع ما هو تعبير بشري طبيعي[1].

وبالمثل فإن كل البشر تقريبًا مهما كانت ثقافتهم أو ديانة آبائهم يمرون بمرحلة يؤكدون فيها وجود كائن متجاوز للطبيعة أو أكثر، وربما لديك أيها القارئ ذكريات من فترة طفولتك تشبه ما يلي:

تخيل مشهدًا لليلة نوم جماعي لأطفال في أحد المنازل، وبعد أن يطفئ الوالدان الأنوار ويذهب الجميع إلى الفراش يحاول بعض الأطفال المتعبين لكن المتحمسون إخافة بعضهم برواية خافتة لبعض القصص المرعبة، إلى أن يسأل أحد الأطفال متعالمًا: (هل يرغب أحدكم بمشاهدة شبح حقيقي؟) وهنا يخيم الصمت على الأطفال للحظات حتى يقول أحد الأطفال المغرورين (نعم، كيف؟) فيجيبه الأول: (كل ما عليك فعله هو الذهاب بمفردك إلى الحمام ومع إبقاء الضوء مطفأً، أغلق الباب خلفك وقل (ماري الدموية) ثلاث مرات، وستأتيك في المرآة. لكن من الأفضل أن تخرج سريعًا وإلا قتلتك!).

جرب كثير من الأطفال ذلك وشاهدها الكثير أو على الأقل ظنوا أنهم قد شاهدوها، ورفض آخرون حتى مجرد التجربة. ومن الأمور الخاصة التي يؤمن بها الأطفال؛ الأصدقاء الخياليون، ويؤمن بعضهم بالأشباح المخيفة والوحوش، ويؤمن آخرون ببابا نويل الكريم وبالعفاريت، ويؤمن كثير من الأطفال بوجود ما يعتبره الكبار أرواحًا أو آلهة، أي نوع من الكائنات التي تشكل جزءًا من المنظومات الدينية المشتركة.

***

## طريقتان لتكون على الفطرة الطبيعية

إن بعض طرق التفكير والتصرف تلقائية وعفوية جدًا بالنسبة لنا، وهينة جدًا وسهلة جدًا بحيث لا نتخيل عدم امتلاكها، والواقع أنه من المستحيل أن نتخيل شخصًا ينمو ويكبر دون أن يتعلم ويكتسب قدرات معينة، والكلمة التي نعبِّر بها عن ذلك الفطرية الطبيعية. يسمي الفيلسوف روبرت ماكويلي Robert MaCauley هذا النوع من الفطرية بالفطرية النضجية maturational naturalness، وذلك ليؤكد فكرة اكتسابها كجزء طبيعي من النمو والنضج[٢]. فتعلم المشي فطرة نضجية، وإدراك ضرورة ملامسة الأجسام الصلبة لتحريكها (كرفع فنجان القهوة) يكتسب أيضًا بالفطرة النضجية. ويخبرنا علم نفس النمو أن استخدام اللغة الأم، وتمييز وجوه أفراد العائلة، وجمع الأعداد المفردة كلها فطرة نضجية أيضًا حسب تقدير ماكويلي. وعادة ما نكتسب هذه القدرات الفطرية النضجية مبكرًا في حياتنا بحيث لا نتذكر ونحن بالغون فترة من عدم امتلاكها. ويكتسب الناس حول العالم هذه القدرات بصورة فطرية طبيعية لأنها لا تحتاج إلى تدريب خاص أو اتباع تعليمات محددة أو استخدام أدوات معينة لاكتسابها.

وبالمقابل نكتسب بعض القدرات باتباع تدريب خاص وتعليمات محددة واستخدام أدوات خاصة، وبعد الكثير الكثير من التدريب.

تأمل مثال ركوب الدراجة، فبمجرد أن تتقن قيادة الدراجة يبدو أن جسمك يعرف تمامًا قيادتها فلا تحتاج إلى التفكير في ذلك، أي لا تحتاج إلى تذكرٍ واعٍ لتحقيق

التوازن وتوجيه الدراجة والتحكم في سرعتها، فأنت تقوم بذلك تلقائيًا. ولكنك تذكر كم عانيت من الصعوبة والرعب والإحباط حتى تعلمت وأتقنت قيادة الدراجة، أذكر أني كنت أرتدي خوذة الدراجة لحماية نفسي من الوقوع المتكرر على الطريق المحصى والاصطدام بأشجار وشجيرات السور. وأذكر أن والدي لقنني تعليمات محددة عن كيفية القيادة وساعدني على الانطلاق والبدء، ولكن بالتأكيد لم تكن البداية تلقائية أو عفوية.

أما سنوات التدريب واتباع التعليمات والإرشادات والتصحيح فستؤدي إلى تطبُّع أو فطرة تَدَرُّبِيَّةٍ كما سماها ماكويلي، والأمثلة على حالات الفطرة التدربية كثيرة كقيادة السيارة دون عناء وإجادة علم الجبر والقراءة، فما لم تتلقَّ الإرشادات وتكثر من التدرُّب فلن تتمكن من إتقان هذه المهارات، والكثير من الأشخاص القادرين والأذكياء تمامًا لا يجيدون هذه الأمور، إذ من المطلوب تحقيق ظروف ثقافية معينة للتمكن من اكتساب هذه الفطرة التدرُّبية.

استخدم ماكويلي مصطلح الفطرية (الطبيعية) naturalness للإشارة إلى كلا الصنفين من القدرات؛ أي المكتسبة بالتدريب والممارسة، والقدرات الفطرية التي يولد الطفل معها، لأن كلًا منها سهل وتلقائي وسلس، فليس عليك أن تركز كثيرًا لتتمكن من قراءة لافتة طرقية، فحالما تشاهد واحدة سيكون بوسعك قراءتها تلقائيًا، وبالمثل عندما تتحدث إلى أحدهم لن تكون مضطرًا إلى التركيز على صياغة عبارة ما ووضع كلماتها معًا. إن كلًا من القراءة والكتابة تبدوان فطريتين من حيث كونهما سهلتين وتلقائيتين، لكن هذا التشابه الظاهري بين نوعي الفطرية يغطي فرقًا

خفيًا. فالنطق حدث حتمي أساسًا لنا كبشر ننمو طبيعيًا، فالوالدان لا يعلمانا كيف نتكلم ولا يقدمان لنا وسائل خاصة للكلام أو دروسًا له، كل ما في الأمر أنهما يتحدثان حولنا ونقوم بالتقاط الكلام فطريًا بشكل طبيعي، أما القراءة فليست أمرًا حتميًا مع نمو الإنسان، فيجب إضافة بعض الأمور المخصصة إلى مهارات اللغة الطبيعية العادية لإتقان القراءة والكتابة من مثل أنظمة الكتابة والكلمات المطبوعة والإرشادات والكثير من التدريب الواعي والمقصود.

سأقتطع من مصطلحات ماكويلي لأشير إلى القدرات والأفكار والممارسات الحتمية بمصطلح الميزات الفطرية أو الفطرة **nature**، أما القدرات المكتسبة بشروط خاصة أو بالتدريب فسنشير إليها أنها صفات بالخبرة **expert** أو الخبرة **expertise**. فنحن مستخدمون فطريون للغة، لكن علينا اكتساب خبرة القراءة والكتابة، وبالمثل فإن عملية المشي فطرية، لكن رقص الباليه يحتاج خبرة.

إن هذا الاستخدام لمصطلح الفطرة (مقابل الخبرة) قريب من الاستخدام الشائع ويحمل فائدة إضافية إذ يسمح لبعض الأفكار أو الممارسات أو الكفاءات أن تكون فطرية تقريبًا. فالقدرة على جمع ١+١ يمكن أن تكون فطرية تمامًا، كما أن جمع أعداد كبيرة قد يكون أغلبه فطريًا، لكن القيام بالتفاضل والتكامل calculus[1] بعيد جدًا عن الفطرية. ومن هذا الباب فإن الكثير من الأفكار والممارسات الدينية الأساسية تقع على طرف الفطري من المدى المتصل **continuum**، في حين أن

(١) هي عمليات حسابية ذات علاقات رياضية خاصة ومتقدمة وتحتاج إلى الدراسة لفهم كيفية التوصل إليها (المترجم).

الأفكار والممارسات الدينية كما نراها عند البالغين فهي تشمل بالتأكيد درجة من الخبرة تكسو أساسًا متينًا من الفطرة.

ونخطئ أحيانًا إن اعتقدنا أن شرط كون مقدرة معينة فطرية أن تكون مزروعة بيولوجيًا فينا بطريقة ما منذ الولادة أو مركبة في بنية أدمغتنا، وتعزز الأخبار الشعبية عن مسؤولية المورثات عن كل شيء من مقاومة الأمراض إلى لون الشعر والذكاء هذا الفهم الخاطئ. لكن مجرد وجود ميل بيولوجي عندنا نحو إحدى الصفات لا يعني أنها ستتطور في غياب النوع المناسب من البيئة الحاضنة، ولا يعني مجرد أن شيئًا ما غير مزروع في البنية أن لا يكون أمرًا محتومًا تقريبًا كجزء من النمو البشري. ما نستطيع قوله بعقلانية أكثر؛ إنه بوجود استعدادات بيولوجية معينة مع وجود النمط العادي للعالم الذي ننشأ فيه فسنكتسب نمطيًا مجموعة من الخصائص والصفات. وهذه الأنواع من الخواص تتصف بالفطرية؛ وهي تلك الخواص التي تكون حتمية تقريبًا بسبب ما لدينا من بيولوجية بالإضافة لأنماط البيئات الاعتيادية التي ينشأ فيها الناس، وفي وسعنا ترك الحديث عن (توصيلات البنية الثابتة) لمختصي الكهرباء[1].

وبهذا المعنى يكون غالبًا الإيمان بوجود آلهة من نوع معين أو غيرها، أو ربما الإيمان بالله العظيم الذي يكتب بالإنكليزية بحرف G كبير God تحديدًا؛ أمرًا فطريًا: أي البيولوجيا بالإضافة إلى البيئة المعتادة، دون حاجة إلى ظروف ثقافية

---

(١) يقصد الكاتب بتوصيلات البنية الثابتة hardwired البنية العضوية للشبكات العصبونية في الدماغ.

خاصة تجعله تعبيرًا متوقعًا لنمونا البيولوجي في بيئة عادية، لكنه ليس حتمية بيولوجية.

أشارت أبحاث جديدة مثيرة إلى تلك النظم بالذات في العقل البشري التي تجعلنا نولد مؤمنين، وسأحدد في الفصول القادمة هذه النظم التي تنشأ مبكرًا، وأشرح كيف تجعل الإيمان بإلهٍ ما أمرًا محتومًا تقريبًا. فلا يتعرض الأطفال للأفكار الدينية لأنهم لا يعلمون بعد كيف تسير الأمور في العالم، ولكن لأنهم يتمتعون بقابلية قوية للإيمان بالآلهة، لأن الإيمان بالآلهة يشغل مساحة مرغوبة في طريقة تفكيرهم الفطرية، بمعنى أن مفهوم الآلهة سهل الاستيعاب والقبول من الأطفال ويملأ بصورة حسنة بعض الفراغات التصورية الموجودة طبيعيًا عندهم. هناك نظم ذهنية معينة تنمو باكرًا وتؤسس للإيمان الديني في مرحلة الطفولة، والنظام العقلي الذي يقسم الأشياء في العالم إلى قسمين؛ أشياء فاعلة وأشياء منفعلة، يشكل أحد الأسس لولادة الإنسان مؤمنًا بالفطرة.

***

## فصل من هو؟ عن ما هذا؟

تشعل الأفلام الخيالية مثل فلم هاري بوتر Harry Potter أو فلم عقد السرير وعصا المقشة Bedknobs & Broomstick مخيلة الأطفال، وتمنحهم شتى أنواع الأفكار مثل الرغبة اللذيذة في قدرة الأطفال على جعل الأثاث يطير أو جعله يرقص ويغني بمجرد إلقاء تعويذةٍ سحريةٍ ما، وربما استخدام القوة في جعل الجمادات تتحرك بذات الطريقة التي البطل جيدي Jedi يحركها بها في فيلم حرب النجوم Star Wars. وقد يحاول طفلٌ ما قد أسر لبه فلم مليء بالسحر أن يجعل الأجسام الجامدة من حوله كالسرير والكتب والكراسي والأحجار والشجر أن تتحرك أو يتغير شكلها عبر الحديث إليها أو محاولة إقناعها، أو أمرها للقيام بتلك الحركات، لكنه سرعان ما يدرك أنه مهما حاول وجرب فلن يستطيع أن يحرك تلك الجمادات من حوله بقوة العقل وحدها.

وفي درس مشابه يتعلم الطفل أن الطريقة المثلى لجعل الناس يتحركون هي بكل بساطة أن نطلب ذلك منهم بدلًا من محاولة دفعهم إلى الحركة بالقوة الفيزيائية مثل الدفع والتلامس والنخس والنكز واللكمات. إن الفارق بين خزانة الأدراج والعم بيلي هو الفرق بين الأجسام الجامدة وبين كائن له نوايا وأهداف، فخزانة الأدراج لن تتحرك من مكانها ما لم يقم أحد بدفعها وتحريكها، بينما تستطيع الجدة أن تتحرك فتدخل الغرفة وتخرج منها متى شاءت.

ولحسن الحظ يظهر الأطفال منذ ولادتهم علامات إدراكهم لأساسيات عمل الأشياء في العالم، فالأشياء العادية لا تتحرك دون ملامستها ولا تنتقل سحريًا من مكان إلى آخر، ولا تختفي ببساطة من الوجود[٣]، يبدي الأطفال استمتاعًا بالقصص الخيالية لأنهم يعلمون بأن العالم لا يسير بهذه الطريقة، نعلم أن الأطفال الصغار لديهم إدراك جيد عن الكيفية الحقيقية لتصرف مقابض السرير والمقشات وذلك عن طريق التقنيات المبتكرة التي وضعها خبراء علم النفس التجريبي خلال الأعوام الثلاثين الماضية لاستكشاف طريقة عمل عقول الأطفال في سنوات حياتهم الأولى.

ولمعرفة ما تعلمه الأطفال عن العالم من حولهم في سن معين نحتاج إلى تطبيق مجموعة من الاختبارات عليهم لمعرفة مدى تفاجئهم عندما لا تسير الأمور بالطريقة المفترضة، ولأن الأطفال لا يستطيعون إخبارنا مباشرة كما أن المفاجأة يصعب قياسها (ما هي وحدة القياس اللازم استخدامها، أهي لهاث الأطفال أم قرقرتهم؟). وعلى هذا قام العلماء بقياس التغيرات في مدة تحديق الطفل في شيء ما كمؤشر على الاهتمام به أو التفاجؤ به، فالطفلة إن كانت تنظر إلى عرض ما وملت فستعلمك بذلك بصرف بصرها إلى اتجاه آخر، أو بالتلوي وإحداث جلبة كما يفعل الكبار عندما يشعرون بالملل. لكن إن عرض بعد ذلك على الطفلة شيء جديد أو مفاجئ فستعاود الاهتمام مجددًا وتعطي العرض الجديد نظرة جيدة ومطولة، وتكاد تقرأ انطباع الدهشة على وجوه الأطفال.

أجرت عالمة نفس النمو رينيه بيلارجيون Renee Baillargeon وزملاؤها تجربة مميزة[٤]. قام فريق بيلارجيون باختبار أطفال بعمر شهرين ونصف من خلال اطلاعهم على مشهد لاسطوانة تتدحرج هبوطًا على منحدر ومن ثم تتوقف حين تصطدم ببعض الأجسام الصغيرة المثبتة كمعوقات للحركة، لا شيء غيرُ اعتيادي في هذا الاختبار لأن أي جسم متحرك تتعرقل حركته ويتوقف إن كان في مساره بعض العوائق.

وبعد أن مل الأطفال من النظر للتجربة أو اعتادوا عليها (تم قياس ذلك من خلال ملاحظة صرفهم لأنظارهم عن مشاهدة العرض)، وعندها قام المختبرون بإجراء تعديل طفيف على العرض، فوضعوا دمية حشرة لها عجلات في أسفل المنحدر، في بعض الأحيان كانت اللعبة يتم وضعها على بعد مسافة قصيرة عن المعوقات بحيث لا تكون الأسطوانة المتدحرجة قادرة على صدمها، وبذلك تبقى الدمية مكانها دون حراك. أما في أحيان أخرى، فقد كان المختبرون يقومون بوضع هذه الدمية بجوار المعوقات تمامًا بطريقة تمكن الاسطوانة المتدحرجة في نهاية المطاف من صدمها، إلا أن لعبة الحشرة رغم ذلك بقيت ثابتة مكانها ولم تتحرك. فمن وجهة نظر الشخص البالغ تعتبر هذه الحادثة انتهاكًا مفاجئًا لقوانين الفيزياء وما ينبغي أن تكون عليه، ولكن هل سيكون في وسع الأطفال بعمر شهرين ونصف أن يتوقعوا ما توقعه الكبار؟ لقد وجد المختبرون أن الأطفال حدقوا لمدة أطول بكثير بالعرض حيث كان ينبغي على لعبة الحشرة الموضوعة على دواليب أن تتحرك

بعد تعرضها للصدمة لكنها لم تتحرك. هذه النتيجة تقتضي أن الأطفال يفكرون كما يفكر البالغون في أن أي جسم يمكن له أن يتحرك إذا ما اصطدم به جسم آخر، أي أن الأطفال في عمر الشهرين يدركون أن التلامس الفيزيائي بين الأجسام يحركها، كما بينت اختبارات أخرى أن الأطفال في هذا السن يدركون أن الأشياء العادية (وليس العوامل الفاعلة) لا تتحرك من تلقاء نفسها[٥].

إن مثل هذه الاختبارات قد أقنعت خبراء علم نفس النمو أن الأطفال في عمر خمسة أشهر (بل ربما أصغر أيضًا) (يدركون) أن المكعبات والكرات والأحذية والألعاب يجب لمسها حتى تتحرك، وأنه عندما يمسها جسم متحرك تنزع إلى أن تتحرك. هناك كم هائل من الأدلة التجريبية على امتلاك الأطفال في أشهرهم الخمسة الأولى لمعرفة كبيرة عن الخواص الشائعة للأجسام الصلبة[٦]. الطفل الذي يشاهد فردة حذاء يعلم أن هذه الفردة تتحرك مع الأخرى معًا، أي شيئين مرتبطين؛ ويعلم أن عليها أن تتحرك على مسار متصل دون عوائق (عوضًا عن القفز من مكان إلى آخر أو المرور عبر الأجسام الصلبة)؛ كما يعلم الأطفال أن على الشيء أن يتلامس فيزيائيًا كأن يُدفع من شيء آخر كي يتحرك. ويدرك الأطفال الصغار لاحقاً في عمر السنة أن الأجسام يجب الحفاظ عليها محمولة كي لا تقع على الأرض. إن هذه الأشياء تبدو إنجازات عادية، لكنها ذات أهمية كبيرة لأنها تشكل بنية العالم المادي، وتعطي إمكانية للسير والتفاعل مع العالم، كما أنها تساعد في تأسيس معرفة ما يحدث نتيجة المسببات الطبيعية مقارنة بما يحدث نتيجة المسببات فوق الطبيعية. وما أعنيه بفوق الطبيعية هنا هو ما يعد اختراقًا لتوقعاتنا الطبيعية.

فلو كنت طفلًا لا يدرك أن الأجسام الصلبة لا يمكن أن تمر من خلال بعضها البعض، فقد أحاول المرور من خلال باب مغلق بدلًا من فتحه أولًا، أو ربما حاولت تمرير يدي عبر خزانة مغلقة لأحصل على لعبة، وما لم أدرك أن الأشياء المادية يجب أن تكون محمولة فقد أترك كوب العصير في الهواء متوقعًا منه أن يبقى معلقًا، وما لم أدرك أن الأجسام العادية يجب أن تلمس كي تتحرك فقد لا أتعلم مطلقًا علاقات السبب-النتيجة المادية في مثل حالة ارتطام كرة متدحرجة بمزهرية أو أن الارتطام بكرسي سيسقطه أرضًا، وقد أحاول أن أحرك الأشياء دون ملامستها فيزيائيًا من خلال الإيماء أو من خلال مخاطبتها أو التفكير فيها، أو أعجز عن معرفة الوسيلة اللازمة لتحريكها وأدعها وشأنها. إن مجموعة المبادئ هذه التي نستخدمها تلقائيًا عندما نفكر بالأجسام المادية اصطلح الناس على تسميتها بالفيزياء البسيطة naive physics، وتشبه الفيزياء العادية لكنها أكثر بساطة وعفوية منها، وهي نوع من الفيزياء الذي لا نحتاج إلى تعلمه.

وهكذا تدلنا الاختبارات التي أجريت على أنَّ الأطفال الصغار يتوقعون مثل البالغين كيفية تحرك الأجسام العادية في الحالات المعتادة، بل ويفاجئهم الأسِرَّة والمكانس الطائرة. وتقدم لنا نتائج دراسات أعمق سببًا لنعتقد أن الأطفال يستثنون البشر والعوامل الفاعلة الأخرى، ويميزون بين الأجسام الجامدة المنفعلة وبين العوامل الفاعلة، أي أنهم يميزون بين من هو وبين ما هذا. ويعلمون أن القوانين المعتادة في الكون لا تُطبَّق على العوامل الفاعلة.

ومن أهم الأشياء التي ينبغي أن يتقنها الأطفال؛ التمييز بين الأجسام الساكنة الهامدة وبين الكائنات العاملة أو المؤثرة، وفشل الطفل في التمييز بين الاثنين يعني فشله في التمييز بين الصخرة والدب، وقد يعني ذلك خطرًا يهدد لحياته. وأعني بالعوامل الفاعلة هنا البشر ومعهم أي كينونات أخرى لا تستجيب للوسط المحيط بها فقط بل تؤثر فيه أيضًا. إن البشر أو الجنس البشري عمومًا ليسوا العوامل الفاعلة الوحيدة التي يفكر فيها الأطفال أو يتفاعلون معها، فالكلاب والقطط وغيرها من الحيوانات يمكن اعتبارها عوامل. والحواسيب كذلك، والأشباح والكائنات الفضائية يمكن أن تكون عوامل، الآلهة هي أيضًا عوامل فاعلة سواء كانت براكين جائعة تريد أن يتم التضحية لها، أو تماثيل باكية، أو أرواح كونية غير مرئية، فلكي يفهم الطفل معنى الآلهة فإن عليه إدراك الفارق بين العوامل المؤثرة وبين الأشياء المادية الجامدة[٧].

حين يبدأ الأطفال في إدراك الفارق الجوهري بين العوامل الفاعلة والأشياء، فعندها يرون الأشياء العادية الجامدة كأثاث للعالم، فهذه الأشياء لا تفعل شيئًا بنفسها بل تستجيب لفعل غيرها أو يُفعل بها، فالكرسي لا يتحرك بمفرده حول الطاولة، والسهم المنطلق في الجو لا يستطيع أن يقرر بمفرده تغيير مسار حركته فجأة، وبالمقابل فإن العوامل الفاعلة هي الكائنات التي يمكنها أن تحرك الأثاث وتحرك نفسها.

***

## أهمية فهم العوامل الفاعلة

منذ بضعة أعوام كان لدي أرنب متدلي الأذنين اسمه باغ Pug، ولم أقتنيه للمتعة فقط، وإنما جئت به إلى مكتبي لأنني احتجته ليمثل دورًا رئيسيًا في فيديوهات أعددتها كجزء من عملي. أمضى باغ وقتًا طويلًا في مكتبي حتى اعتاد على التفاعل مع البشر وعدم الفزع منهم كعادة الأرانب، وقد كان لديه مهارات تخريبية عديدة مثل تقطيع الورق، ورغم أنه يرتاح مع وجود الناس إلا أنه لم يتقن تمامًا التمييز بين العوامل التي تملك العقل وما ليس بعوامل فاعلة. فلو جلس الناس بجواره على الأرض سيزحف باغ حولهم بحثًا عن الطعام كما لو كانوا جزءًا من الأرض أو قطعة أثاث، فيصطدم بالقدمين ويشدهما وكأنهما عصاتان، وبالمقابل كان باغ يشم بالونًا زهريًا كبيرًا ويدور حوله ويتودد إليه كأنه صديقته.

قد تكون هذه السلوكيات محببة ولطيفة لأنها صادرة عن أرنب، لكنها مزعجة وصادمة بعمق إن صدرت عن إنسان، ولحسن الحظ، فإن الأطفال أكثر ذكاءً من أرنبي، ويدركون بسهولة الفرق بين العوامل الفاعلة وبين الجمادات المنفعلة. ويبدي الأطفال على وجه الخصوص حساسية أشد تجاه عدة ميزات هامة للعوامل الفاعلة تجعلهم يدركون أن البشر والحيوانات عوامل فاعلة، وتجعلهم أيضًا متقبلين لمفهوم الآلهة:

العوامل يمكنها أن تحرك نفسها وغيرها من الأشياء.

العوامل تسعى إلى تحقيق أهداف (عوضًا عن الحركة غير الهادفة).

العوامل لا يلزمها مشابهة البشر.

العوامل لا يلزمها أن تكون مرئية.

إن التفريق بين الأشياء العادية المنفعلة وبين العوامل الفاعلة مهم للغاية، وبالتالي قد يكون من المفيد الاطلاع على بعض التجارب المعبرة في هذا المجال البحثي. إن الطفلة المتوسطة تقوم ببعض الاختبارات اللافتة بنفسها في المنزل، وتحتفظ بملاحظات ذهنية دقيقة لنتائج هذه الاختبارات (غالبًا ما تؤدي تجاربها تلك إلى جعل الوالدين يرفعان الأشياء من متناول يدها) وإليكم شرحًا لكيفية تمكن الأطفال من تعلم خصائص العوامل الفاعلة، وكيف نعلم أنهم تعلموها.

* * *

## يمكن للبشر التحرك بأنفسهم

## تجربة القبعة والجرس

أخبرني صديق عن ابن أخته كايل Kyle الذي يحب إمضاء بعض الوقت في السيارة ويقود خاله بجواره، وبينما كان في السيارة أسقط كأس العُصير أرضًا، فصاح وركل خلفية مقعد السائق الذي يجلس عليه خاله كردة فعل. لقد علم الصغير كايل أنه لا ينفعه الصراخ على كأس العصير ولا التزلف له أو إقناعه، بينما سيكون من المفيد تطبيق ذات الوسائل على السائق البشري الذي سينزل من السيارة بعد توقفها ويسلم الكأس الواقع على الأرض إلى كايل، ثم يتابع سير الرحلة.

ولكي يتمتع الأطفال بعلاقات اجتماعية طبيعية (وليحظوا بمعتقد ديني كما سأشرح لاحقًا) فإن عليهم إدراك أن العوامل المؤثرة مثل البشر لا داعي إلى دفعهم إلى التحرك مثل بقية الأشياء الفيزيائية، وذلك لأن في وسعهم الحركة بإرادتهم. فلو أردت تمرير الملح من على طاولة العشاء فلا يلزمني الإمساك بيدك لتلتقط المملحة ومن ثم استخدام ذراعك كرافعة لتمرير الملح إلي عبر الطاولة، بل إنني ببساطة سأقول: (مرر الملح إلي من فضلك). متى يميِّز الأطفال أن التماس غير ضروري للتفاعل مع العوامل الفاعلة؟ إن أولى الأدلة قد تكون في أن الأطفال يتصرفون ربما منذ عمر ثلاثة أشهر بشكل مختلف في حضور البشر مقارنة بتصرفهم حيال وجود الأشياء والأجسام الجامدة، فهم سيبتسمون ويناغون أكثر بحضور البشر[٨]. هناك أيضًا بعض الاختبارات الغريبة ولكن المبدعة، تفيدنا في إبراز معرفة الأطفال الرضع بالعوامل الفاعلة.

إذا ما ارتديت قبعة مجنونة تحمل جرسًا في أعلاها، فيمكنك أن تجعلني أرن الجرس إما بالطريقة العادية (أي دون تماس جسدي) بطلبك مني أن أهز رأسي، أو أن تمسك كتفي وتهزني بحيث يتحرك رأسي وقبعتي. ولكن إن كانت القبعة المجنونة تستقر على كرة (عوضًا عن رأسي)، فلديك خيار وحيد وهو أن تقوم بالتحريك الفيزيائي للكرة. فطلبك من الكرة أن تهز القبعة سيكون أمرًا سخيفًا وعديم الجدوى. وقد استخدم علماء النفس التطوريون مثل هذه التباينات لاختبار مدى تقدير الأطفال في عمر ستة أشهر لهذه الفوارق، فمع بلوغهم سن الستة أشهر يبدأ الأطفال بتفضيل مشاهدة الأحداث مرتبطة بأسبابها الطبيعية مثل طلب امرأة من أخرى أن تهز رأسها ليرن الجرس على القبعة بدلًا من التصرفات الغريبة الأخرى كقيام المرأة بهز قبعة المرأة الأخرى وهي على رأسها لقرع الجرس[٩]. وبالمثل يفضل الطفل ذو الأشهر الستة أن يشاهد المرأة تقوم بالهز الفيزيائي لذات القبعة المستقرة على الكرة بدلًا من أن مشاهدة المرأة تطلب من الكرة أن تهز القبعة والجرس. رغم أننا لا نعلم لم يُفضِّل الأطفال مشاهدة الحدث المتوقَّع (من وجهة نظر البالغين الكبار) على مشاهدة الحدث غير المتوقَّع، لكنهم ببساطة يميزون بين الأحداث العادية والأحداث الغريبة. ومع بلوغ الأطفال الشهر السابع من العمر يصبح الدليل أقوى على أنهم يدركون حاجة الأشياء إلى تماس فيزيائي كي تتحرك، بينما يستطيع البشر أن يتحركوا من تلقاء أنفسهم[١٠]. بل إنهم مع بلوغ الشهر التاسع من العمر يبدأ الأطفال عمومًا في الإشارة إلى الأشياء ليلفتوا نظر وانتباه الآخرين

ويرقبون نظرة أعين الآخرين ليتبينوا ما هم مقدمون عليه. إن هذين الإنجازين الهامين في التفاعل الاجتماعي والتعلم المجتمعي يشيران إلى تقدير الأطفال أن العوامل الفاعلة يمكن دفعها لتعمل دون حاجة إلى التماس معهم[11].

***

## العوامل تسعى إلى تحقيق أهداف

## تجربة الحلقات القافزة

يدرك الأطفال أن العوامل الفاعلة على عكس الأشياء العادية تستطيع تحريك نفسها وتحريك غيرها من الأشياء مثل القبعات، ويدركون أيضًا أن هذه الأنشطة من وجهة نظر العوامل ليست بلا هدف أو مغزى بل تجرى لإنجاز أهداف، كالنظر إلى شيء معين، أو الذهاب إلى مكان ما، أو الحصول على شيء معين. ونقول مجددًا تعطينا الاختبارات الذكية دليلًا.

مع بلوغ الأطفال عامهم الأول فإنهم قد نمُّوا وعيهم بأن البشر هم عوامل فاعلة قادرون على تحريك أنفسهم دون حاجة إلى من يحركهم بأساليب موجهة للهدف. وقد قام كل من جورجي جيرجلي Gyorgy Gergely وجيرجلي سيبرا Gergely Csibra بعرض رسوم متحركة من حاسوب على أطفال صغار حيث تقوم فيها حلقة صغيرة بالقفز فوق عقبة وتلامس حلقة أكبر[١٢]، وبعد ملل الأطفال من مشاهدة العرض تم وضع أحد عرضين آخرين لهم، كلاهما لحركة حلقة دون وجود عقبة، فشاهدوا إما عرضًا لنفس الحلقة الصغيرة تسير في خط مستقيم وتتلامس مع الحلقة الأكبر (وذلك عبر الفضاء وعبر الموضع التي كانت العقبة تشغلها)، أو شاهدوا عرضًا آخر للحلقة الصغيرة وهي تقفز فوق الموضع الذي كانت العقبة تشغلها وتتلامس مع الحلقة الأكبر؛ تماماً كما جرى في العرض الأساسي. ويحدث عمومًا في هذا النوع من الاختبارات التعويدية habituation

التي تجرى على الأطفال الرضع أن العرض غير المتوقع أو الجديد تمامًا هو الذي يعيد تنشيط انتباه الأطفال. ففي هذا الاختبار كان الأطفال الذين شاهدوا نفس حركة القفز للحلقة هم من استعاد الانتباه، ولكن لماذا؟ في هذا الاختبار وغيره من الاختبارات الأخرى التي استخدمت سيناريوهات مصورة مختلفة، ظهر أن الأطفال بعمر اثني عشر شهرًا يتوقعون الأجسام والأشياء التي لها هدف محدد (مثلًا بلوغ الحلقة الأكبر) أن تتابع السير لتحقيق ذلك الهدف بأكثر الطرق المتوفرة مباشرة وفاعلية، (أي دون قفز عند عدم وجود عقبة قبل الحلقة الأكبر)[١٣]. فعندما أصبحت الحركة لا يدفع إليها السعي لبلوغ الهدف فإن الأطفال ظهر عليهم الذهول وأداموا التحديق في العرض.

* * *

## العوامل الفاعلة ليست بالضرورة مماثلة للبشر

## كرة الزغب ذات الوجه

على الرغم أننا نسلم بقدرتنا على التمييز بين العوامل الفاعلة والأشياء غير الفاعلة، إلا أن هذه المسألة قد تكون مربكة حتى عند الناس ذوي الأداء الطبيعي، كنت أؤدي مرة وظيفة صيفية تتضمن صيانة سجلات الجنح الجنائية القديمة في مكتب المحامي العام للمقاطعة، وكان موقع المستودع عبارة عن مخزن معدني حار مليء بالغبار ومقام على أرض مطار محلي صغير، وهنالك قمت بأخذ الملفات وإعادتها، كما رتبت المكان عمومًا. وكانت أوراق القضايا والمواد الداعمة لأكثر جرائم المدينة قسوة تتدلى من الصناديق الكرتونية البنية المنتفخة، ومنها صور مشاهد الجرائم الوحشية، ولقد عملت وحيدًا إلا من رفقة بعض المجسمات البشرية (مانيكان) التي كانت تستخدم للمساعدة في عرض القضايا في المحاكمات. وكنت أحيانًا أرتاع من هذه المانيكانات رغم علمي المسبق بوجودها هناك وبأنها مجرد مانيكانات، أو أشعر بعدم الراحة كما لو أن أحدًا يراقبني. إن الأشكال البشرية وعلى وجه الخصوص ما يشبه الوجوه البشرية يسهل تمييزها بسرعة منذ الطفولة المبكرة. فالمظهر البشري علامة مهمة على أن شخصًا ما موجود في الجوار قد يساعدنا أو يؤذينا. ولكي نتصرف كأشخاص عاديين علينا أن نعي أن مشابهة البشر لا يطابق كون الشيء عاملًا ذا قصد.

إضافة إلى ما سبق علينا أن نفهم أن وجود عامل فاعل ذي قصد لا يقتضي دومًا أن يكون كائنًا بشريًا، فلو كان لزامًا على الشيء أن يكون في مظهر بشري ليكون عاملًا فاعلًا ذا قصد، ستتمكن الأُسودُ حرفيًا أن تدخل المدن وتطرد البشر منها؛ لأننا سنفترض عندئذ أنها لن تكون ذات قصد وذاتية التوجيه أكثر من نباتات الهندباء. لكننا مع علمنا بأن المظهر البشري هو إحدى العلامات الدالة على عامل فاعل محتمل، لكنه ليس العامل الوحيد؛ بل وليس أكثرها اعتيادية. إن قدرتنا على التفكير بأن الأشياء التي لا تماثل البشر قد تكون عوامل فاعلة تتيح لنا أن نتخيل البخار الرقيق أرواحًا ذات تفكير، وأنَّ الجبال والبراكين قضاة غاضبون، وتخيل آلهة برأس فيل وأربعة أذرع باعتبارها عوامل فاعلة ذات إرادة.

ماذا عن الأطفال؟ في اختبارات الحلقات القافزة، خرج الباحثون بنتيجة مفادها أن التفكير المنطقي عند الأطفال بخصوص العوامل الفاعلة لا يشترط أن يكون العامل مشابهًا ولو شبهًا قليلًا للبشر. وأكدت سوزان جونسون وزملاؤها هذه النقطة عبر إجراء اختبارات أخرى من نمط مختلف على أطفال بعمر اثني عشر شهرًا[١٤]. واستفادت هذه الدراسة من اكتشاف أن الأطفال بعمر حوالي تسعة أشهر يبدؤون في تتبع نظر الأشخاص من حولهم والتطلع إلى ماذا ينظرون إليه[١٥]. وانطلاقًا من هذه المعلومة تم عرض جسم ذي زغب على الطاولة أمام هؤلاء الأطفال بعمر اثني عشر شهرًا. كان الجسم كرة زغب كبيرة مع كرة زغب صغيرة مرتبطة بها، في المجموعة الأولى كان هذا الجسم يعطي خريرًا كلما أصدر الأطفال صوتًا، ويضيء من داخله كما لو كان يتفاعل ويتجاوب مع الأطفال، أما في المجموعة الثانية فقد

كان هذا الجسم الزغبي يقوم بذات الأمر لكن كان له وجه (عينان وأنف على الكرة الزغبية الصغيرة المتصلة)، أما المجموعة الثالثة من الأطفال فقد شاهدوا كرة الزغب ذات الوجه تصدر نفس الأصوات والأضواء ولكن بشكل منفصل ومستقل عن تصرفات الأطفال وعلى نحو عشوائي (غير هادف).

أما المجموعة الأخيرة من الأطفال فقد شاهدت كرة الزغب بدون وجه تصدر نفس الأصوات والأضواء عشوائيًا (دون غاية). وبعد أن تم ترك الأطفال ليشاهدوا كرة الزغب لمدة دقيقة كاملة، أصدرت صوتًا ملفتًا للانتباه واتجهت نحو أحد هدفين واقعين على طرف الطاولة التي وضعت الكرة عليها. واعتمد قياس الاهتمام على تتبع الأطفال (لنظر) الجسم، بما يعني أنهم فهموا أنه ذو انتباه موجَّه.

كان احتمال تتبع الأطفال للأجسام الثلاثة الأولى أكبر، أي التي لها وجه أو تتفاعل مع الأطفال (عبر إنارة ضوء عند حركتهم أو إصدار ضوضاء عند صياحهم). والجسم الرابع المقابل الذي لا يحمل وجهًا ويصدر عشوائيًا أصواتًا وأضواءً بقي دون استجابة منهم. إن هذه النتائج تشير إلى أن امتلاك إحدى خاصيتين (وجود وجه أو التفاعل بطريقة هادفة) يكفي ليفترض الأطفال أن شيئًا ما لديه انتباه – أي حالة عقلية بدائية.

هنا أيضًا يُظهر الأطفال في عمر اثني عشر شهرًا امتلاكهم معرفة قيمة عن الكائنات ذات القصد أو العوامل الفاعلة. ونوضح مجددًا أن العامل الفاعل لا يشترط على الإطلاق أن يكون شبيهًا بالبشر. تقول مثل هذه التجارب إنه منذ العام

الأول ينمي الأطفال أنظمة تصورية تعطي معنىً لعوامل فاعلة لا تقتصر على البشر فقط، مما يترك المجال لاحتمال أن يستعمل الأطفال الصغار هذه النظم التصورية عند التفكير بالآلهة.

***

## العوامل لا يجب أن تكون مرئية

كما يعرف جميع الآباء والأمهات يتعلم الرضع بسرعة أن ينادوا ويبكوا لاستدعائنا إليهم. أي أن الأطفال تدرك أنه حتى مع عدم رؤيتها للآباء بجوارها، يمكنهم أن يتصرفوا (يأتوا إليهم) وأن يفعل بهم (تستدعيهم من خلال البكاء). ولنتصرف بشكل سليم في المجموعات الاجتماعية، وللنجاة من خطر المفترسات أو لإمساك طريدة، يجب علينا (مثل أجدادنا) أن نكون قادرين على التفكير حتى في العوامل الفاعلة التي لا نستطيع رؤيتها. نحتاج إلى تأمل المسارات، والآثار، والضوضاء، أو حتى الصمت غير المفسر لاعتبارها كعلامات مفيدة تدل على عامل فاعل قريب يراقب وينتظر، فنتمكن من استخدام هذه المعلومات المفيدة. على سبيل المثال، أن ندرك إذا رأينا آثار الأسد تشير إلى بيتنا بأنها تخبرنا عن هدف الأسد كأننا قد رأينا الأسد نفسه. إذا كنا غير قادرين على التفكير منطقيًا بما يخص عقول الآخرين غير الظاهرين أمامنا، فلن نكون قادرين على التحدث في الظلام أو على الهاتف مثلًا، ولن نكون قادرين على تقدير الاستجابات المستقبلية والتخطيط للمستقبل، وستكون فكرة وجود مسؤولين للحكومة (الذين لم نرهم مطلقًا وهم

يتخذون القرارات ولم نرهم يعملون لتحقيق غايات معينة) ستكون مبهمة تمامًا بالنسبة إلينا. ولحسن حظنا ينمو فينا طبيعيًا القدرة على التفكير في العوامل الفاعلة غير المرئية.

وينجز الأطفال هذا الأمر بتجميع المبادئ الأخرى للعوامل المؤثرة المذكورة أعلاه. فالأشياء لا يمكنها أن تحرك نفسها، ولكن العوامل يمكن أن تحرك الأشياء. فمثلًا إن تغير مكان الأثاث أثناء قيلولتي، فمن المرجح أن والدتي أو والدي قد نقله، ومن غير المرجح أن الأثاث انتقل بنفسه.

يتعلم الأطفال القدرة على التفكير المنطقي في العوامل، حتى عندما لا يرون العوامل تؤدي الأعمال التي شاهدوها؛ بل ولو لم يروا العوامل الفاعلة على الإطلاق. وربما يتمكن الأطفال الصغار أيضًا من التفكير المنطقي بأن الأنماط المختلفة من التغيرات في العالم – عندما يتحرك أثاث العالم من مكانه – هي نتيجة لفعل عوامل خارج نطاق الملاحظة المباشرة للطفل الصغير، وسأقدم في الفصلين التاليين الأبحاث التي تتصل بهذا التفكير.

ولعل أقوى دليل على أن الأطفال الصغار يمكنهم بسهولة تصور وجود عوامل فاعلة غير مرئية والاعتقاد بها قد جاء من أبحاث عن اعتقاد الأطفال بوجود أصدقاء غير مرئيين أو وهميين، تصل النسبة إلى أكثر من ٤٠ بالمائة من الناس تؤمن بصديق وهمي واحد على الأقل خلال مرحلة الطفولة المبكرة[١٦]. وحتى الأطفال الذين لديهم نمو غير سَوِيٍّ لإدراك عقول الآخرين قد يحققون تفاعلًا غنيًا مع

رفاق غير مرئيين. تشير نظرية العقل theory of mind إلى قدرة التفكير المنطقي في دوافع أفعال الآخرين باعتبار الحالات العقلية كالمعتقدات والرغبات. ويمكن الإشارة هنا إلى مرضين؛ هما التوحد Autism ومتلازمة اسبرجر Asperger's syndrome في جزء منهما أنواع من قصور إدراك الحالات العقلية الكامنة وراء أفعال الآخرين. كان ابن صديقي مصابًا بمتلازمة اسبرجر، وفي سن الرابعة تقريبًا زرته وفهمت منه أن منزله فيه ثلاثة كلاب متخيلة غير مرئية، أكثرهم هياجًا كان اسمه غريبًا: الخطيئة[١٧]. إذًا فمع تمكن الأطفال من إقامة حفلات للثرثرة مع مجموعة أشخاص غير المرئيين، لن يشكل عدم إمكان رؤية الآلهة أي مشكلة.

أجرى برادلي ويغر Bradley Wigger مؤخرًا سلسلة من المقابلات والتجارب مع الأطفال الذين لديهم أصدقاء غير مرئيين في وقت إجراء الدراسة[١٨]. وقد وصفت التجارب التي استخدمها في الفصل الرابع. تتراوح أعمارهم بين ثلاث وخمس سنوات، فوجد أنهم ينسبون نمطيًا إلى أصدقائهم غير المرئيين معرفة مطلقة، ويفكرون بهم في التجارب كما يفكرون بالله[١٩]. ويمكن تفسير هذه النتائج بأنها تبين أن الأطفال ينشئون بعفوية أفكارهم الخاصة عن عوامل فاعلة فوق بشرية أو آلهة.

ولتلخيص الأبحاث التي عرضتها إلى الآن، لدينا سبب وجيه للاعتقاد بأنه منذ السنة الأولى من الحياة يملك الأطفال الصغار قدرة على فهم الخصائص الأساسية للأشياء المادية، ويفهمون أن العوامل الفاعلة يمكنها كسر هذه القواعد. يمكن للعوامل الفاعلة بالأخص أن تحرك نفسها وتحرك الأشياء الأخرى، وتعمل

على تحقيق الأهداف (بدلًا من التحرك العشوائي)، ولا يشترط أن تشبه البشر، أو أن تكون مرئية من قِبَلِ الأطفال ليفكروا فيها وينسبوا الأفعال إليها. هذه الإنجازات الإدراكية هي بمثابة حجر الأساس للتفكير في البشر والحيوانات، وكذلك للتفكير في الآلهة. فالآلهة عوامل فاعلة غير مرئية غالبًا، ولا تشبه البشر، ولها فعل رغم ذلك. لكن وجود أساس للتفكير بالآلهة والنزوع إلى التفكير بها أمران مختلفان، وسأستفيض في الحديث خلال الفصلين القادمين عن توجهات الأطفال الفطرية نحو التفكير في الآلهة، ولكني وضعت بعض الأسس فيما تبقى من هذا الفصل محاولًا إقناعكم بأننا لسنا فقط قادرين على التفكير في الآلهة منذ الأيام الأولى للحياة، ولكننا نملك شغفًا وميلًا طبيعيًا للبحث عن وجود عوامل فاعلة في العالم حولنا، سواء كانت تشبه الناس أو الحيوانات المعروفة أم لم تشبهها.

***

## الكشف الشغوف عن العوامل الفاعلة

عندما كانت ابنتي طفلة صغيرة، كانت تجد أحيانًا دودة الأرض وهي تلعب في الفناء. وبدل أن تبتعد عنها كانت تلتقطها وتتحدث إليها كما لو كانت عاملًا فاعلًا. (وقد أقنعنا هذا النمط من السلوك أنا وزوجتي أن الوقت قد حان لشراء دمية للطفلة). ذكرت لكم هذه القصة هنا لأؤكد أن الأطفال لا يملكون فقط الإمكانات الذهنية المطلوبة للتفكير المنطقي بالعوامل الفاعلة عندما يوجد أمامهم ما قد يعتبر عاملًا فاعلًا ظاهرًا لا جدال فيه؛ بل إنهم يوسعون مجال فاعلية العوامل إلى أشياء يجادل كثير من البالغين بأنها لا توصف بأنها عوامل ملائمة.

إن مجموعة الأبحاث النفسية التي وصفتها تبين امتلاك الأطفال لأدوات لازمة للتفكير بالعوامل الفاعلة، كما أن الأطفال شغوفون بالتطلع إلى العوامل والتفكير فيها، رغم أن بإمكان الأطفال اعتماد معايير متحوطة للتعامل مع أشياء تبدو كعوامل وأن يفكروا لاشعوريًا (إن هذا لا يتبع قواعد الأشياء العادية، ولكن يجب أن نستنفد كل الخيارات الأخرى قبل معاملته كعامل فاعل) فإن الأطفال لا يستعملون هذه الاستراتيجية المتحوطة؛ بل يبدو الأطفال ذوي نزوع نحو التفكير بالأشياء باعتبارها عوامل فاعلة لمجرد تحقيقها لأدنى المتطلبات، حتى أن مجرد نقاط حمراء أو زرقاء تتأهل عندهم لتكون عوامل، إن خرقت قواعد الأشياء الاعتيادية (الفيزياء البسيطة) وبدا أنها موجهة لتحقيق هدف، فيمكن عندها التعامل معها كعامل فاعل حتى تقديم سبب يدفع للاعتقاد بخلاف ذلك.

## نسبة الفاعلة لغير البشر

## ملاحقة الأقراص

قام فيليب روشا وزملاؤه بسلسلة من التجارب للنظر فيما إن كان الأطفال يستشعرون حركة تدل على ما يشبه العوامل، لا يقوم بها البشر[٢٠]. أجريت هذه التجارب على مجموعتين من الأطفال بأعمال ثلاثة وستة أشهر، بحيث عرض لهم شاشتي حاسوب، كل شاشة تعرض قرصًا أزرقَ يتحرك حوله قرصٌ أحمرُ، ولكن في أحد العرضين كان القرص يتحرك ملاحقًا القرص الثاني دون أن «يصطاده» أو يلامسه. أما في العرض الآخر على الشاشة الثانية فكان مطابقًا للعرض الأول من حيث متوسط سرعة القرصين وسرعة تغيير الاتجاه والمسافة بين القرصين، وغيرها من الأمور. فما هو الاختلاف بين العرضين؟

كان أحد القرصين لا يلاحق الأول؛ بل يتحرك عشوائيًا، إن تمكن الأطفال من إدراك الفرق بين هذين العرضين، فسيكون ذلك بسبب العلاقة السببية بين حركة أحد الأقراص وحركة القرص الآخر -وهي علاقة لا نراها إلا عند العوامل الفاعلة. وبالتأكيد أبدى الأطفال من عمر ستة أشهر و ثلاثة أشهر اختلافات في تحديد أي العرضين يرغبون في النظر إليه، بما يدل أنهم ميزوا بينهما، تصرف الأطفال ذوو الستة أشهر مثل البالغين بتركيز النظر أكثر على العرض الثاني الذي يحوي حركة عشوائية أكثر من العرض الذي لا يحوي حركة عشوائية وربما قد استوعبوا

بسرعة في ذلك الوقت ما الذي يجري في عرض الملاحقة للقرص، ولكنهم مثل الكبار تساءلوا عما يجري في العرض الآخر لأن العلاقة السببية غير اعتيادية في العرض.

في دراسة مماثلة متابعة للدراسة السابقة، أجريت على مجموعة مُن الأطفال بسن يقارب التسعة أشهر، تبين أن الأطفال لم يستشعروا فقط العلاقة السببية بين القرصين في عرض المطاردة، وإنما أدركوا أيًّا من القرصين يلاحق الآخر (كما يقال) ففي هذه التجربة شاهد الأطفال أولًا القرص الأحمر يطارد الأزرق أو العكس، إلى أن اعتادوا على الأمر وملوا من المشاهدة. ثم قام الباحث بعكس الملاحقة بين القرصين. فلو كان القرص الأزرق يطارد الأحمر سيصبح الأحمر يطارد الأزرق، وهنا لاحظ الأطفال في سن الثمانية أشهر والتسعة أشهر الفرق (ولم يلاحظه الأطفال الأصغر من ذلك)، وبدأوا يراقبون المشهد مرةِ أخرى (زال اعتيادهم على المشهد)[٢١]، والظاهر أنهم أدركوا وجود عكسٍ للأدوار.

هذا المستوى العقلي ليس سيئًا لأفراد لا يستطيعون الكلام أو المشي أو استخدام المرحاض، ولاحظ أن كثيرًا من تلك التجارب اسْتُخْدِمَ فيها رسومٌ متحركة حاسوبية لأقراص ملونة لا تشبه الإنسان أو الحيوان ولو من بعيد. لم يحتج الأطفال وجود شخص أو حتى حيوان معروف لإطلاق تفكيرهم حول فاعلية العامل – وهذا مهم إن كانوا سيطبقون هذا التفكير عن العوامل على وحوش

نصف حيوانية أو آلهة غير مرئية. وهذا النظام من التفكير يحرضه وجود فعل يخرق سلوك الأشياء الاعتيادي: فالأشياء الاعتيادية لا تلاحق غيرها، ولذلك فلا بد أنها عوامل فاعلة.

***

## دائرة ومثلث في حالة حب

يبدو أن هذا الميل للتعامل مع الأشياء على أنها عوامل فاعلة الذي يظهر في لحظات فشل التفكير العادي بالأشياء يستمر إلى مرحلة البلوغ. فمثلاً عندما لا تستجيب مفاتيح الحاسوب عند ضغطنا عليها، كثيرًا ما نصرخ عليها - وليس الصراخ فقط بل نوبخ الحاسوب لإخفاقاته العقلية، ونشتمه لنواياه الشريرة، ودوافعه المضادة للبشرية، فنعامله كعامل فاعل. وبالمثل نجد أن صياد الأسماك لن يقول «إن حركة الطعم في الماء تثير شبكية عين السمكة بطريقة تنبه دماغها وتنشط غريزتها لمطاردة الفريسة، ولكني سمعت كثيرًا من صيادي الأسماك يصفون بالتفصيل أنماط الفكر المعقدة للسمكة المراوغة ومخاوفها ورغباتها: «تعتقد سمكة القاروس أن الطعم ضفدعة وهي تحب صغار الضفادع جدًا»!

وجدير بالذكر أن الأطفال ليسوا الوحيدين المستعدين للتعامل مع الأشكال الهندسية على الشاشة باعتبارها عوامل فاعلة. ففي مجموعة من التجارب تمت في أربعينيات القرن الماضي وتعتبر اليوم كلاسيكية، قام هيدر Heider وسيميل Simmel بعرض فيلم رسومي على طلبة في الجامعة يتكون من دائرة ومثلثين

تتحرك حول مربع مفتوح الطرف وتدخل إليه وتخرج منه[٢٢]. ثم طلب القائمون على التجربة من الطلاب أن يكتبوا (ما الذي حدث في الصورة).

واللافت هنا أن هؤلاء الشباب أعطوا تلك الأشكال البسيطة أوصافًا عقلية غنية فنسبوا إليها معتقدات، وإرادات، وأهداف، ونوايا؛ بل وحتى أدوارًا للنوع الاجتماعي (ذكورة وأنوثة). وقد ذكر هيدر وسيميل أن واحدًا فقط من أصل أربعة وثلاثين شابًا في الدراسة الأولى تجنب وصف مشهد الأشكال بشريًا. وفيما يلي مثال تفصيلي لنمط الأوصاف التي أطلقها أحد الشباب عن الأشكال الهندسية البسيطة ثنائية الأبعاد:

المثلث الأول أغلق بابه (أو ينبغي أن نقول ضلع المربع؟) ومشى الشكلان البريئان الآخران إلى داخل المشهد. فهما بلا شك حبيبان من عالم ثنائي الأبعاد؛ هما المثلث الثاني الصغير والدائرة الحبيبة. المثلث الأول (من الآن ولاحقًا سنسميه الشرير) كان يتجسس على حالة الحب الصغير هذه. آه!... إنه يفتح الباب، يخرج لرؤية بطلنا وحبيبته. ولكن بطلنا لم يحب هذه المقاطعة (للأسف لا نعرف ما الذي جرى في هذه اللحظة بالضبط فالأمر مشوش قليلًا. اعتقد أننا لم نعرف المحادثة التي تمت بالضبط). فها هو يهجم على المثلث الأول بقوة نسبيًا (ربما نطق المتنمر الكبير ببعض الشتائم)[٢٣].

فعلى قدر ما يبدو هذا الوصف خياليًا، إلا أن هذا التوصيف تكرر كثيرًا باستخدام كائنات رسومية على شاشات الفيديو رغم عدم مشابهتها للبشر ولا

حتى للحيوانات، فهي مجرد جمادات عادية[٢٤]. في عملي الخاص مع أماندا جونسون Amanda Johnson، طلبنا من شباب جامعيين أن يصفوا لنا أفعالهم حين يضعون عددًا من الكرات المعدنية في فتحات على لوح[٢٥]. ثم قمنا دوريًا بتحريك الكرات المعدنية بواسطة مغناطيس كهربائي لدفع الكرات بسرعة باتجاه منطقتين مختلفتين على اللوح بما يخالف التوقعات الفيزيائية البسيطة للأشياء العادية. فكيف كانت النتائج؟ تحدث قرابة الثلثين من المشاركين في التجربة عن الكرات تلقائيًا كأنها عوامل فاعلة. فكتب الطلاب تعليقات مثل: (... زوجان منها لم أعجبهما)، (هذا لا يريد البقاء)، (آه، انظر، يبدو أن هذين الاثنين يقبلان بعضهما البعض)، (هنالك نوع من الشجار)، (إنهما لا يتعاونان).

إن هذا الميل لمعاملة الكائنات المختلفة كما لو كانت عوامل فاعلة أمرٌ شائع لدرجة أننا في أكثر الأحيان لا ننظر إليه على ما هو عليه حقيقة، فوجود نوع معين من العلاقات السببية بين الأشياء -عندما يخالف العلاقة السببية الميكانيكية بطريقة تبدو موجهة لهدف- يدفع عقولنا للمسارعة بتفسير الأفعال وكأن المسؤولين عنها عوامل فاعلة تشبه البشر، سواء كان شكلها يشبه البشر أو الحيوانات أم لم يشبهها. وأنا لا أركز على ذكر هذه الصفة البشرية للسخرية منها أو لأقول إن البشر عرضة للخطأ أساسًا عندما يتعلق الأمر بتحديد العوامل الفاعلة. فتحديد دقة أدواتنا العقلية على إيجاد العوامل وأفعالها ليس أمرًا سهلًا، ولكني أظن أن هذه الأداة دقيقة بالفعل بما يكفي: فعندما ندخل إلى غرفة مليئة بالعوامل مثل البشر

والحيوانات الأليفة نحددها مباشرة ونتجاهل الفوانيس والكراسي والتليفزيونات، وقد نبهت إلى (أخطاء) (إن اعتبرناها أخطاء) لمجرد توضيح شغفنا بتطبيق قدرتنا على التفكير بالعوامل في كل زمان ومكان يبدو فيه ذلك التطبيق نافعًا.

***

## رؤية الأرواح

نربط أحيانًا بعض ما يمر معنا من أمور بعوامل غير عادية. وإليكم قصة حقيقية؛ نامت عدة فتيات صغيرات في غرفة المعيشة بالمنزل حيث توجد الساعة الكبيرة التي تعمل بانتظام جيد، وهي من مقتنيات الجد الكبير فوق أحد الرفوف. وفي منتصف الليل، توقظ إحدى الفتيات الأخرياتِ تتساءل مستغربة عن شبح خرج من الساعة. «أنا لا أرى أي شيء»، «أقسم أنه خرج للتو من الساعة!»، «أوه، لا تكوني جبانة هكذا، عودي إلى النوم»، «أنا لست جبانة»، وفي الصباح كانت الساعة محاطة بالكثير من الصلبان الخشبية الصغيرة كإجراء وقائي ضد أي زيارات أخرى للشبح.

إن هذا الميل إلى اعتبار الأشياء - الجمادات والظلال والأضواء الغريبة - عواملَ فاعلةً، حتى بأدنى دليل عليها، يبين لنا كيفية عمل نظام استشعار العوامل الفاعلة فينا، وتسمى هذه الوظيفة الدماغية أحيانًا باسم: جهاز كشف الفاعلية فائق الحساسية Hypersensitive agency detection device أو اختصارًا

HADD (هـ.أ.د.د)[1]، وذلك للتأكيد على أنه يكون في بعض الأحيان مبالغًا في درجة استشعار وجود العوامل الفاعلة، وجواب سؤال هل فائق الحساسية يعني حساسية كافية ليس واضحًا، ولكن من المؤكد أن الجهاز لا يهتم أن يكون العامل أو الفاعلية قيد البحث بعيدة جدًا عن مشابهة البشر.

لقد جادل عالم الأنثروبولوجيا ستيوارد غوثري Steward Guthrie بأن خطأ المبالغة في مقدرة التعرف على العوامل الفاعلة قد يكون لها أسباب تطورية وجيهة[2]، إذ من الأفضل أن تكون آمنًا على أن تكون نادمًا[26]. فتوهمك أحيانًا بأن الريح في أجمة الشجر، أنها عامل فاعل ليس أمرًا خطيرًا جدًا، ولن يكلفك شيئًا مقارنة بنجاتك، لكن إن لم تستشعر وجود عامل فاعل في محيطك فقد يكون صديقًا محتملًا، أو خصمًا، أو حيوانًا مفترسًا أو صيدًا، فقد تصبح لقمة سائغة لنمر، ويقول غوثري بأن هذا الميل لجهاز استشعار العوامل الفاعلة الفائق الحساسية نحو سهولة تحديد عوامل غير بشرية قد يكون له دور في نشوء أو تحريض وجود الاعتقادات بالآلهة، ومن المؤكد أن قدرة جهاز (هـ.أ.د.د) على تحديد بعض الحوادث المعينة كمؤشر على عوامل حتى غير بشرية يعزز الاعتقاد بالآلهة. ولو كان جهازنا (هـ.أ.د.د) يحدد لنا فقط الفاعلية البشرية فلن نفهم بعض الأحداث الطبيعية مثل

---

(١) وهذا هو الاسم المختصر الذي سنستعمله في الإشارة إليه بقية الكتاب (المترجم).

(٢) تحاول أبحاث كثيرة في علم النفس تعليل السلوكيات الفطرية والغرائز والمشاعر بتفسيرات مادية و(تطورية) من بعد ظهور الداروينية، وهي الأشياء التي في نظر الدين تدخل في الإلهام الإلهي والهداية الربانية لكل كائن حي وللإنسان في سبيل النجاة وتحقيق المصلحة والتوافق في مختلف ظروف الحياة والبيئة (المترجم).

العواصف والأوبئة على أنها إشارات من الآلهة. أو أن بعض الأصوات والأحداث الغريبة هي رسائل من الموتى. لكننا نقوم بذلك والفضل يعود إلى جهاز (هـ.أ.د.د).

لقد ولد الأطفال فطريًا بعقول مؤهلة لفهم العالم من حولهم. لأننا كبشر لا نتميز خصوصًا بالقوة أو السرعة أو الرشاقة أو الصلابة بسبب حجمِنا، فإن ميزتنا الكبرى هي الذكاء، فلدينا قدرة هائلة على استخراج المعنى والعلاقات من كل شيء نعيشه. نتعلم التوقع السريع، ونتعلم التساؤل «ماذا لو؟» ونكشف أسباب الأحداث، وللرضع عقول مجهزة بالأدوات اللازمة لحل كل هذه المشاكل.

يحتاج الأطفال القدرة على تحديد العوامل أيضًا لأنها تمثل كلًا من التهديد الأكبر لنا، والأمل في البقاء وتحقيق ما نصبوا إليه، ولأننا نحن البشر نعتمد على بعضنا البعض من أجل البقاء والاستمرار، فمن الطبيعي أن نفهم بعضنا البعض، ولكننا نحتاج كذلك إلى فهم الحيوانات، لأنها بخلاف الصخور والطاولات مثلًا، لديها القدرة على القيام والتحرك بأسلوب هادف، وبعضها يبدو أنه يفكر ويخطط، فإذا لم نتعامل بذكاء أكثر من الطريدة فذلك يعني ضياع وجبة طعام نحتاجها بشدة، وإذا لم نتوقع تصرفات حيوان مفترس خطر فقد نصبح وجبة لغيرنا.

ولذلك فليس مستغربًا على الإطلاق أن يبدي الأطفال الرضع علامات لقدرتهم على التمييز بين العوامل الفاعلة والجمادات، ولا أن يبدوا استشعارهم الحساس لإمكانية وجود عوامل فاعلة حولهم.

إننا نتطلع باحثين عن العوامل غير البشرية، وغير المرئية، التي تؤثر في العالم عندما لا نراها -أو العوامل الخفية. تجعلنا هذه القدرات أقرب إلى التفكر في الآلهة. وبوجود هذه القدرات منذ الطفولة الباكرة مع النزوع الظاهر إلى تحري وجود العوامل الفاعلة، أو نسبة الفاعلية رغم قلة التشجيع على ذلك إلى أن الأطفال الصغار يتقبلون فكرة وجود الآلهة، بل لعله لو لم تقدم للأطفال أفكار عن الآلهة سيكتشفون الآلهة بأنفسهم، وذلك عندما نجمع الميل لاكتشاف الفاعلية مع ميل آخر سأوضحه في الفصل التالي، ألا وهو تحريهم للتصميم والغاية في العالم الطبيعي.

***

## الفصل الثاني

# أطفالٌ يبحثون عن غاية

إن الشخصية الرئيسية آرييل Ariel في فيلم الرسوم المتحركة حورية البحر الصغيرة من إنتاج ديزني، مفتونة بكل شيء في العالم البشري، وتقتني مجموعة كبيرة من أشياء صنعها الإنسان، كانت قد وجدتها في حطام سفينة في قاع البحر. أما المصدر الأساسي لمعلومات آرييل حول ماهية الأشياء ولماذا صُنعت فكان صديقها المخلص المطيع نورس البحر سكاتل Scuttle. تأتي آرييل في إحدى المشاهد بكيس مليء بـ (أشياء البشر) التي جمعتها إلى سكاتل، ويتعجب سكاتل عندما تقدم له آرييل شوكة. ثم يشرح لها أن (البشر يستخدمون هذه الأدوات الصغيرة لتصفيف الشعر). وعندما تعطيه آرييل غليونًا يُغمض عينيه ويقول إنها (أداة موسيقية أثرية يستخدمها البشر للتسلية). إن هذا الالتزام الذي يشبه محاولات سكاتل لمعرفة لماذا صنعت الأشياء؛ أي تحديد وظيفة لكل شيء والغاية منه، هو أمر فطري عند الأطفال. بل إن الأطفال لا يبحثون فقط عن هدف الأشياء المصنوعة من البشر (الأدوات) كالشوكة والغليون، وإنما يبحثون أيضًا عن الغاية من الأشياء الطبيعية كالصخور والأنهار والنباتات والحيوانات.

تحدثت في الفصل السابق عن كيفية فهم الأطفال للعوامل المؤثرة باعتبارها مميزة عن الأشياء المادية العادية، فالعوامل تحرك نفسها في حين لا تستطيع الأشياء المادية العادية ذلك. تملك العوامل الفاعلة أفكارًا ورغبات ونوايا تقود أفعالها، في حين لا تملك الأشياء العادية ذلك. وينجح الأطفال الصغار جدًا بالتفكير في العوامل غير المرئية، وأن العوامل الفاعلة لا تحتاج لمشابهة البشر جسديًا أو مشابهتهم بأي صفة أخرى. وتمكنهم هذه المقدرة على التفكر في العوامل الفاعلة أن يفكروا في الآلهة - التي تكون نمطيًا عوامل فاعلة غيبية وغير بشرية.

يملك الأطفال قدرة على تمييز الأشياء كعوامل فاعلة -إضافة إلى امتلاكهم القدرة على فهم تلك العوامل- ويرون الأحداث كنتائج لتأثير تلك العوامل. ويستمر ميلهم السهل لاستشعار العوامل إلى مرحلة البلوغ (أحيانًا دون حاجة إلى دليل قوي)، مما يجعل اكتشاف الآلهة ممكنًا؛ بل محتملًا أيضًا. وتساهم ميزة أخرى لعقل الطفل على تقبل وجود الآلهة؛ وهي إصرار الأطفال على اكتشاف الغاية والتصميم في العالم الطبيعي.

***

## لماذا يوجد ذلك الشيء؟

هل تساءلت يومًا لماذا تملك نباتات وحيوانات معينة خصائصها؟ عن نفسي أتذكر أني كنت أتساءل لماذا توجد الأشياء. فعندما أرى خرطوم الفيل أتساءل (لماذا هو موجود؟) أو عندما أرى الأشواك التي تغطي ثمار كستناء الحصان[1] أسأل (لماذا هي موجودة؟)، (لماذا يملك الحمار الوحشي خطوطًا؟)، أو (لماذا تملك الأرانب البرية آذانًا كبيرة؟)، وكذلك (لماذا تملك نباتات الشَبا جرابات هوائية في قواعد أوراقها؟)، ربما كنت فضوليًا على غير العادة، ولكني لست وحيدًا في اندفاعي إلى طرح أسئلة عن أسباب وجود الأشياء بهذا الشكل في العالم الطبيعي. فعندما نجد حيوانًا غريبًا في حديقة الحيوانات أو عند مشاهدته في التلفاز، تسمع أشخاصًا بالغينَ يتعجبون من الصفات الغريبة للنباتات والحيوانات، أو يفرحون إذا عرفوا وظيفة شيء ما.

قد يبدأ هذا التساؤل عن هدف الأشياء أو وظيفتها في المراحل المبكرة من الطفولة. لقد سمعت أطفالًا -بما فيهم أطفالي- يتساءلون عن سبب وجود خرطوم الفيل ويفرحون عندما يعرفون الإجابة. سألت ابنتي لماذا تمتلك الورود أشواكًا؟ ولم يكن هدفها من سؤالها معرفة العمليات الحيوية أو الوراثية داخل الوردة التي

(١) شجرة كستناء الحصان Horse-chestnut أو القسطل الهندي أو كستناء الجبل، وهي شجرة ضخمة تنمو أحيانا إلى طول ٣٦ مترا، تتميز بأزهارها الجميلة في الربيع، ويغلب على ثمارها اللون الأخضر مع الشوك (المترجم).

أدت إلى ظهور الأشواك، وإنما أرادت معرفة الوظيفة التي تؤديها الأشواك للوردة، وما هي الغاية منها. يُسمى هذا النوع من التفكير حول الأهداف والتصميم والوظيفة بالتفكير الغائيِّ teleological reasoning.

ربما يكون الفرق بين الأطفال والبالغين في مجال الأشياء التي ينسبون الأهداف إليها، فيتوقع البشر بكل الأعمار أن أجزاء الحيوانات أو النباتات لها غايات وكذلك أيضا الآلات والأدوات والأشياء الأخرى من صنع البشر. ولكن التفكير الغائي يمتد مع الأطفال إلى الأشياء غير الحية مثل الصخور وندف الثلج والجبال وكل الحيوانات والنباتات. لذلك فمن المعقول تمامًا بالنسبة إلى الطفل ألا يتوقف تساؤله عند الغاية من خرطوم الفيل وأذنيه؛ بل قد يتساءل عن الغاية من وجود الفيل بأكمله أو الهدف من وجود النهر أو الصخرة الناتئة. لقد أشارت مختصة علم نفس النمو ديبوراه كيليمين Deborah Kelemen إلى هذا الشغف باسم الغائية غير المميزة promiscuous teleology، ويقصد بالغائية بحث الأطفال عن التصميم والغاية في العالم، ويقصد بغير المميزة أنهم يجدون الغاية بأقل قدر من الدليل، في حالات قد يجدها البالغون غير مناسبة.

في إحدى تجارب كيليمين -التي تهدف إلى اكتشاف الغائية غير المميزة- قامت بتعريض أطفال إلى مشاهدة خلاف بين شخصيتين خياليتين، هما (بين) Ben و (جين) Jane[1]، حيث يصر أحدهما على أن وجود إحدى الأشياء له سبب، وتخالف الشخصية الأخرى ذلك. ثم طُلب من الأطفال -في عمر أربع إلى خمس

سنوات- أن يقرروا من هو المصيب؛ (بين) أم (جين)؟ كانت الأشياء المعروضة عبارة عن أشياء حية (امرأة ورجل وطفل ونمر وقطة وشجرة) وأجزاء حيوية (صيوان أذن وقدم الأسد) وأشياء طبيعية (سحابة وجبل جليد) وجزء من شيء طبيعي (قمة جبل) وأشياء صناعية (جينز، وخاتم، وبوصلة بحرية قديمة) وأجزاء صناعية (مؤشر ساعة). عُرض على الأطفال صورة لكل شيء وصورة لبِين وجين. وإليكم مثالًا عن إحدى المعروضات:

انظر... هذا نمر.

يقول (بين) إن النمر موجود لهدف ما، فقد يكون موجودًا للأكل والمشي ولتتم مشاهدته في حديقة الحيوانات، أو قد يكون موجودًا لأشياء أخرى، المهم أن (بين) على ثقة من أن النمر موجود لهدف ما ولذلك يوجد هنا. وأما (جين) فتقول إن هذا سخيف، فالنمر ليس موجودًا لأي هدف. حتى لو استطاع الأكل والمشي وعرض في حديقة حيوانات، فهذا ليس هدف وجوده، لأنها مجرد أشياء يستطيع فعلها أو يفعلها البشر به. (جين) تؤكد أن النمر يستطيع القيام بأشياء متعددة ولكن لم يوجد من أجلها.

ثم طلبوا من كل طفل أن يشير إلى من يراه محقًا. هل هو (بين) الذي يعتقد أن النمر موجود لغاية ما؟ أم (جين) التي تعتقد أن هذا سخيف وأن النمر ليس موجودًا لغاية ما[٢].

ربما من المفاجئ أن هؤلاء الأطفال الأمريكيين ذوي الأربع إلى الخمس سنوات يتفقون على أن الأشياء الطبيعية والكائنات الحية موجودة لهدف كما هي حال الأشياء التي يصنعها الإنسان. لقد اختارت ثلاثة أرباع الإجابات إجابة وظيفية وإجابة (موجود لغاية). وبالنظر إلى طبيعة هذه الأسئلة والأمثلة من المبالغة القول بأن الأطفال قد تعلموا هذه الأنواع من التعليلات الغائية؛ مثل ماذا يوجد النمر لأجله، إذ لا يقوم الأهالي الأمريكيون بتعليم أطفالهم أن النمور والأشجار موجودة لشيء بنفس الإقناع أو التواتر الذي يعلمونهم به أن الآلات وثياب الجينز مصنوعة لهدف ما. يبدو أن الأطفال منساقون تمامًا إلى هذه الإجابات التي تطرح هدفًا أو وظيفةً لوجود الأشياء الطبيعية.

وجدت كيليمين في مجموعة أخرى من التجارب أن الأطفال في عمر سبع وثماني سنوات يفضلون التفاسير الغائية (الوظيفية) لخصائص حيوانات متنوعة وأشياء طبيعية غير حية[٣]. فمثلًا عندما شاهدوا صورة لصخرة مدببة وسُئلوا (لماذا تظنون أن الصخور مدببة للغاية؟) قدموا تفاسير وظيفية وهدفية مثل (هي مدببة كي لا تجلس الحيوانات عليها وتحطمها) وفضلوها على تفاسير فيزيائية مثل (هي مدببة لأن أجزاء من المواد قد تكدست فوق بعضها البعض لفترة طويلة من الزمن) ونقول مجددًا لم يعلم الأهل ولا المدرسون الأطفالَ أن الصخور تكون مدببةً كي لا تجلس الحيوانات عليها. إنها إحدى الطرق التي نتأكد من خلالها بأن هذه الميول في التفكير ليست انعكاسًا للتلقين الذي يقوم به البالغون.

لقد سألت كيليمين أيضًا مع مساعدتها كارا دياني Cara Diyanni أطفالًا بريطانيين من أعمار ست، وسبع، وتسع، وعشر سنوات حول سبب وجود عدد من الأشياء الطبيعية والصناعية[٤]. حيث قسمت هذه الأشياء إلى حوادث طبيعية (عاصفة رعدية، وفيضان)، وأشياء طبيعية غير حية (أنهار، وجبال)، وحيوانات (قرود، وطيور)، ومصنوعات (قوارب، وقبّعات)، وسألتا في البداية أسئلة مفتوحة النهاية بصيغ مثل (لماذا حدث الفيضان الأول؟) و(لماذا وجد الطير الأول؟)، وبالتوافق مع ميلهم لإيجاد الغائية في العالم الطبيعي قدم الأطفال إجابات غائيَّة أكثر من أي نوع آخر من الإجابات عن الأشياء الطبيعية والحيوانات والمصنوعات. وفضلوا التفاسير الفيزيائية فقط للحوادث الطبيعية (مثلًا، حدثت العاصفة الرعدية الأولى لأن غيمتين اصطدمتا). ولتوضيح أنواع الإجابات التي قدمها الأطفال، لننظر إلى هذه التفاسير الوظيفية من الأطفال في الدراسة:

### لماذا وجد الطير الأول؟

(ليغرد موسيقى رائعة)

(لأنه يجعل العالم أروع)

### لماذا وجد القرد الأول؟

(ليكون لدينا أحدٌ ما يتسلق الأشجار)

(ليوجد حيوان في الأدغال)

## لماذا وجد الجبل الأول؟

(وُجدت الجبال... لكي ينظر إليها الناس ثم يحضروا قطعة ورق ويرسموها)

(ربما لأن الأرض عانت كثيرًا -على طول الوقت- من زلازل واحتاجت شيئًا ما... مثل مثقلة الورق... ربما بسبب وجود زلازل كثيرة جدًا فقد اعتقدوا وجوب وجود شيء ما يستطيع إيقافها... فوضعوا الكثير والكثير من أوزان الحجارة).

## لماذا وجد النهر الأول؟

(لكي تستطيع القوارب السير في الماء)

(لكي يستطيع البشر الذهاب إلى الصيد)

وبعد أن أجاب الأطفال على هذه الأسئلة مفتوحة النهاية، سألهم مجري المقابلة أسئلةً مغلقة النهاية. والأسئلة ذات الأهمية الخاصة كانت ما يعرف بأسئلة التصميم الذكي intelligent design، وفي هذه الحالة سأل مجري المقابلة (حسنًا، لقد تكلمنا عن الجبال [أو الأنهار أو القرود أو الطيور]. فالآن أطرح عليك سؤالًا هو: هل قام أحدٌ ما أو شيءٌ ما بإيجاد الجبل الأول أو أنه نشأ من نفسه؟)، والإجابات الممكنة أمام الأطفال هنا ثلاثة: أحدٌ ما أوجدها... أو شيءٌ ما أوجدها... أو أنها نشأت هكذا[٦]. لقد أجاب قريب من نصف الأطفال عن الأشياء الطبيعية والحوادث الطبيعية بأن أحدًا ما أوجدها، واختار ثلاثة أرباعهم الإجابة بأن أحدًا ما أوجد الحيوانات. لقد أظهر الأطفال في الأسئلة مفتوحة النهاية ميلًا

إلى رؤية الأشياء الطبيعية على أنها تملك هدفًا وظيفيًا. وأبدوا في هذه الأسئلة مغلقة النهاية ميلًا لاعتبار مسبب الغاية أنه أحد ما –عاملٍ فاعل. فخصائص العالم الطبيعي ليست إذن مجرد حوادث كانت مفيدة بالصدفة، وإنما هي خصائص منظمة وذات أهداف.

***

## العوامل الفاعلة فقط توجد النظام

إذا تنزهت وقتًا طويلًا في مناطق برية يستخدمها الناس بانتظام للتخييم وللسفر الخفيف بحزم حقيبة الظهر backpacking فلعلك اكتشفت ما يبدو أنه ترتيبات منظمة لأشياء بعيدة عن المناطق الحضرية. فربما صادفت حجارة موضوعة على شكل حلقات، غالبًا مع خشب متفحم داخل الحلقة، أو قد تكون رأيت أكوامًا صغيرة من حجارة على أرض الغابة بجانب ممر ممهد جيدًا، وقد تكتشف قطعًا من أشجار خضعت لعملية إزالة للحاء لتصبح مسطحة نسبيًا وعلى هذه البقية حفرت رموز (إشارات)، وبدل أن تتفكر في مجموعة الحوادث الطبيعية التي أدت لهذه الترتيبات المنظمة فيما يبدو، فإنك بلا شك تستدل أن هذه الترتيبات هي علامات على أن بشرًا كانوا هنا. لأن العوامل الفاعلة تقدم بالمحصلة ترتيبًا ذا هدف، في حين لا تؤدي الحوادث الطبيعية لذلك. يعرف البالغون هذا، ولكن هل يعرفه الأطفال؟ يقول الدليل الحديث أنهم ربما منذ بلوغ الشهر الثاني عشر أو الثالث عشر يعرفون ذلك.

قدَّم عالم نفس النمو جورج نيومان George Newman ومساعدوه عرضين رسوميين لأطفال بعمر اثني عشر وثلاثة عشر شهرًا على شاشتي حاسوب: كرة تضرب على كومة متسقة من اللَّبِنات (محجوبة بحاجز يخفي الضرب الحقيقي) محولة إياها إلى كومة غير مرتبة، وبالعكس (تكون اللبنات في البداية غير مرتبة وتنتهي في كومة متسقة)[٧]. سيلاحظ البالغون مباشرة أن شيئًا غير متوقع قد حدث للتو: لا يمكن للكرات أن تكوِّم اللبنات باتساق! ولكن هل يبدي الأطفال الرضع هذا التفاجؤ؟ وباستعمال الزمن النسبي الذي يقضيه الطفل بالنظر إلى الشاشة كمقياس للتعجب الشديد فقد كان الأطفال متفاجئين حقًا. فقد نظروا لمدة أطول في (اختبار الترتيب) المفاجئ[٨]. وتقول لنا هذه النتيجة إن الأطفال يفاجئهم أن مجرد كرة تنشئ ترتيبًا، أكثر من أن تنشئ كرة ما فوضى. لكن النسخة الثانية من تجربة نيومان كانت أكثر إثارة.

في النسخة الثانية من هذه التجربة، يختفي جسم كروي عليه صورة وجه بسيط ويتحرك بما يشبه العامل (بدلًا من التدحرج) ثم اختفى خلف الحاجز وقام (ظاهريًا) إما بترتيب اللبنات أو تخريبها[٩]. ولم يبد الأطفال في هذه الحالة أي تفضيل بين اختبار الترتيب واختبار الاضطراب، أي أنهم لم يجدوا أيًا من العرضين أكثر مفاجئة من الآخر. إن التعليل المباشر لهذه التجربة ولتجارب أخرى مشابهة هو أن الأطفال في حوالي عمر السنة يملكون الحدس نفسه الذي يتمتع به الكبار: يمكن للبشر والحيوانات والآلهة وعوامل فاعلة أخرى أن تنشئ ترتيبًا أو اضطرابًا، ولكن ما ليس بعامل فاعل مثل العواصف والكرات المتدحرجة تنشئ الاضطراب فقط.

بناء على هذا النوع من الدليل، لا تفاجئنا نتائج أبحاث كيليمين وزملائها بأن الأطفال الصغار يعتقدون أن أحدًا ما مسؤول عما يرونه ترتيبًا غائيًا في العالم. فمنذ البدايات المبكرة يربط الأطفال العوامل ذات القصد مع الترتيب، ويرون الغاية والوظيفة والتصميم في العالم الطبيعي، ولذلك يفترضون فطريًا (طبيعيًا) أن أحدًا ما قد أوجده[10].

***

## النظرية الوجودية للعقل

دعا أحدُ المبشرين في تموز عام ٢٠٠٣ اللهَ خلال زيارة لكنيسة أوهايو بطريقة بلاغية عاطفية ليبلغ اللهَ ما يريد قوله للحشد، وبعد لحظاتٍ ضرب برجَ الكنيسة برقٌ أضرم النار فيها، وقد اقتُبس قول أحد الشهود من الحشد: (لقد كان يسأل عن آية وقد حصل عليها)[11]. لم يكن مفاجئًا أن يكتسب هذا الحدث اهتمامًا من الحشد في الكنيسة ومن الصحافة الشعبية، فقد بدا أكثَر من مجرد مصادفة بحتة. لقد اقترح عالم نفس النمو التطوريِّ جيسي بيرينغ Jesse Bering طريقة أخرى لامتلاك الناس منذ عمر الطفولة انحيازًا نحو رؤية الغاية في العالم الطبيعي، وقد أطلق عليه اسم النظرية الوجودية للعقل existential theory of mind. وخلف هذا المصطلح الحذق تقبع فكرة أبسط: يملك الناس ميلًا قويًا للبحث عن المعنى وتقديره وراء الحوادث، فمثلًا، ذكر لي أحد الأصدقاء مرةً تجربته حول ذهابه خارجًا تحت سماء ليلة مرصعة بالنجوم يجادل نفسه بفكرة: هل الله حقيقي

ومهم لحياته؟ وعندها رأى شهابًا ثاقب الضياء يجتاز قبة السماء، وهو ما لم يتمكن أي من زملائه المراقبين للسماء من رؤيته، اعتبر فورًا أن هذا الشهاب الثاقب آية من الله. فهم صديقي أن الحادثة تعني شيئًا -للإشارة إلى شيء ما وأن سببها أحد ما. جادل بيرينغ بأن هذا البحث عن معنى يشتمل نمطيًا على افتراض أن قصد فاعل ما، تكمن وراء الحوادث المدهشة. عندما تصيبنا حادثة تحت ظروف مفاجئة أو غير معتادة فإننا نتعجب بالقول دائمًا، (لماذا أنا؟ ماذا يعني هذا كله؟).

إن قدرة رؤية الأحداث برابط رمزي هي إنجازٌ نفسي يظهر منذ الطفولة، وقد أجرى بيرينغ تجاربه المخبرية مع الأطفال لاستكشاف قدرتهم على التعرف على الحوادث باعتبارها أفعالًا توصل إلى معنى محتمل[١٢]. كانت إحدى تجاربه التي تدعى (الأميرة أليس) عبر الإجراءات التالية: يُحضَر الأطفال إلى غرفة ويُجلسون على طاولة، يوجد عليها صندوقان. يشرح مشرف التجربة بأن أحد الصندوقين يحتوي جائزة، وإذا اختار الطفل الصندوق الصحيح فإنه أو إنها ستفوز بالجائزة. ويشرح المشرف أيضًا بأن هنالك أميرة غير مرئية تدعى (الأميرة أليس) تحب أن تساعد الأطفال الصغار الجيدين وذلك بأن تنبههم بطريقة ما إن اختاروا الخيار الخاطئ، وقد عُلقت لوحة للأميرة أليس (تبدو بشكل مريب مثل اللعبة الباربي) على الحائط، كما تحوي الغرفة أيضًا فانوسًا على الطاولة قوي الإضاءة. بعد هذا الشرح للأطفال يطلب المشرف من الأطفال اختيار صندوق، ولكنه يختلق عذرًا لكي يغادر الغرفة فورًا مع أهل الطفل لفترة وجيزة. عندما يعود المشرف فسيفتح

أي صندوق تقع يد الطفل أو الطفلة عليه. يصل الطفل للصندوق ومن ثَمَّ، عندما يلمس أو تلمس الصندوق، فإما أن يومض المصباح أو تقع لوحة الأميرة أليس من على الجدار. كان قياس الاهتمام معتمدًا على تغيير الأطفال لاختيارهم، وكذلك إذا غيَّروا اختيارهم كيف سيبررون اختيارهم.

بينت نتائج بيرينغ بوضوح أن الأطفال بعمر سبع سنوات يغيرون قرارهم في هذه الظروف ويختارون الصندوق الآخر (ولكن لا يختارون الصندوق الآخر عندما لا يومض المصباح أو لا تقع اللوحة). لقد فسروا أيضًا أن وميض الضوء أو وقوع اللوحة كانت علامة لهم لتغيير خيارهم، كما سجل بيرينغ أيضًا أن القدرة على استخدام الحوادث كعلامات ذات معنى يظهر قبل القدرة على تقديم التفسير. غيَّر الأطفال الأصغر سنًّا خيارهم عندما سقطت اللوحة ولكن لم يستطيعوا تعليل السبب.

لا زال البحث في هذا المجال جديدًا، ولكن فكرة أن الناس تنمي في وقت مبكر ميلًا نحو إعطاء الحوادث معنىً وقصدًا هي فكرة مثيرة، وإن دُعمت بأدلة أكثر منهجية ربما تساهم في فهمنا للمعتقدات الدينية. قد لا يملك الأطفال ميلًا نحو رؤية العالم الطبيعي كعالَم منظم وهادف فحسب؛ بل ربما يعتبرون حوادث إضافية كهزيم الرعد وشهب السماء أهدافًا لإيصال رسالة، تحت شروط معينة على الأقل.

***

## الكبارُ يجدون هدفًا

والأمر المهم أن النزوع نحو رؤية التصميم الذكي لا يبدو شيئًا ننميه ببساطة، وقد بينت كيليمين مؤخرًا بالتجربة أن البالغين، حتى المدربين علميًا منهم، عندهم انحياز لتفضيل التفاسير المبنية على الغاية.

طلبت كيليمين وروسيت Rosset من طلاب الجامعة تقييم تفاسير متنوعة للأشياء الطبيعية وخصائصها الخاصة (كالفرو الأبيض على الدب القطبي)[١٣]. ظهر من بين التفاسير تفاسيرُ (جيدة) علميًا (لا تستند إلى التصميم أو الغاية ولكن تعتمد على الآليات الطبيعية فقط) وتفاسير أخرى شملت كلًا من التفاسير التي تستند على الغاية مع تفاسير أخرى غريبة تمامًا (مثل القول بأن الدببة القطبية بيضاء لأن الشمس أبهتت فروها). رفض البالغون عندما توفر لهم مزيدٌ من الوقت للنظر في هذه الأسئلة اعتبار التفاسير الغائية تفاسير (جيدة) كما قد عُلموا في صفوفهم العلمية الجامعية. لأننا تعلمنا أن التطور ليس له غاية أو اتجاه أو تصميم، فلذلك تصنف هذه التفاسير كتفاسير (سيئة) (مع تفسير أن فراء الدببة القطبية قد بيضته الشمس)، ولكن عندما ألزمتهم كيليمين بتقديم إجابة سريعة قبل هؤلاء الطلاب التفاسير الغائية على أنها تفاسير (جيدة)، في حين تحسنت دقتهم في الرفض (الصحيح) لتفاسير أخرى (سيئة) (ربما لأنهم لم يملكوا وقتًا يكفي لإعادة التفكير). أجاب البالغون غير المثقفين بما يشبه إجابات الأطفال في هذا النوع من

المهمات[١٤]. تطرح الدراسات من هذا النوع أننا وبكل بساطة لا ننمي نزعة رؤية الغاية في العالم، ولكن نُلزم بأن نتعلم كتم هذا الميل في التعليم الرسمي، ومع ذلك يتسلل هذا التفسير ليظهر لاحقًا عندما لا نكون شديدي التيقظ.

تقرر هذه البديهة الراسخة التي نشأت مبكرًا أنَّ هناك تصميمًا وهدفًا وراء كل شيء نراه في الطبيعة، وقد تدفع بقوة لترك فكرة حدوث التطور فقط عبر الانتقاء الطبيعي الأعمى لا غير. وقد نعتقد حدسًا أن التطور يحتاج مساعدة متقطعة من مصمم ذكي ليجعل تعليل حدوث التطور مَقبولا[١٥]. لأنه على المستوى الأساسي يبدو أنَّ افتراض وجود مصمم وضع التصميم أمرٌ صحيحٌ، وهذا ما تشجعنا عقولنا منذ الطفولة الباكرة على التفكير به؛ بل نجد أن استعمال لغة التصميم والغاية أمر حتمي حتى عند أشد التطوريين صلابة ممن يحاربون ضد التصميم. تُجبرنا الطريقة التي نمت بها عقولنا طبيعيًا على التساؤل مَنْ أو ماذا وراء التصميم الواضح أو الغاية في الطبيعة. من هو المصمم الأكبر؟ هل هي الطبيعة ذاتها؟ أم التطور؟ أم الانتقاء الطبيعي؟ أم إله؟

قدمت في الفصل السابق سببًا للاعتقاد بأننا منذ الطفولة الباكرة نسعى بطموح وراء علامات وجود العوامل الفاعلة السرية حولنا. ويضاف إلى ذلك الميل لرؤية التصميم والهدف في العالم الطبيعي. ثم تابعنا للنظر في البديهة العميقة حول أن الناس أو المخلوقات الطوعية الأخرى فقط هي التي تضع تصميمًا مرتبًا،

وأن القوى الطبيعية لا تنتج هدفًا. وفي النهاية توسعنا في ذكر الميل الراسخ للتساؤل عن معنى الحوادث غير العادية، وهكذا نحصل على وصفة لعقول تنمو طبيعيًا وتستجدي جوابًا لسؤال، (من وراء هذا كله؟)

***

## الفصل الثالث

# معرفة الخالق

عِشتُ بعمر الثامنة في جبال كاليفورنيا الجنوبية حيث تهطل الثلوج دومًا بكميات معتدلة كل شتاء. أحببتُ الثلجَ وكانت متعة خاصة عندما تُغلق المدرسة أبوابها بسبب الثلوج، وبدل أن ننهمك في الرياضيات والقراءة كنا نتزلج ونتزحلق في أرض العجائب التي يشكلها الشتاء. وفي تلك السنة في شهر أيار هجم شتاء قارص على كاليفورنيا الجنوبية وبدأ الناس يتحدثون عن إمكانية ضئيلة لهطول الثلج. بدأتُ الصلاة جديًا ليهطل الثلج كي لا أترك شيئًا للصدفة، ولم يكن دعائي لثلج قليل؛ بل ثلج يكفي لإغلاق المدرسة. حاولت أمي إقناعي بأن هذا قليل الاحتمال جدًا، ومع ذلك فقد صليت لهطول الثلج في السبت السابق لعيد الأم، وتساقط الثلج حتى بلغ ارتفاع قدمين في عيد الأم ولم نذهب إلى المدرسة يوم الاثنين.

يأتي الأطفال للعالم مستعدين لفهم العوامل الفاعلة ذات القصد والإرادة، وهذا يمكنهم من تصور الآلهة، ولكن لا يحفزهم بالضرورة على التفكير فيها. طالما

أن العالم حولنا يتعلق ببشر آخرين وإنجازات ونشاطات للبشر، فلماذا نهتم بالآلهة؟ والجواب البسيط عن هذا، أن كثيرًا من مناحي الحياة تقع خارج سيطرة البشر مثل الطقس.

سرعان ما يدرك معظم البشر المتفكرين عند البلوغ أن العالم لا يتعلق فقط بالبشر، إذ تقع العديد من الأشياء خارج السيطرة التامة للإنسان؛ مثل نشأة الكون وقوانين الطبيعة وتنوع النباتات وتقلبات الطقس والنجاح في زراعة المحاصيل وإيجاد طعام كافٍ والعديد من الأمور الأخرى. إنَّ نسبة السبب (أو اللوم) عن حوادث أو ظروف كثيرة جدًا إلى آلهة أو إلى الله، يعتبره كثير من الكبار أمرًا معقولًا. ولكن هل لدى الأطفال الميل ذاته؟ هل ينظر الأطفال الصغار أبعد من نشاط الإنسان لتعليل ما يرونه حولهم؟ يقول الدليل المتزايد من علم نفس النمو أن الإجابة هي نعم.

كما ناقشنا في الفصل السابق يعزو الأطفال الغايات بسهولة لكثير من الظواهر الطبيعية بما في ذلك خصائص الحيوانات والنباتات وحتى تشكيلات الصخور. إن مثل هذه الغائية المنتشرة في كل مكان قد تحث الأطفال على تقبل وجود الإله أو الآلهة كسبب لها - مصمم يعلل وجود التصميم. ولكن مجرد أن يبدو ذلك ارتباطًا معقولًا عند كثير من البالغين لا يقتضي الأمر ذاته عند الأطفال، والحاصل قد يكون المسؤول عن التصميم نوعًا مختلفًا جدًا من كائن أو كائنات مريدة تفسر وجود ما نراه من ترتيب وغاية في العالم الطبيعي - ربما يكونون البشر أنفسهم.

## الأطفال: منظور التصميم الذكي

يقول عالم النفس السويسري جان بياجيه Jean Piaget، وهو أحد أكثر علماء نفس النمو تأثيرًا في القرن العشرين، يرى الأطفال تلقائيًا وطبيعيًا العالمَ على أنه من صنع البشر. وخَلُص بياجيه من خلال لقاءاته مع الأطفال بأنه حتى عمر الثامنة أو ما يقاربه يميل الأطفال ميلًا كبيرًا إلى الاعتقاد بأن العالم الطبيعي مصنوع أو مُنشأ، ودعا ذلك بالصُنعيَّة artificialism؛ وهي فكرة أن الأنهار والأشجار والأجرام السماوية وأجسام الحيوانات، مصنوعة من قِبَل أحدٍ ما تمامًا كما أن الأثاث والأدوات والألعاب هي من صنع أحدٍ ما، فالجبال والبحيرات والشمس والقمر لم تكن موجودة دومًا فقد صُنعت في لحظة ما. يتوافق هذا الادِّعاء مع نتيجة كيليمين بأن الأطفال يميلون إلى رؤية أن عناصر العالم الطبيعي مصممة بقصد ولغاية ما، ولكن بياجيه ذهب أبعد من ذلك ليحدد من يعتبره الأطفال صانع الجبال والبحيرات والقمر. فوفقًا لبياجيه يعتبر البشر هم الخالقون بالنسبة لعقول الأطفال. انظر هذا الأخذ والرد الذي سجَّلَه بياجيه مع طفل بعمر ست سنوات. (من أين أتت الشمس؟)-من الجبل. -كيف بدأت؟ -بالنار. -وكيف بدأت النار؟ -بعيدان الثقاب. -وكيف بدأ الجبل؟ -بالأرض...إنه من صُنع البشر.)[1]

وجادل بياجيه بأن هذا الميل للتفكير بالعالم الطبيعي على أنه مصنوعٌ لم ينشأ ببساطة من الثقافة الدينية المشوشة. (يجد المرء... أنه قبل أن يتم أي تعليم ديني، تطرح الأسئلة عن الصُنعية عند الأطفال بعمر سنتين إلى ثلاث سنوات. (من صنع

الشمس؟) يسأل طفل اسمه فران عمره سنتان وتسعة أشهر[٢].

يسمح تعليل بياجيه لظاهرة الصُنعية بدور لله أو الآلهة في العملية، ويفسِّر الأطفالُ اللهَ على أنه أحد البشر، أو أحد المهندسين، وربما مراقب موقع البناء:

فمن جهةٍ يُعلَّم الطفل أن الله قد خلق السماوات والأرض، وأنه يوجه كافة الأشياء وأنه يرانا من السماء حيث يقيم. لا يوجد ما يفاجئ في استمرار الأطفال ببساطة في التفكير على هذا النمط وتخيل تفاصيل طريقة هذا الخلق وافتراض أن الإله قد حصل على العون من مجموعة حِرفيين مَهرة[٣].

لقد كان سبب مثل هذا التضمين البسيط للبشر في فعالية الخلق عند الله من منظور بياجيه، أن الأطفال لا يميزون بين الله وبين البشر حتى عمر الثامنة أو التاسعة. فالإله كان إنسانًا (أو كان البشر آلهة):

إضافة إلى ذلك، عندما يبدأ الطفل الحديثَ عن الله... فهو يتصوره إنسانًا. الإله (رجل يعمل لسيده) (الطفل دون)، (رجل يعمل ليكسب لقمة عيشه) رجل عامل (يحفر)...الخ. وباختصار فالإله إما أن يكون إنسانًا كبقية البشر أو يتحدث عنه الطفل برومنسية كما يتحدث عن بابا نويل أو الجنيات[٤].

...

هو إنسان مثل أي إنسان آخر، يعيش في الغيوم أو في السماء، ولكنه مع هذا الاستثناء لا يختلف عن بقية البشر. (شخص يعمل لمصلحة سيده)، (رجل يكسب

الأجرة) هذه بعض التعاريف التي أعطاها أطفال بعمر حوالي سبع أو ثماني سنوات أصولهم من طبقة عاملة.[٥]

إذا كان مفهوم (الله) يقصد به كائن بشري معين، فإن أي أقوال للأطفال عن إله أو أُناس يصنعون أشياء طبيعية هو دليل على الصُنعية. ولا يهم إن ميز الأطفال بين الله وبين الناس عندما يتعلق الأمر بالخلق، وكتب بياجيه (مثلًا تردد بعض الأطفال المعينون في نسبة خلق البحيرة إلى الله أو إلى البشر، قائلين: لا أدري إن كانت من صنع الله أو من صنع الإنسان)[٦] وبالمثل يقول: (كما رأينا، نسب حتى خلق الشمسُ والقمر والسماء إلى صنع الإنسان وليس إلى صنع الله، في نصف الحالات على الأقل)[٧].

بناء على تجربة بياجيه في أوائل القرن العشرين يعتبر الأطفال أن العالمَ الطبيعي نتج من نشاط الخلق البشري. شرع البشر من زمن سحيق، وربما على الأخص رجل منهم يُسمى (الإله)، في صنع البحيرات والجبال والقمر والشمس والكواكب والسماء، كما يبنون اليوم البيوت والجيوش والسدود والجسور. إن هذا التعليل متوافق بالتأكيد مع أبحاث أكثر معاصرةً فيما يخص النزعة الفطرية عند الأطفال لرؤية العالم الطبيعي باعتباره عالمًا مصممًا له غاية.

يبدو أن وجود التصميم عند الأطفال كما هو عند الكبار يقتضي بديهيًا وجود مصمم، نظرًا لأن الرُّضع يتوقعون عاملًا فاعلًا، وليس شيئًا جامدًا لا فعل له، ليتمكن من صنع النظام من الفوضى[٨]. وبالإضافة إلى ذلك، وجدت ديبراه كيليمين Deborah Kelemen وكارا دي ياني Cara Diyanni في دراستهما لأفكار

الأطفال عن منشأ الأشياء، أن الأطفال الذين قدموا تعليلات غائية لسبب وجود العاصفة الرعدية الأولى، والنهر الأول، والطيور الأولى، وأشياء طبيعية أخرى، يميلون إلى تأكيد إجابات التصميم الذكي لسؤال لاحق إلزامي. فمثلًا نجد أنَّ الأطفال الذين أجابوا على سؤال (لماذا وجد الجبل الأول؟) وقدموا تعليلًا غائيًا للمنشأ مثل (لكي يستطيع البشر تسلقه)، كانوا أكثر ميلًا لمتابعة للإجابة بأن أحدًا ما أوجد الجبل الأول (على عكس القول بأن شيئًا ما أوجده أو أنه قد حدث صدفةً). تُبين هذه النتائج علاقة بين رؤية التصميم، وافتراض وجود المصمم.

يملك البشر من منظور بياجيه الذكاء والقدرة لملء دور المصمم، فطبيعي أن يرى الأطفال أن العالم مصمم بشكل ذكي بواسطة البشر. يلائم هذا التفسير العديد من الوقائع وله مجال معين من القَبول. وبالمحصلة يُقبل من وجهة نظر طفل حديث الولادة أن تدير كائنات واسعة القدرة (الوالدان) عالمه: تحديد وقت الضوء والظلام، ووقت أحصل على طعامي أو لا أحصل عليه، ومتى أنتقل من مكان إلى مكان، وتحديد ماذا يوجد حولي. تعتبر العوامل الفاعلة مسؤولة عن الكثير من التصميم، والترتيب، والغاية التي يختبرها حديثو الولادة. ربما يستنتج الأطفال الصغار من هذه الخبرات أن هذا الأمر يصح على بقية العالم: فالكبار أناس أقوياء صمموا وبنوا العالم. لكن افتراض بياجيه تم نقده.

***

## لا يصنع البشر أشياء طبيعية

إحدى مشاكل تفسير بياجيه كانت نمط طريقة المقابلة التي استخدمها ليأخذ آراء الأطفال، فربما كان سؤاله عن منشأ الأشياء بطريقة تشجع الأطفال بغير قصد أن يختلقوا قصصًا عن المنشأ، وإن لم يعتقدوا بها حقًا. ربما كان وصفهم لبناء الناس للجبال والبحيرات أسهل تعليل فكروا به وشرحوه، ولكنهم لم يفكروا حقيقة به حتى طرح عليهم السؤال. من المسلي في الأطفال قدرتهم السريعة على ارتجال واختلاق تفاسير وقصص بلمح البصر حول أشياء لم يفكروا بها أبدًا من قبل.

ولتجنب هذه المشاكل المحتملة استخدم خبراء آخرون من علم نفس النمو مؤخرًا طرقًا مختلفة للإجابة على قضية هل يفهم الأطفال أن الناس يصنعون الأدوات والآلات والمواد الاصطناعية الأخرى، ولكنهم لا يصنعون الأشياء والمركبات الطبيعية. مثلًا سألت سوزان غيلمان Susan Gelman ببساطة أطفالًا أمريكيين عن مواد مختلفة هل هي من صنع البشر: (هل تعتقد أن البشر صنعوا الليمون؟) لا يتطلب هذا السؤال، الذي جوابه نعم أم لا، من الطفل أن يشرح منشأ المواد، فلو خمَّنوا فقط، نتوقع أن يكون معدل إعطائهم لإجابات (نعم) مساويًا لإجابات (لا)، ومشابهًا في مواد مختلفة. أجاب الأطفال المشاركون في هذه التجربة بعمر أربع سنوات على ثمانين بالمائة من الحالات بدقة؛ البشر يصنعون الأدوات الصنعية مثل الألعاب والهواتف، ولكن لا يصنعون الأشياء الطبيعية مثل الليمون أو الطيور[٩].

سألت غيلمان ومساعدتها كاثلين كريمر Kathleen Kremer في تجربة تالية الأطفال بالأخص عن أنواع الأشياء الطبيعية التي سألها بياجيه: القمر والشمس والنجوم والمحيطات والغيوم والرعد[١٠]. قدمتا بادئ ذي بدء صورة الشيء لكل طفل (ما عدا في حالة الرعد)، وسألتا الطفل عن ماهيته، ومن ثم سألتا السؤال التالي: (هل تعتقد أن البشر صنعوه؟) وبمقابل نتائج تجربة بياجيه فإن أقل من ثلاثين بالمئة من الأطفال بعمر الرابعة، وعشرة بالمئة من الأطفال بعمر السابعة، قالوا إن البشر صنعوا هذه الأشياء الطبيعية. عندما سُئلوا عما إذا كان البشر قد صنعوا مصنوعات مختلفة (أكواب وألعاب وأحذية وسيارات ومطارق وتلفزيونات) فإن الأطفال في كلتا المجموعتين العمريتين تتطابقوا كلهم بقولهم إن البشر قد صنعوها[١١].

وبالمثل عرضت أوليفيرا بيتروفيتش Olivera Petrovich بشكل مشابه على أطفال بريطانيين في مرحلة ما قبل المدرسة أزواجًا من الصور، وسألت فيما إذا احتوت هذه الأزواج من الصور على شيء قد يكون من صنع البشر[١٢]. شملت هذه الأزواج حيوانات (كلاب) ونباتات (نرجس بري) وأشياء طبيعية (ثلج وأوراق شجر) ومصنوعات شائعة (كرسي أو كُتب) وألعاب على شكل حيوانات ونباتات. عندما شملت الأزواج شيئًا طبيعيًا كورقة شجر، بمقابل شيء مصنوع كالحافلة، فقد كانت إجابات الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة قريبة دومًا من الدقة في تحديد أي الشيئين قد يكون من صنع البشر، وقد اختلط الأمر عليهم فقط

عندما احتوى الزوج على نسخة مقلدة لشيء طبيعي من صنع البشر (مثل لعبة على شكل بقرة). خَلُصت بيتروفيتش بناء على هذه النتائج وعلى أدلة أخرى (بما فيها دليل غيلمان) أن الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة يميزون بوضوح ما بين العالم الطبيعي، والمصنوعات عندما يتفكرون من أين أتت الأشياء.

يشكك البحث المعاصر إذًا بحتمية أن يفكر الأطفال بأن العالم الطبيعي مخلوق من قبل البشر. فالأطفال قبل عمر الثامنة والتاسعة، من عمر أربع سنوات (أو أصغر) يدركون أن الناس لا يصنعون الأشياء الطبيعية وإنما ينشؤون المصنوعات فقط. إذا ظهر العالم الطبيعي مصممًا لغاية، فالسؤال عندها من الذي صممه إذا لم يكن البشر؟ يبدو أن الله مرشح قوي عند الأطفال لينسبوا له دور المصمم.

ونجد هنا مجددًا أن بحث بيتروفيتش يغني معلوماتنا، فقد سألت الأطفال البريطانيين في مرحلة قبل المدرسة أسئلة عن منشأ النباتات والحيوانات والأشياء الطبيعية كالسماء والأرض والصخور الكبيرة -أي الأنواع ذاتها التي سأل عنها بياجيه.[١٣] وعوضًا عن طرح أسئلة مفتوحة النهاية، قدمت بيتروفيتش للأطفال ثلاثة خيارات: صنعها البشر أو صنعها الله، أو لا أحد يعرف. وقد كانت نسبة إجابة الأطفال في هذه الدراسات حوالي سبعة أضعاف بأن الله هو من صنع الأشياء الطبيعية، وليس البشر. وربما من غير المفاجئ أن يدرك الأطفال البريطانيون أن الله خيار أفضل ليكون خالقًا مقارنة مع البشر.

وبالمثل سألت كيليمين ودي ياني أطفالًا بريطانيين بعمر ست وسبع سنوات عن نشأة الأشياء الطبيعية والمصنوعات: أحداث طبيعية (عاصفة رعدية، وفيضان) وأشياء طبيعية غير حية (نهر، وجبل)، وحيوانات (قرد، وطير)، ومصنوعات (قارب، وقبعة)[١٤]. طرح مشرف التجربة على الأطفال أسئلة مفتوحة النهاية على شكل (لماذا حدثت أول عاصفة رعدية؟) و(لماذا وجد القرد الأول) فعندما يجيب الأطفال أن سبب النشأة الأولى أحدٌ ما بدلًا من شيء ما، كان اختيار الله أكثر منطقية بأنه المقصود بـ(أحد ما) وليس إنسانًا أو البشر. وكان احتمال أن تكون إجابة (أحد ما) أنه الله ضعفين مقارنة مع اعتبار (أحد ما) هو الإنسان إن كان السؤال عن شيء طبيعي (نهر أو جبل)، وأكثر مرتين ونصف بأنه الله إن كان السؤال عن حدث طبيعي (عاصفة رعدية أو فيضان) وخمسًا وعشرين ضعفًا بأنه الله إذا كان السؤال عن خلق حيوان. وبالمقابل إن كان السؤال يخص مادة مصنوعة (قارب أو قُبَّعة) فإنَّ اختيار إجابة (الإنسان) كمنشئ لها بلغ خمسًا وعشرين ضعفًا من اختيار مسبب إلهي لذلك. أما الأطفال الذين اقترحوا في أسئلة إلزامية أن (أحدًا ما) وليس (شيئًا ما) هو السبب، فقد فضَّلوا خيار الرب أو المسيح أو الله كمصمم في أكثر من ثمانين بالمائة من حالات تخص الحوادث الطبيعية والأشياء الطبيعية والحيوانات، ولكنهم فضلوا اختيار المصمم البشري الذكي للمواد المصنوعة في اثنين وثمانين بالمائة من الحالات. وكما وجدنا في البحث السابق يبدو أن هؤلاء الأطفال يفهمون أن الآلهة

تنشئ الأشياء الطبيعية، وأن البشر لا يفعلون ذلك، ولكنهم ينشئون الأشياء الاصطناعية ولا تفعل الآلهة ذلك.

لا تشكك هذه النتائج فقط بالادعاء أن الأطفال يرون عناصر العالم الطبيعي مخلوقة من قِبل البشر (صُنعيَّة بياجيه) بل تشكك أيضًا بالادعاء أن الأطفال قبل عمر الثامنة أو التاسعة لا يستطيعون التمييز بين الله والبشر. إذا أردتُ أن أجادل بأن (الله) يعني للأطفال إنسانًا مميزًا فحسب، أو (إنسان يعمل ليكسب لقمة عيشه) فعندها سأقبل الفكرة المزعجة بأن هذا الفرد الإلهي نوع غريب من أنواع البشر: فهو الوحيد فقط الذي ينشئ الأشياء الطبيعية ولكنه لا يصوغ المصنوعات. يبدو هذا حقًا نوعًا مختلفًا من الكينونات وليس إنسانًا، كما أن هذا الإصرار بأن الأطفال الصغار لا يميزون الله عن البشر لا يتسق بسهولة مع التجارب التي سأوردها في الفصلين التاليين.

* * *

## ميالون إلى الخلق لا إلى التطور

حاول زميل لي من جامعة أوكسفورد أن يعلم طفله المحبوب ذا الشعر المُجعد في عمر الرابعة أساسيات التطور؛ فشرح له بأنه في الماضي السحيق جدًا لم يكن أسلافنا يبدون كما نبدو الآن، ولكنهم يشبهون نوعًا ما قردًا بلا ذيل، وقبله كانوا يشبهون الليمور (نوع من القردة). بدت الحيرة على عيني الطفل البنيَّتين (نظر إليَّ محتارًا عندما شرحت الأساسيات (للتطور) وقال لي بتأكيد إن هذا ليس حقيقيًا، فنحن كنا دائمًا هكذا (الإنسان) هذا ما ذكره الأب. وعندما قلت بأن الله هو من خلقنا على هذا الشكل ارتاح الطفل مجددًا. نعم؛ فهذا منطقي، ولكنه قال (لا) عندما اقترحت اسم (بابا نويل).

يفهم الأطفال منذ سن الرضاعة أن العوامل الفاعلة تستطيع إنشاء ترتيب ولكن ما هو ليس بعامل لا يستطيع ذلك. ومنذ مرحلة ما قبل المدرسة (على الأقل) يرى الأطفال الأشياء في العالم الطبيعي مصممة وذات هدف، ويبدو أن الأطفال منذ عمر الرابعة يدركون أن مصمم العالم ليس بشريًا. افترضْ طفلًا نمطيًا -في ضوء هذه الميول من فكر مرحلة الطفولة- يسمع أن كائنًا غير بشري ذا إرادة يدعى (الله) وهو مسؤول عن تصميم العالم والأشياء فيه. هل سيجد هذا الطفل النمطي فكرة هذا (الإله) جاذبة له؟ يبدو أن الأمر كذلك. قد يجد معظم الأطفال هذا التصور معقولًا جدًا، ولن يكون مفاجئًا إذا سمع الأطفال عن الله القدير (أو الآلهة) التي قد تكون خلقت العالم، أن يكونوا مستعدين للإيمان به. يبدو هذا الأمر

منطقيًا بالبداهةً، فالإله يفسر الترتيب والهدف الذي يرونه. إن الطريقة التي تنمو بها عقولهم تجعلهم منفتحين على هذه الفكرة.

ولكن ماذا سيحصل إذا اقترح أحد ما بأن التصميم الظاهر للعالم الطبيعي لم يُنشأ بقصد على الإطلاق بل هو مجرد وهم؟ ماذا لو عُرضت على الطفل فكرة أن (الهدف) الذي يرونه ليس هدفًا على الإطلاق، ولكنه نتيجة عمليات طبيعية غير موجهة وغير مقصودة، أو أنها في حالة الكون عمومًا مجرد تصادف غير مفسر؟ وبما أن هذه الفكرة تعاكس حدسهم مباشرة، فإن معظم الأطفال (وربما معظم البالغين) سيجدونها غريبة، ومستعصية على الفهم وصعبة القبول.

ابنة زميلي الدنماركي فردريك آنّا anna فتاة جميلة فضولية عمرها خمس سنوات، تشبه (آنّا) فتيات أخريات في عمرها: تحب أن تسأل كافة أنواع الأسئلة حول الحياة والعالم -أسئلة مثل لماذا تُمطر؟ ما سبب وجود الفيلة؟ لماذا ليس لي أخت؟ ومع ذلك فإن أبويها فردريك وآنيك لم يقدما لها إجابات دينية لهذه الأسئلة، فهما يفتخران أنهما دنماركيّان علمانيّان مثقفَان متحضرَان، ولا يتعاملان مع ما لا يلزم في المُحتوى الديني، ويحاولون الالتزام بعلم الفيزياء والكيمياء وعلم الحياة في مثل هذه الأشياء ويعطونها تفاسير مادّية علمانيّة محضة.

ولكن حتى في الدنمارك المغرقة في العلمانية يصادف الأطفال أفكارًا غريبة عن الآلهة وما يشبهها، ويعودون إلى البيت بأسئلة حول هذه الموجودات.

أخبرني فردريك يومًا ما، أن (آنّا) فجأة سألت (آنيك) دون مقدمات إن كان الله قد خلق العالم؟ حولت (آنيك) هذا السؤال إلى (فردريك) الذي يملك خبرات خاصة في أديان العالم وعلم اللاهوت. أجاب فردريك بطريقته النموذجية: (لم يُخلق العالم، فهو دائمًا موجود) بدا ذلك محيّرًا لآنّا فهزت رأسها وقالت: (لا، هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا) جمع فردريك أفكاره من جديد وفسر قائلًا: (حسنًا، لقد كان هناك انفجار عظيم منذ زمن سحيق وفجأة ظهر كل شيء) فكرت ابنته حول هذه الاقتراح وعلقت قائلة: (لا شك أن الله قد تفاجأ إذًا) لقد فاجأ هذا الجواب فردريك بالطبع، ولكنه لم يفاجئني، وربما لن يفاجئ العديد من علماء نفس النمو الذين يدرسون كيف يتعلم الأطفالُ العلمَ. تُعلّمُنا العديد من الأفكار العلمية السباحة عكس تيار طرقنا الطبيعية في التفكير. وفي هذه الحالة فالعالم الذي يبدو منتظمًا ومرتبًا وغائيًا حولنا، بما فيه الشمس والقمر والنجوم والكواكب في مداراتها يُفسر ببساطة على أنه ظهور غير سببي. فكل شيء حدث صدفة، إن مثل هذا التصور مفاجئ لمعظم الأطفال ومن منظور (آنّا) فإنه قد فاجأ الله أيضًا.

لعلك لاحظت أنه في الدراسات التي شرحتها أن الجزء الذي يبدو أكثر تصميمًا من العالم الطبيعي هو الحيوانات. فالحيوانات وأجزاؤها تبدو للأطفال مصممة وهدفية، وبالتالي إن أُخبر الأطفال بأن هذا التصميم بذاته وهمٌ، ولا علاقة له بهدف أو مصممٍ، فماذا يُحتمل أن يفكر الأطفال، أو هل سيفسرون أن الحيوانات ظهرت ببساطة أو (نمت من الأرض) أو أي تفسير آخر لتوالد عفوي spontaneous generation؟

اعتنتِ الأسئلة مغلقة النهاية بالأفكار ذاتها ولكنها ركزت ردود الأطفال على أصول قليلة محتملة للأشياء الأولى. سأل مشرفو المقابلة مجددًا (كيف وصل دب الشمس الأول إلى هنا على الأرض؟) ولكن بعدها توجب على الأطفال أن يصنفوا موافقتهم إلى أنواع مختلفة من الإجابات متعددة الخيارات. كان الخيار الخَلقي هو (صنعه الله ووضعه على الأرض) ويجب على الأطفال أن يختاروا بعد ذلك فيما إذا عارضوا بشدة أو عارضوا قليلًا أو وافقوا قليلًا أو وافقوا بشدة، وبالمثل قيّم الأطفال خيارًا تطوريًا (تغيّر من نوع مختلف من الحيوانات التي اعتادت العيش على الأرض) أو يجب أن يختاروا بين خيارين للنشأة العفوية هما: (لقد ظهر فحسب) أو (خرج من الأرض).

سُئل الآباء المشاركون في هذه الدراسة أسئلة مختلفة قليلًا، فبدلًا من سؤالهم حول معتقداتهم الخاصة حول أصول الحيوانات والبشر، سأل المُقابِلون الأهل: (تخيل أن تدرّس طفلًا تعرفه، عمره عشرة إلى اثني عشرة سنة، وسألك أو سألتك السؤال التالي. اكتب أدناه إجاباتك. والسؤال هو: (كيف وصل دب الشمس (نوع من الدببة في آسيا) الأول إلى هنا على الأرض؟) وهكذا[١٧]. تعطي إجابات هذا السؤال مؤشرًا فيما إذا أجاب الأطفال ببساطة وفق الطريقة التي تعلموها من أهلهم.

واللافت للنظر أن إجابات الأطفال في كل من الأسئلة مغلقة النهاية ومفتوحة النهاية قد اختلفت كثيرًا عمّا قال أهلوهم أنهم سيعلمونهم، وعما يفترض

أن المناهج العلمية المدرسية احتوته. فمثلًا، عندما نأخذ الإجابات للأسئلة مفتوحة النهاية، قدّم الأطفال من بيئة غير متدينة بعمر خمس إلى سبع سنوات أجوبة أكثر من النشوء العفوي من نمط (خرج من الأرض) وإجابات أكثر علاقة بالخلق مقارنة مع الإجابات التطورية، رغم أن أهلهم قالوا إنهم لم يطرحوا تفسيرًا بالنشوء العفوي (ونعلم أن الكُتب المدرسية أنها لا تعلمهم أيًا من الخيارين أيضًا). وبالمثل قدم الأطفال من بيئة غير متدينة بعمر ثمان إلى عشر سنوات تقديرًا خَلقيًا لنشأة التيوتارا (أحد الزواحف الليلية) أو دب الشمس أو الإنسان- بمعدل أعلى مما قال الأهل أنهم سيقدمونه كتفسيرات خلقية. ظهرت التفسيرات الخَلقية عند الأطفال من بيئة غير متدينة أكثر تكرارًا من التفسيرات بالنشوء العفوي، أو التفسيرات التطورية مجتمعةً، رغم أن أهل هؤلاء الأطفال (كمجموعة) صرحوا باحتمالية متساوية لتقديم تفسير تطوري أو خَلقي للطفل. أعطى الأطفال الأكبر فقط، من كلتا الخلفيتين إجابات تشبه إجابات أهلهم.

ظهر نمط مشابه للإجابات بين فئتي البيئة المتدينة والبيئة غير المتدينة عندما أُخذت الأسئلةُ مغلقة النهاية بالحسبان ومعدلاتُ توافقهم مع الأهل. كانت التفسيرات بالخلق تلقى حماسةً أكثر من التفسيرات التطورية في المجموعتين العمريتين الأصغر سنًا، ولكن الحال لم يكن كذلك في المجموعة الأكبر سنًا أو عند البالغين. وعلى نحو مفاجئ أكثر فقد فضل الأطفال الأصغر سنًا التفسير بالخلق في الأسئلة مغلقة النهاية على كل من النشوء العفوي أو التطور؛ بل كان التفسير

بالخلق أكثر من التفضيل المكافئ والمضطرب لكل من النشوء العفوي والتفسيرات بالخلق. رغم أن نصف الأهل تقريبًا؛ من بيئة غير متدينة، قالوا بأنهم علموا الطفل التطور، ولم يَدَّعِ أحدٌ منهم أنه علم طفله النشوء العفوي، فإن الأطفال الأصغر سنًا نظروا إلى التطور والنشوء العفوي كتفسيرين بذات السوء لتعليل منشأ أول فرد من أحد الأنواع[١٨].

***

## القدرة الإلهية المطلقة

يتقبّلُ الأطفال بسهولة أنّ الله خالق العالم الطبيعي، من الجبال والبحيرات إلى الأشجار والفيَلة، وتشهد هذه الحقيقة بالتأكيد على قابلية الأطفال لقبول كائنات ذات قوة وقدرة تفوق البشر. يؤثر تفاعل الأطفال المبكر مع الأشياء الفيزيائية عليهم من خلال التجربة المباشرة فيدركون أن قدرتهم الخاصة على تحريك الأشياء وتغيير البيئة لها محددات، فالأبواب التي يريدون فتحها لا تتزحزح، وأختهم الصغيرة ثقيلة بعض الشيء فلا يمكنهم رفعها وحملها. ويستدل الأطفال بالتأكيد أن الذي خلق الجبال له قدرة خارقة عمومًا، أليس ذلك صحيحًا؟ ربما، ولكننا لسنا مضطرين لحسن الحظ أن نسلّم بهذا الموقف دون دليل مستقل.

أسترجع قليلًا من بقايا ذاكرة طفولتي لزيارة منزل جدِّي، ربما كنت بعمر خمس سنوات تقريبًا وقتذاك. كنت ألعب بلعبة تستطيع الطيران فطارت واستقرت وراء البراد الهائل الحجم في مطبخ منزل جدِّي. سألت جدي يائسًا بعد فقدان لعبتي

بأن يرفع البرّاد كي أستطيع استرجاع لعبتي. ظننت حقًا أن جدي يستطيع إمساك البراد ببساطة ورفعهُ، ولم أشك وهلةً أنه قوي كفايةً لفعل ذلك، فهو كما أعرف يملك عضلات هائلة يستطيع أن يرقِّصها- كان ذلك إحدى حيله المفضلة. قهقه جدي للحظاتٍ بضحكته التي تشبه ضحكة سانتا، واستوى واقفًا من اضطجاعه وذهب إلى المطبخ وأحضر لي اللعبة فورًا. (كانت أعلى البراد فحسب).

إن ما استنتجه من هذه الذكرى بشرط وضعها في نموي الخاص أنني في عمر السنوات الخمس بدأت أفهم الارتباط بين بنية العضلات والحجم والقوة، ولكن لم أكن قد تعلمت حدود قوة الإنسان الطبيعية. فقد علمت أن جدَّتي الصغيرة لن تستطيع تحريك البراد الهائل الحجم (من منظوري) ولكن جدِّي لن يعاني أية صعوبة في تحقيق مطلبي. كنت لا أزال عندها أتعلم حدود قوة الإنسان، ونعود مجددًا إلى دروس (جان بياجيه) حول كيفية فهم الأطفال الصغار لقوة الإنسان.

استنتج بياجيه في دراساته عن الأطفال أنهم ينسبون القوة الخارقة لكافة البالغين، ولأن الإله بالنسبة إليهم أحد البشر البالغين فينسبون القوة الخارقة لله أيضًا. وقد كتب:

هناك العديد من الشواهد على أن الأطفال ينسبون القوة الخارقة لأهليهم، فقد سألت طفلة صغيرة خالتها أن تجعل السماء تمطر. اقتبس م: بوفيت M. Bovet مذكرات هيبيل Hebbel عن فترة الطفولة. وقد صدم الطفل الذي كان يعتقد أن

والديه ذوا قوة خارقة عندما وجدهما يومًا حزينين على تدمير العاصفة لأشجارهما المثمرة، فإذًا هناك حد لقوة والديه![١٩]

إن أهم دليل عند بياجيه كما ذكرت مسبقًا على نسبة الأطفال القوة الخارقة إلى البشر هي اعتقادهم بأن البشر خلقوا الشمس والسماء والجبال والبحيرات.

إن فكرة القدرة الكلية التي ينسبها عمومًا الأطفال الصغار الذين اختبرناهم للجنس البشري لا يبدو أنها يجب أن تشتق فقط من القدرات غير المحدودة لأهليهم؛ بل بالإضافة إلى ذلك وجدنا مرارًا دليلًا محددًا على شكل وقائع تؤكد هذه النقطة مباشرة. سألنا الأطفال مرارًا إن كان آباؤهم قد صنعوا الشمس أو جبل saleve بفرنسا أو البحيرة أو الأرض أو السماء، ولم يترددوا في الموافقة[٢٠].

إننا نملك الآن دليلًا أن الأطفال لا يُرجعون خلق العالم الطبيعي بالضرورة للإنسان، ولكن يميلون بقوة لرؤية العالم الطبيعي مصممًا لغاية، ولست مُطّلعًا على أي بحث إضافي يشكك بادعاء «بياجيه» أن الأطفال الصغار يُبالغون في نسبة القوة لأهليهم وللبشر عمومًا.

صورتُ فيلمًا قصيرًا مع ابني، عندما كان بعمر الرابعة، لشرح نظرية العقل «إدراك أن أفعال الآخرين تعتمد على ما في عقولهم» الموصوفة في الفصل التالي. وكما فعلت مع الأطفال الآخرين مسبقًا، بدأت بسؤاله هل يعرف من هو الله. وكان رده بليغًا كالتالي: «نعم أعرفه، إنه الرجل القوي». فالله عند ابني في هذا العمر

يمثل القوة والقدرة. رغم أن بحثًا منهجيًا إضافيًا حول هذا الموضوع سيساعد، إلا أنه يصح القول بأنَّ الأطفال يبدؤون بافتراض مبدئي أن العوامل الفاعلة الأخرى ذات القصد لها قدرة خارقة بما فيها أهلوهم وأجدادهم والآلهة. قد لا يكونون بقوة مطلقة -فهذه فكرة معقدة مجردة- إلا أنهم يمكن الاعتماد عليهم لفعل أي شيء (كنت كطفل) أعتقد بلزوم فعله ويمكن فعله. ويتعلم الأطفالُ في السنوات السابقة للمدرسة وحتى في سنوات المدرسة الأولى حدودَ وقيود قوة وقدرة العوامل المختلفة. يشمل هذا أولًا اكتشاف أن القوة البشرية محدودة، ومن ثَمَّ تحديد مؤشرات جيدة للقوة النسبية والقدرة كالحجم وبنية العضلات، لكن معرفة من يمكنه رفع أو تحريك أو فعل أي شيء يتطلب جهدًا عقليًا، ووقتًا. إن فهم وجود الله ذي القدرة الكلية سهل نسبيًا. لا تحتاج القوة الخارقة التي يفترضها الأطفال بدايةً أي قيدٍ أو مُحدد. هل يستطيع الله رفع أو تحريك الشيء؟ يعلم الطفل الصغير الإجابة حتى لو لم يعرف ما هو الشيء. يختلف الله عن العوامل الأخرى في هذا المضمون، ولا عجبَ أن ابني ميّزَ الله بأنه «الرَجُل القويّ».

* * *

## كيف يتعلم الأطفال عن الآلهة

كنت أعرف طفلة أذهلت أهلها مرة وهي بعمر الثانية عندما قالت إنها رأت ملائكة في غرفتها -في الزاوية العليا على وجه الدقة. وفي عمر الثالثة وفي حالة غضب شديد من أهلها، دخلت الطفلة ذاتها إلى غرفتها وأغلقت الباب بعنف وبدأت تتمتم بعنف، كنت هناك وشهدت هذا الموقف. وعندما فتح أهلها الباب وطلبوا منها أن تفسر هذا التصرف الغريب التي قامت به، جاوبت على الفور «لم أكن أتكلم معكم! كنت أتكلم مع الله!» كما نشرت أم الطفل «بِن» الذي عمره ثلاث سنوات على الفيسبوك ما يلي: «أقتبس من قول بِن البارحة: تتكلم حيوانات الماء مع الله، وتتكلم الديناصورات السابحة مع الله. كذلك يجب أن نكون كلنا على تواصل. تلا ذلك بالطبع بعد عدة دقائق كلام تقليدي لطفل بعمر الثالثة إذ قال: أريد أن أذهب للمتجر وأشتري الألعاب».

لا أدّعي أن الطفلة التي شاهدت الملائكة تمثل الأطفال عمومًا (فهي قد كبرت وأصبحت فردًا طبيعيًا صحيحًا) أو أن الأطفال الصغار يتأملون في أطراف الحوار مع الله من الحيوانات، ولكن من الواضح درجة السهولة التي يتعلم بها الأطفال الصغار المفاهيم عن الإله ويستخدمونها. وعلى نحو مشابه لتفكيرهم بالناس الآخرين، فإن الأطفال من عائلات متدينة يضعون بسهولة أفكارًا حول الآلهة، ويُفسّرون بسهولة الحوادث كعواقب محتملة لفِعل الإله، كما يشكلون توقعات وتخمينات حول أفكار الإله وآرائه وإرادته، ويطبقون أفكارًا حول الآلهة بطرق

جديدة تمامًا؛ بل وشخصية أحيانًا. فمن أين تأتي هذه التلقائية الدينية؟

إن الجواب السهل (وربما السهل جدًا) هو أنهم يتعلمونها: يؤمن الأطفال لأن أهلهم (والكبار الموثوقين الآخرين) يتصرفون كما أنهم يؤمنون، ويتحدثون كما أنهم يؤمنون. إن هذه الشهادة قوية فتستمر، ولا نجد سببًا قويًا للإيمان بعكسها، ويمكن أن ندعوها فرضية التلقين.

ولكنّ هذا التعليل لكيفية نقل الأفكار إلى الجيل القادم قد يكون مفرطًا بالتبسيط إذا لم نأخذ بعين الاعتبار نوع المُعتقدات التي يتم نقلها وحسن تلقيها في عقول الأطفال. كل شخص سبق وعلّم أطفالًا، كوالد أو معلم، يعلم تمامًا أن الأطفال لا يمكن تعليمهم ببساطة أي شيء. إذ يمكن تعليمهم بعض الأفكار بسهولة أكثر من غيرها (كما يوضح بحث إيفان Evan حول معتقدات الخلق مقابل معتقدات التطور). وإضافة إلى ذلك فرغم أن بعض الأهل قد يُلقّنون أطفالهم بعناية ويخوفونهم من تبعات عدم الإيمان، فإن معظم المعتقدات الدينية في فترة الطفولة سهلة جدًا. فالسؤال المطروح للإجابة عندئذ؛ كيف ولماذا يكون التلقي سهلًا عند الأطفال بخصوص كثير من الأفكار الدينية.

كانت إحدى الإجابات عن هذا السؤال في المركز النظري للدراسة العلمية للدين وخاصة في قسم علم النفس الديني على مدى قرن كامل[٢١]. يمكن تسمية الجواب فرضية مشابهة البشر anthropomorphism. وتعني مشابهة البشر جعل شيء ما على صورة البشر، وهذه الفرضية تشكل الصورة المقابلة لفكرة

الكتاب المقدس عن أن البشر خلقوا على صورة الله: كان الله يتصور ويتصور الآن ولا يزال على هيئة البشر. وبحسب هذه الرؤية يتعلم الأطفال عن البشر-ما الذي يفكرون به وكيف يتصرفون وماذا يحبون- ومن ثم يقيسون على الآلهة. فيكون تعلم مفاهيم الإله سهلًا عبر تعلم أحوال البشر ومن ثم تطبيق هذه المعلومات على الآلهة (رغم أن سهولة هذه العملية لا تزال غير واضحة). فلا عجبَ أن الأطفال يجدون التفكير في الآلهة والأشباح والأرواح والشياطين سهلًا للغاية.

كما تؤكد فرضية (مشابهة البشر) أنه عبر مسيرة النمو ستبدو الآلهة بالتدريج أقل شبهًا بالإنسان لأن الأطفال سيملكون قدرات تفكير أعلى يستخدمونها لفهم أفضل للآلهة. يبدأ الإله بالنسبة لأطفال المسيحيين أو المسلمين أو اليهود كشخص كبير يعيش في السماء ومن ثم ينتقل تدريجيًا أو جذريًا ليكون قيومًا، ولا يشبهه شيء، ولا يتغير، وغير مقيد بالزمن، وعليمًا وقديرًا. فأفسحت مشابهة البشر الأولية المجال لمفهوم الله كائنًا مجردًا له ميزات غير عادية.

وأجادل بخلاف فرضية (مشابهة البشر) لمعرفة الآلهة أن الأطفال لا يلزمهم التفكير في الآلهة كما يفكرون في البشر، والواقع أنه يسهل على عقول الأطفال تلقي واستخدام العديد من خصائص مفاهيم الإله في الأديان الإبراهيمية التوحيدية Abrahamic monotheisms (اليهودية والمسيحية والإسلام)، وربما تلك الموجودة في التقاليد الأخرى أيضًا[٢٢]. أطلقتُ على هذا المقترح اسم (فرضية الاستعداد)[٢٣]. قد يشكل الأطفال بسهولة أفكارًا عن الله لأن آلياتهم العقلية تملك خاصيتين تفضلان التعلم عنهُ. الأولى: أن هذا الاستعداد يتقبل بسهولة العوامل

الفاعلة غير البشرية، والثانية: يبدو أنها تسلم بالخصائص فوق البشرية حتى يُكتشف العكس. فقبول العوامل الخارقة قريب من الاستعدادات الطبيعية الافتراضية.

ذكرتُ دليلًا في الفصل الأول بأن أدوات الأطفال العقلية لتحري العوامل في البيئة يُمكنها أن تحدد أشياء على أنها عوامل فاعلة رغم أنها لا تشبه على الإطلاق المخلوقات البشرية، فيكفي لتوضيح الأمر النظر في تجربة الدوائر الملونة. وبالمثل عندما يتعلق الأمر بعقول هذه العوامل الخارقة فإن أنظمة الأطفال التصورية ذات الصلة لا تشترط الوصف الإنساني، وتعمل عمومًا على أي عامل فاعل وعلى كل العوامل ذات القصد فضلًا عن أن تكون مكرسة للمساعدة في فهم البشر فقط، وبالتالي فإن الأطفال يستطيعون مبدئيًا فهم العديد من الكائنات -من الله إلى الأشباح إلى الغوريلا- بدرجة فهمهم للبشر، ولا تفرض عليهم الخصائص الخارقة أحمالًا تصورية غير ملائمة.

الخاصية الثانية لعقول الأطفال التي قد تفضل اكتساب أفكار عن آلهة ما، هو أن عقولهم تفترض أن العديد من الخصائص الخارقة للبشر هي القاعدة، وأن هذا هو الأمر الافتراضي بكل بساطة. فمثلًا عندما يتعرف جهاز كشف الفاعلية فائق الحساسية على شيء يعتبره عاملًا فاعلًا ذا قصد (انظر الفصل الأول) فإن طفلًا بعمر ثلاث سنوات سيفترض تلقائيًا أن لهذا العامل الفاعل خاصية خارقة للبشر للوصول الكامل للمعلومات أو لاعتقادات معصومة (على الأقل ضمن حدود معينة نناقشها في الفصلين القادمين). ويستمر علماء نفس النمو في إيجاد

مزيد من الأدلة على أن الخصائص الإلهية للمعرفة الكلية والإدراك الكلي والقدرة الخلاقة وصفة الأبدية هي أمور حدسيّة تمامًا، على الأقل بالنسبة للأطفال الصغار. ويسهل اعتماد المفاهيم عن الله لأنها تجاري العديد من الافتراضات الأساسية ولا تتجاوزها. وسأفصّل في الفصلين الرابع والخامس بعض هذه الأدلة بخصوص فهم الأطفال للصفات فوق البشرية لله من العلم والإدراك والأبدية والخيرية.

***

## الفصل الرابع

# عقل الإله [1]

يُظهر دوغلاس آدامز Douglas Adams في كتاب (دليل المسافر المتطفل إلى المجرة) بأن الكواكب صممها وبناها فريق من الكائنات الفضائية التي تشبهنا وتتصرف مثلنا. لكن تصادف أنهم امتلكوا المهارات والتقنيات التي تكفي لتمكنهم من إنشاء عوالم بأكملها:

قال آرثر ببطء وهو يتمالك نفسه: (هل تقول لي... بأنك أصلًا... قد صنعت الأرض؟».

أجابه سلارتيبارتفاست: «أجل.. نعم، هل ذهبتَ يومًا ما إلى مكان... أظن أن اسمه النرويج؟».

قال آرثر: «لا، لم أذهب إليه».

(١) يصف النصارى الله بصفة العقل دون حرج ولكن في الثقافة الإسلامية ما ينسب له هو صفة العلم (المترجم)

قال سلارتيبارتفاست: «يا للأسف، إنه أحد مصنوعاتي. وقد ربح جائزة إن كنت تعلم، الضفاف المتعرجة الجميلة»[1].

هل يمكن أن تكون هذه هي الطريقة التي ينظر بها الأطفال إلى الفاعلية الكامنة وراء العالم الطبيعي؟ رأينا أنهم يعلمون أن الناس -الكائنات البشرية- لم يصنعوا العالم، ولكن هل الأمر أن الآلهة التي تخلق لا تختلف تمامًا عن البشر إلا في القدرة على خلق الأشياء الطبيعية، ولكنها تبقى حساسة تجاه محددات مشابهة البشر الأخرى؟

تتصف الآلهة نمطيًا بالنسبة لكثير من الراشدين بصفات أخرى إضافة إلى المسؤولية عن بعض (أو كل) العالم الطبيعي والحوادث الطبيعية. فالآلهة التي يؤمن بها الراشدون تتصف أحيانًا بصفات مثل معرفة غير أرضية؛ الرؤية والسمع والقيام بأمور تفوق استطاعة البشر، بالإضافة إلى الأبدية.

وسنتأمل في هذا الفصل نمو فهم الخصائص الذهنية عند الطفل، وكيف يمكن أن يُسهّل أو حتى يُشجّع الأطفال ليتعلموا ويفهموا ما يتعلق بآلهة ذات علم كلي. ومن بعض النواحي يكون التعامل مع العقول البشرية الأخرى أو عقول الحيوانات أكثر تحديًا من الفهم الأساسي للعقل الكلي للإله.

* * *

## الإله العليم

إن أحد نطاقات البحث البارزة في تطور الأطفال خلال العقدين السابقين كان مجال نظرية العقل theory of mind. وتهتم هذه النظرية بكيف ومتى يفهم الأشخاص عقول الآخرين بما في ذلك أفكارهم وإدراكاتهم ورغباتهم ومشاعرهم. إن أحد الأسباب التي تجعل هذا النطاق البحثي بارزًا للغاية أن نظرية العقل مهمة جدًا للأداء الاجتماعي الطبيعي.

تخيل للحظة أنك لا تفهم أن الأشخاص الآخرين لهم حالات ذهنية مثل الأفكار أو المشاعر فلن يكون الآخرون بالنسبة لك إلا آلات معقدة تبدي عادةً تصرفات يصعب تفسيرها. ولن نفهم مشاعرهم وذكرياتهم وآمالهم حول المستقبل، وآراءهم وتطلعاتهم. وعندها سيكون التفاعل البشري الاجتماعي أمرًا مربكًا.

**تأمل المشهد التالي:** يستيقظ (جون) في الصباح المبكر ويتجه إلى المطبخ. يرنو برأسه وعينيه نحو إبريق القهوة في الزاوية فيبتسم ابتسامة لطيفة. ويُعدّ (جون) القهوة ويذهب إلى الغرفة المجاورة ليتناول فطوره دون أن يشرب شيئًا من القهوة. تدخل أخته الصغرى (جين) متلكئة إلى الغرفة باحثة عن طعام الإفطار، ثم تدخل الغرفة بعد ذلك والدة جون وجين وتشم رائحة القهوة في الهواء. يتجه رأسها وعيناها نحو إبريق القهوة، وترتسم ابتسامة عريضة على وجهها. تقول الأم (شكرًا (جين) لأنك أعددتِ لي القهوة) ترد جين بصوت رتيب ودون أن ترفع

رأسها عن طبقها (لا شكر على واجب). تتغير تعابير وجه (جون)، ينظر بعينه شَزَرًا مُطبقًا شفتيه. ويخرج مسرعًا من الغرفة منحني الظهر.

يقدم هذا المشهد عددًا من الأسئلة للمشاهد. لماذا ابتسم جون عندما رأى إبريق القهوة؟ ولماذا أعدّ جون قهوة لم يشربها؟ لماذا شكرت الأم جين على صنع القهوة؟ لماذا قالت جين (لا شكر على واجب)؟ لماذا غادر جون الغرفة فجأةً وقد تغيرت ملامح وجهه و هيئة جسده؟

بالنسبة للذين يتمتعون بقدرات طبيعية ناضجة من (نظرية العقل) فإن مشهدًا مثل هذا يكون مفهومًا تمامًا على أنه يحتوي جمعًا غفيرًا من الحالات الذهنية والعاطفية المختلفة، تعطي بطريقة ما، معنىً لما يحدث. (ربما) اعتقد جون بأنه سيصنع قهوة ليبهج أمه، وابتسم لفكرة إسعادها أو ردة فعلها المستقبلية. افترضت الأم (مخطئةً) أن جين قد أعدّت القهوة. وقد فرحت لأنها تحب قهوة الصباح فشكرت جين. رحبت جين بالشكر إما لأنها أرادت أن تحمد بما لم تفعله، أو لأنها لم تكن تبدي انتباهًا فأجابت تلقائيًا. تغيرت ملامح وجه جون وهيئته الجسدية لأنه شعر بمشاعر سلبية لأن جين شُكرت لشيء قد فعله هو، أو لأنه تصور أن جين أعطت قصدًا الانطباع بأنها هي من صنع القهوة.

يسلّم أغلب البشر الراشدين بقدرتنا على الفهم السريع لمشاعر ورغبات وأفكار وإدراكات الآخرين وكيف تحثّ الأفعال، وذلك دون أن يلاحظوا أن امتلاك هذه القدرات يمثل إنجازًا هائلًا. إن التفكير الرصين بناء على نظرية العقل،

قد يكون مهارة مقصورة على البشر، بل إنَّ بعض البُشر محرومون منها. فالناس الذين يعانون من بعض الاضطرابات؛ مثل التوحد، قد لا يمتلكون هذه القدرات بسهولة. وحتى عند البشر ذوي النشأة الطبيعية فإن سرعة وسلاسة التفكير بخصوص أفكار ومشاعر الآخرين تختلف على نحو ملحوظ؛ فالبعض ماهرون اجتماعيًا بتلقي المشاعر، ولا يحتاجون إلا القليل من المعلومات ليرسموا استدلالًا غنيًا حول أفكار الآخرين ومشاعرهم ورغباتهم وشخصياتهم وعلاقاتهم. بالنسبة لهؤلاء العباقرة اجتماعيًا فإن تبادل الجمل الأربع التالية التي تشبه مسرحيةً إذاعيةً مبتذلة يكون كافيًا لينسجوا قصةً كاملة عن الحياة والموت والحب:

(هل هو؟)

(نعم، أنا آسف.)

(... أعتقد بأن عليَّ أن أتابع حياتي.)

(هل تسمحين لي أن أشتري لك فنجان قهوة؟)

وهنالك أيضًا أناس آخرون لا يفهمون مشاعر الآخرين بسهولة حتى مع توفر معلومات أكثر. على الرغم من أنهم قد يكونون أذكياء في مجالات أخرى مثل الفلسفة أو العلم إلا أنهم عاجزون اجتماعيًا. (تبدو الجامعات على نحو استثنائي مليئة بأمثال هؤلاء)، وبالمثل فإن الأطفال قبل عمر الأربع سنوات قد يكونون محرومين من هذه القدرات -أو على الأقل تعوزهم البراعة الجيدة فيها. إن التفكير وفق (نظرية العقل) إنجاز نهائي هام جدًا.

لقد جرب كثير منا لعب الغُميضة مع طفل عمره سنتان، فنجد الطفل يختبئ في مكان ظاهر مغطيًا وجهه فقط. رأيت أطفالًا بهذا العمر يختبئون بكل بساطة بالوقوف في زاوية الغرفة ووجوههم نحو الحائط. تثبت هذه الاستراتيجية قصور وعيهم بما يدركه الآخرون بصريًا، وبما ينتج عنه من معرفة بمكان اختباء الطفل.

هل حصل وتحدثت يومًا على الهاتف مع طفل عمره ثلاث سنوات وتحدث الطفل معك وكأنك معه في ذات الغرفة؟ يخبرك، (هذا قميصي الجديد، وهذا قطي وهو صديقي واسمه بوبي) مفترضًا بأنك تستطيع أن ترى ما يتحدث عنه. ونقول مرة أخرى، إن هذه النزعة المضحكة دليلٌ على أنَّ الأطفال في هذا العمر يجدون صعوبة في تعقّب ما يراه ويعرفه الآخرون. فهم يفترضون أنهم إن رأوا شيئًا أو عرفوه فلا بدّ أنك تراه أو تعرفه أيضًا.

تبين الأدلة المتراكمة لعقود من أبحاث دراسة كيفية فهم الأطفال للحالات الذهنية عند الآخرين (بما في ذلك التصورات والمعتقدات والرغبات) بأن الأطفال بعمر السنتين والثلاث سنوات لا يفهمون تمامًا طبيعة تصورات ومعتقدات الآخرين. رغم أن الدليل التجريبي الجديد في السنوات القليلة الماضية قد زاد من احتمال امتلاك الأطفال لنظرية عقل أولية في سنتهم الثانية من العمر، وتبيّن مجمل الأدلة أنه قبل عمر الرابعة أو الخامسة يمكن اعتبار الأطفال واقعيين متمركزين على الذات بخصوص الحالات الذهنية للأشخاص الآخرين[٢] يبدو أنهم يظنون بوعي منهم أنه، مهما كنت أعرف أنه الواقع، فهو أيضًا ما يعرفه الآخرون بأنه الواقع. إن

كنت أنا في مكان الطفل ذي السنوات الثلاث من العمر، وأعلم بأن هنالك ديدانًا في درج الآنيات الفضّية (وأتساءل كيف لها أن تصل إلى هناك؟) فإن أمي تعلم ذلك أيضًا.[3] إن كنت أنا في مكان الطفل ذي السنوات الثلاث من العمر، وأستطيع أن أرى الطائر عبر النافذة في الخارج من مكان جلوسي، فتستطيع أنت أيضًا وأنت جالس في الجهة المقابلة من الغرفة بعيدًا عن النافذة أن ترى الطائر.

جرّب، إن سنحت لك الفرصة، اللعبة التالية مع طفلة بعمر ثلاث سنوات. احضر علبة مألوفة مثل علبة بسكويت. افرغها من البسكويت وضع بعض الأشياء المفاجئة داخلها مثل أقلام أو حجارة، وأغلق العلبة بعد ذلك. أرِ الطفلة ذات السنوات الثلاث العلبة المغلقة (كن حذرًا بألّا تقعقع أو تصدر أي أصوات غريبة توحي بأنك قد عبثت بها). اسألها ما الذي تعتقد بأنه موجود داخل العلبة. إن الاحتمالات كالتالي؛ إن كانت العلبة مألوفة بالنسبة إليها فسوف تقول «بسكويت» ثم افتح العلبة ودعها تَرَ الحجارة داخل العلبة. سوف تتفاجأ وتنظر إليك بمزيج من الخيبة والدهشة. (لا بدّ أنك شخص غريب للغاية.) اغلق العلبة مجددًا، ودع الطفلة توافق على أنها لن تستطيع بعد الآن أن ترى ما الذي بداخل العلبة. «حسنًا، لقد أغلقتُ العلبة بحيث لا يستطيع أحد أن يرى ما بداخلها، هل تستطيعين أن تري ما الذي بداخل العلبة؟» ثم اسألها، «هل تذكرين ما الذي كان بداخل العلبة المغلقة؟»

قد يبدأ المرح بعد أن تجاوب وتقول «حجارة» مرة ثانية. اختر شخصًا تعرفه الطفلة ولم يكن موجودًا في الغرفة (وسأدعو هذا الشخص في مثالي التوضيحي؛ ماري). ثم اسأل، «إن أتت صديقتك ماري لتلعب معنا ورأت علبة البسكويت المغلقة، ماذا ستعتقد بأنه موجود في داخلها؟».

من المرجح أن الطفلة ذات السنوات الثلاث ستجيب، «حجارة» وإن سألتها بعد ذلك أن تعلل لماذا ستعتقد ماري بوجود حجارة داخل علبة بسكويت، فغالبًا ستشير الطفلة ببساطة بأن هنالك حجارة في علبة البسكويت. فهو سبب كافٍ لأن تعتقد ماري بأن هنالك حجارة في علبة البسكويت. وبكلمة أخرى، فإن واقع وجود حجارة في العلبة تجعل من الصعب بالنسبة إليها أن تقول بأن ماري لا تعرف ما الذي يوجد في العلبة.

وما يثير الدهشة أكثر من ذلك، اسأل الطفلة الصغيرة ذات السنوات الثلاث ما الذي اعتقدت أنه موجود في العلبة عندما جعلتها تشاهدها أول مرة قبل أن تريها ماذا يوجد بداخلها. من المرجح أنها سوف تجيب، «حجارة.» (حاول ألا تضحك.) اسألها هل حدث واعتقدت مسبقًا أنه كان يوجد بسكويت في علبة البسكويت. ستكون الاحتمالات كالتالي؛ ستقول: «لا». وقبل المسارعة إلى الاستنتاج بأن هذه الطفلة الجميلة والمرحة، طفلة كذوبة، على أن تدرك أن الأطفال في هذا العمر لا يمتلكون وصولًا قويًا إلى حالاتهم الذهنية الخاصة. إن اعتقادهم الحاليّ بأن هنالك حجارة في هذه العلبة يجعل من الصعب عليهم أن يفهموا بأنهم قد اعتقدوا مسبقًا

عكس ذلك -إنهم واقعيون: فمهما يكن الواقع فإنه ما يعتقد الآخرون أنه الواقع. يتصرف معظم الصغار ذوي السنوات الثلاث بهذه الطريقة. (جرّب هذه التجربة في وقت ما -مع موافقة الوالدين بالطبع.) أما معظم الأطفال في عمر الخامسة أو السادسة فسيفهمون أن الآخرين الذين ينظرون إلى العلبة للمرة الأولى سوف يُخدعون بالمظهر ويعتقدون مخطئين أنها تحتوي بسكويتًا. كما سيعلم هؤلاء الأطفال الأكبر سنًا أيضًا أنهم قد سبق وخُدعوا.

إن هذه السلسلة من الأسئلة التي وصفناها للتوّ هي إحدى أنواع وظائف كشف «المعتقد الخاطئ» التي يستخدمها علماء نفس النمو ليستكشفوا فهم الأطفال لمعتقدات الآخرين. تسمى مهمة المعتقد الخاطئ لأنها تتحرى إن كان الأطفال يفهمون بأن المعتقدات قد تكون خاطئة. نجد في المثال أن الطفلة لم تفهم بأنَّ لدى ماري معتقدًا خاطئًا بخصوص محتويات علبة البسكويت. وقبل أن يستطيع الأطفال أن يتبينوا أنه من الممكن أن تكون الفكرة خاطئة مع استمرار الاعتقاد بصحتها، لا نستطيع أن نثق بأن الأطفال يفهمون حقًا ماهية المعتقدات. وقبل وصلوهم إلى هذه المرحلة فإن عبارة «أعتقد...» قد تعني ببساطة، «إن الواقع هو...»، وسأعود إلى وظيفة علبة البسكويت لأني استخدمتها مع معاوني لندرس فهم الأطفال لمعتقدات الإله.

***

## معرفة الإله

من بين جميع تجارب نظرية العقل فإن ملمحًا واحدًا يظهر المرة تلو أخرى. وهو أن الأطفال بعمر ثلاث سنوات وكثيرًا من الأطفال بعمر أربع سنوات، بناء على نوع الوظيفة، يستصعبون فهم تصورات ومعتقدات الأشخاص الآخرين. فكما رأينا في اختبار علبة البسكويت، يعتقد الأطفال بهذا السن أن الناس يرون العالم بالطريقة التي يعرفونها هم. فالآخرون يمتلكون دومًا معرفة دقيقة عن العالم (على الأقل العالم كما يعتقد الطفل وجوده).

لقد تبادر إلى ذهني وإلى ذهن طالبتيَّ السابقَتين ريبيكا ريتشرت Rebekah Richert وأماندا دريسينغا Amanda Driesenga بأن هذا الفهم لمعتقدات الآخرين على أنها دقيقة دومًا، يبدو مماثلًا جدًا للطريقة التي يفكر بها المسيحيون واليهود والمسلمون في الإله، إن معتقدات الإله دقيقة دومًا أيضًا. وبناءً على الحكمة التقليدية التي قدمها لنا بياجيه Piaget وأتباعه بأن الأطفال لا يستطيعون التمييز بين الإله والبشر إلى أن يصلوا إلى سنّ الثامنة[٤]، فإن الأطفال سوف ينتقلون من التفكير بالإله على أنه يمتلك معتقدات دقيقة مثل البشر (في عمر الثالثة) إلى التفكير بالإله على أنه يمتلك معتقدات خاطئة مثله مثل الأشخاص الآخرين (في عمر الخامسة) ويعودون لاحقًا إلى فهم الإله على أنه يمتلك معتقدات دقيقة عندما يتمكنون من الفهم بأن الإله ليس مجرد بشر من نوع خاص (حوالي عمر الثامنة). وهذا هو نمط النمو غير المنتظم الذي يتحمس له علماء نفس النمو، لذلك رأينا أن

نختبر هذا النمط المطروح. وكانت أسئلة البحث هي: هل يعامل الأطفال معرفة الإله حقًا على أنها مطابقة لمعرفة البشر؟ هل من الممكن حتى للأطفال دون عمر الثامنة أو التاسعة أن يروا هذه المعرفة بطريقة مختلفة؟

ولتناول هذه الأسئلة بالدراسة، نفذنا وظيفة علبة البسكويت على عدد من الأطفال من أعمار تتراوح بين ثلاثٍ إلى ست سنوات جاؤوا من عائلات بروتستانتية (احتجنا لأطفال يعرفون ما الذي تعنيه كلمة «إله». بعد أن قدمنا إليهم علبة البسكويت وسألناهم ما الذي اعتقدوا وجوده داخل العلبة، ثم أريناهم الحجارة بالداخل وأغلقنا العلبة، ثم سألناهم، «إن رأت أمكم (أو إن رأى أبوكم) العلبة المغلقة للمرة الأولى، ماذا ستعتقد (أو يعتقد) بأنه كان موجودًا داخل العلبة؟) سألنا السؤال نفسه أيضًا بخصوص عدة مشاهدين محتملين آخرين مثل حيوانات متنوعة، والإله. «إن رأى الإله هذه العلبة المغلقة للمرة الأولى، ماذا سيعتقد الإله بأنه يوجد داخلها؟».

عندما أجابوا حول تخمين أمهم (أو أبيهم) أو أي من الحيوانات، أظهر الأطفال النمط ذاته الذي اعتدناه في وظائف المعتقدات الخاطئة: قال حوالي ٨٠٪ من الأطفال ذوي عمر الثلاث سنوات أن أمهاتهم سوف تعتقدن بأن هنالك حجارة في العلبة. أما ذوو عمر الخمس سنوات فإن ٨٠٪ منهم أجابوا بأن أمهاتهم سوف يعتقدن بأن هنالك بسكويت في العلبة -أي سيكون لديهن معتقد خاطئ. إن كانت فكرة بياجيه صحيحة بأن «الإله» يعني فقط كائنًا بشريًا خاصًا بالنسبة

للأطفال في هذا العمر، فسوف نتوقع إذًا النمط ذاته من الإجابات عندما يتكلم الأطفال عن الإله، ولكن لم يكن ذلك ما وجدناه. بل إن الأطفال من جميع الفئات العمرية كان من المرجح أن يقولوا على نحو متساوٍ بأن الإله سيعرف أن هنالك حجارة في العلبة –نسبة ٨٠٪ أو أكثر تقريبًا من الأطفال من جميع الفئات العمرية. فلدينا هنا دليل على أن الأطفال لا يلزم أن يفكروا بالإله على أنه مجرد إنسان آخر.

عامل الأطفال بعمر الخمس سنوات الإله على أنه مختلف تمامًا عن البشر (وعن الحيوانات) في وظيفة كشف المعتقد الخاطئ. لم يكن الأطفال يرددون ببساطة مقلّدين بأن «الإله يعرف كل شيء» ولكنهم على ما يبدو يستخدمون فهمهم لمعرفة الإله الخارقة لكي يحلوا معضلة غريبة جديدة.

عامل الأطفال الأصغر سنًا الإله على نحو مشابه للبشر –ليس عن طريق جعل الإله قابلًا للخداع مثل الإنسان، ولكن عن طريق معاملة البشر (والحيوانات) على أنها غير قابلة للخداع مثل الإله. ورأينا في هذه الجمهرة من الأطفال أنه بدءًا من عمر ثلاث سنوات كان الأطفال دقيقين لاهوتيًا (سوف يعرف الإله بوجود الحجارة في علبة البسكويت). وأغلبية الأطفال لم يكونوا دقيقين بخصوص البشر حتى عمر الخمس سنوات.

ولذلك فإن فكرة بياجيه بأن الأطفال لا يستطيعون تصور الإله مختلفًا عن البشر حتى عمر يقارب الثامنة أو التاسعة هي فكرة خاطئة. رغم ذلك فإن استنتاج بياجيه قد لا يكون بعيدًا تمامًا عن الواقع، لأن أحد أسباب الخلط المزعوم بين فهم

الأطفال للإله وفهمهم للبشر، أنهم ينسبون الصفات الإلهية للبشر البالغين، ومن ثَمَّ يقضون فترة الطفولة بتعلّم حدود البشرية.

قد يكون بياجيه محقًا في هذا الصدد، إذ يبدو من هذه التجربة وتجارب أخرى مشابهة لها، أن الأطفال ذوي عمر الثلاث سنوات يعاملون الإله والبُشر على نحو متماثل، ليس لأن الإله يشبه البشر، ولكن لأن البشر يشبهون الإله، في بعض النواحي، مثل الأمور التي تخصّ المعرفة[٥].

تؤدي مجموعة من التجارب الأخرى الغرض ذاته بطريقة مختلفة. تقصّيتُ في هذه التجارب ما يمكن تسميته بالمعرفة المسبقة -أي المعرفة السابقة المطلوبة لفهم أو تفسير فعاليةٍ مرئية أو عرض مختلف غير واضح[٦]. يجب أن يمتلك الإله ذو المعرفة الخارقة أي معرفة مسبقة لازمة وكل معرفة مسبقة.

ومن الطرق السهلة لفهم حافز هذه التجارب، تأمّل تصور القطة أو الكلب المنزليين. عندما كنت صغيرًا، أخذنا والديَّ أنا وأخي للتخييم في Sierra Nevadas. وأحضروا معنا أيضًا كلبة العائلة المخلصة دوبي Dobby -وهي كلبة صيد ذهبية اللون هجينة من سلالتي clumber وspaniel. سبحنا أنا وأخي ولعبنا في بحيرة الجبل الزرقاء البلورية في حين كان والدانا يشاهداننا من الشاطئ لأنهما أكثر تأثرًا بالحرارة. ولم يمض وقت طويل حتى كنا نصرخ ابتهاجًا، مما جعل كلبتنا التي ثار قلقها تقفز إلى الماء البارد وتحاول إنقاذنا. ربما أكون الآن مبالغًا في نسبة الفعالية الذهنية إلى هذا الحيوان الصديق الجميل، ولكني آمل أن يكون

التوضيح جليًا. لقد أخطأت الكلبة بفهم الشيء الذي رأته، ليس لأنها لم تستطع رؤية أو سماع ما هو ضروري للفهم (كما هو الحال في مهمة علبة البسكويت)، ولكن لأنها لم تمتلك الخلفية المعرفية اللازمة لتجعل ما رأته وسمعته أمرًا منطقيًا. تستطيع أن تضع جريدة أمام حيوان ما دون أن يكون قادرًا على القراءة. بالمثل، قد يراك الحيوان وأمامك كتاب ولن يعرف أنك تقرأ. تستطيع غالبًا أن تتصور عددًا من الحالات الأخرى التي يراك بها حيوانك المحبوب تفعل أشياءَ دون أن يتمكن من فهمها.

ليست الحيوانات هي الوحيدة التي تعوزها أحيانًا المعرفة المسبقة لفهم ما تراه. يواجه الأطفال والبالغون هذه المشكلة على الدوام. إن كنت قد سمعت يومًا ما شخصًا يتكلم بلغة غير مألوفة، أو حاولت أن تقرأ شيئًا بلغة أجنبية، فقد جابهت المشكلة ذاتها؛ لم تكن تمتلك المعرفة الخلفية لتجعل ما سمعته أو رأيته أمرًا منطقيًا. نعرف كبالغين بأن التجارب السابقة والقدرات العامة تلون معلومات وتوفر معلومات لكيفية فهم التجارب الحالية.

إن الأسئلة التي تطرحها هذه الملاحظات أمام علماء النفس النمائي المهتمين بنظرية العقل هي: متى يستطيع الأطفال أن يفهموا أنه ليس لدى كل البشر المعرفة المسبقة ذاتها؟ وبالتحديد، هل يميز الأطفال بين البشر والحيوانات والإله، من هو الأكثر أو الأقل امتلاكًا للمعرفة المسبقة التي ترتبط بفهم عرض أو حدث ما؟

بدأتُ مع ريبيكا ريتشرت Rebekah Richert وروكسان نيومان Roxanne Newman باستكشاف هذه القضايا تجريبيًا عبر تنفيذ سلسلة

من ثلاث وظائف تتطلب أن يفهم الأطفال طبيعة المعرفة المسبقة التي تفسر العروض منطقيًا.[٧] كانت المهمة أو الوظيفة الأولى عبارة عن أحد أشكال مهمة الألغاز الرسومية المستخدمة سابقًا.[٨] في هذه المهمة، تُري مشرفةُ التجربة الطفلةَ رسمًا مغطىً جزئيًا ببطاقة. تَرى الطفلة من خلال نافذة مقصوصةٍ في بطاقة أكبر حجمًا دائرة حمراء محاطة بمستطيلين زرقاوين. تسأل مؤدية التجربة الطفلة ماذا تمثل الصورة المغطاة. تجيب الطفلة (على سبيل المثال، «دائرة حمراء كبيرة ومستطيلين أزرقين صغيرين»). ومن ثم تزيل مؤدية التجربة الغطاء عن الصورة، لترى الطفلة الصورة كاملة: رسم لفيلين أزرقين يمسكان كرة حمراء بين خرطوميهما. تتحقق مشرفة التجربة من أن الطفلة تعرف ما الذي تمثله الصورة الآن بما أنه أتيح لها رؤية كاملة، ومن ثم تعيد تغطية الصورة بالبطاقة لتبدو كما كانت سابقًا (تبدي فقط دائرة حمراء ومستطيلين أزرقين). تسأل مشرفة التجربة الطفلةَ بعد ذلك أن تتأمّل فيما قد يمثّل الرسم بالنسبة لشخص ما، يرى الرسم المغطى فحسب.

كانت المهمة الثانية عبارة عن شيفرة سرية. ابتكرنا ثلاثة رموز غريبة المظهر لتكون جزءًا من شيفرتنا. قالت مشرفة التجربة بأنها قد اخترعت شيفرة سرية لا يعرف أحد شيئًا عنها، ولكنها سوف تشاركها مع الطفلة. ومن ثَمَّ وضعت صفحات الورق الثلاث أمام الطفلة، وعلى كل منها رمز من الرموز، وشرحت ماذا يعني كلٌّ منها (على سبيل المثال، كرة، دراجة، وهكذا). تحققت بعد ذلك إن كانت الطفلة تستطيع أن تعرف ما الذي يرمز إليه كل منها. عندما تعلمت الطفلة ما هي الكلمة التي تتطابق مع كل رمز (لا يستغرق وقتًا طويلًا عادةً فقد استوعب

الأطفال الأمر من المحاولة الأولى) سألت مؤدية التجربة عدة أسئلة حول ما الذي سيعرفه الأشخاص الآخرون إن رأوا الشيفرة للمرة الأولى.

اعتمدت المهمة الثالثة على المنطق ذاته، هل سبق أن دخلت غرفة فيها مجموعة من الأشخاص متحمسون ومبتهجون أثناء ممارستهم للعبة لم تستطع فهمها على الإطلاق؟ لقد حدث ذلك معي، فوقفتُ وأنصتُ لبضع دقائق، واستنتجت بأن هنالك لعبة تُمارس هنا، ولكني لم أعلم شيئًا عما يدفع الناس لكي يفعلوا ما كانوا يفعلوه ولكي يقولوا ما كانوا يقولونه. فقد كانت تعوزني المعرفة المسبقة لأفهم قواعد اللعبة. وبقدر ما يكون الأمر محبطًا، فإن مجرد معرفة أن ما يجري هو ممارسة لعبة يعتبر إنجازًا مفاهيميًا. إن قطةً منزليةً عاديةً أو طفلًا رضيعًا لن يتمكنا على الأغلب أن يفهما هذا المقدار. في هذه المهمة الثالثة عن المعرفة المسبقة، ابتكرت نيومان لعبة طاولة جديدة باستخدام رقعة لوح مصنوع يدويًا، وبيادق شطرنج، وقواعد غامضة تمامًا -إلا إن شُرحت لك. بدأتْ بعد ذلك تلعب اللعبة أمام أحد أفراد مجموعة أطفال تتراوح أعمارهم بين ثلاث إلى ست سنوات، توقفت بعد فترة عن اللعب وسألت، «هل تعرف ماذا أفعل؟» بعد أن تأكدت أن الطفل لم يكن يعرف ماذا كانت تفعل ولا يعرف ما هي قواعد اللعبة، فسرت نيومان بأن هذه لعبة جديدة قد اخترعتها ولا أحد سواها يعرفها. شرحت بعد ذلك القواعد للطفل ودَعَته لأن يلعب معها. وبعد ذلك حان وقت الأسئلة حول الأشخاص الآخرين، عن كلب، وعن الإله.

وعبر هذه المهمات الثلاث -الألغاز الرسومية والشيفرة السرية واللعبة المبتكرة الجديدة- نزع الأطفال بعمر ثلاث سنوات إلى الاعتقاد بأن الأم والإله وأي شخص آخر سوف يعرف حقيقة الصورة المغطاة، ومعنى الشيفرة السرية، وماهية اللعبة الجديدة. وعلى نحو مماثل لمهمة علبة البسكويت فإن الأطفال بأعمار خمس وست سنوات أجابوا على نحو يتسق مع إدراك أنه لا يعرف أحد سوى الإله ما الذي كان مؤدي التجربة يفعله قبل أن يُعلل فعله. وعلى نحو مشابه لمهمة علبة البسكويت فإن الأطفال الأصغر عمرًا بالغوا في نسبة المعرفة إلى الإنسان، وإلى الكلب فقد عاملوهما كالإله. افترض الأطفال بعمر ثلاث سنوات أن الآخرين سيفهمون اللعبة الغامضة، واعتقد معظم الأطفال بجميع الأعمار أن الإله سوف يفهم اللعبة الغامضة. إذًا فقد كان تنبؤ بياجيه خاطئًا. فالأطفال دون الثامنة من العمر يمكنهم أن ينسبوا المعتقدات الصحيحة للإله، وينسبوا المعتقدات الخاطئة للبشر.[٩]

ذكرتُ في الفصل الأول بحث برادلي ويغر Bradley Wigger عن الأصدقاء الخياليين للأطفال[١٠]. فقد سَأَلَ الأطفال ذوي الأعمار من ثلاث إلى خمس سنوات ممن لديهم أصدقاء تخيليون أو غير مرئيين، أن يكملوا مهمة الألغاز الرسومية، ومهمة الشيفرة السرية، ومهمة علبة البسكويت؛ فسأل كل طفل عن صديق مرئي له، وعن صديقه غير المرئي، وعن الكلب، وعن الإله. وكانت النتائج مشابهة لنتائج الدراسات التي ذكرناها. عامل الأطفال الأصغر سنًا جميع العوامل الفاعلة على أنها ذات معرفة خارقة، في حين أن الأطفال الأكبر سنًا تعاملوا مع

الله وحده على أنه ذو معرفة خارقة. وما يثير الاهتمام أن الأطفال بدأوا بنسب المعتقدات الخاطئة أو الجهل إلى الكلب والصديق المرئي قبل أن ينسبوه إلى الصديق غير المرئي، وحتى الأطفال الأكبر عمرًا اعتبروا أصدقاءهم غير المرئيين أكثر احتمالًا لأن يعرفوا أشياءَ أكثر من أصدقائهم المرئيين أو أكثر من الكلب. فقد كان الأصدقاء غير المرئيين أكثر شبهًا بالإله من الأصدقاء المرئيين ومن الكلب. فهؤلاء الأطفال الذين لم يتم تلقينهم ولم يدعمهم مجتمع ديني قد اخترعوا عواملهم الفاعلة الخاصة غير المرئية المتفوقة على البشر: وهي الآلهة.

***

## ذاكرة الإله

ابتداءً من الشهادة في قاعة المحكمة، وصولًا إلى تحديد إن كان موعد العرض التلفزيوني في الساعة السابعة أو السابعة والنصف، يلزمنا غالبًا أن نقرر هل نثق بذاكرة شخص آخر. إن النظر في أينا ببساطة يملك ذاكرة أقوى من الآخر قد يكون مؤثرًا. تمتلك زوجتي على سبيل المثال ذاكرة جيدة لكثير من الأشياء، ولكن الأرقام ليست منها بغض النظر إن كانت أرقامًا تتعلق بالأوقات أو التواريخ أو الكميات أو شيئًا آخر. وعلى خلاف الصورة النمطية فإنها هي ولست أنا من يبدو أنه لا يستطيع تذكر تاريخ ذكرى زواجنا.

وبملاحظتنا للحيوانات أيضًا نشاهد أن للحيوانات المختلفة قدرات مختلفة على تذكر الأشياء. تنسى السناجب أين خبأت ثمار البلوط، ولكن يبدو أن الطيور

تتذكر مكانها بالضبط. ويُقال بأن الفِيَلة لا تنسى مطلقًا. قد تكون ذاكرة الفيلة المعصومة أمرًا مُبالغًا به، ولكن السؤال، هل تنسى الآلهة؟

صممت معاونتي إيميلي بورديت Emily Burdett تجربة لتختبر من خلالها ما ينسبه الأطفال للآخرين من تذكر ونسيان، بما في ذلك الإله[11]. استخدمت التجربة لعبة البطاقات الشهيرة التي يُعرض فيها على الأطفال عدد من البطاقات التي تحوي رسومات على أحد وجهيها ولا شيء قابل للوصف على الوجه الآخر، ويُطلب من الأطفال أن يتذكروا مكان الحيوانات (أو الشيء المرسوم) عندما تُقلب البطاقة على الوجه الآخر. قدمت بورديت بطاقات الذاكرة إلى أطفال بأعمار تتراوح بين ثلاث إلى سبع سنوات، من عائلات ممارسة للديانة اليهودية واستمرت بزيادة عدد البطاقات إلى أن يتوقف الأطفال عن تذكر مكان الحيوان الهدف (ولنقل بقرة) عندما تُقلب البطاقة. وبعد أن أقر الطفل بعدم تذكره لمكان الحيوان، سألت بورديت إن كان باستطاعة آخرين ومن بينهم الأم والإله، أن يتذكروا مكان البطاقة في الوضع ذاته. في هذه الحالة، اعتقد الأطفال من جميع الأعمار وحتى الأصغر سنًا بأن من المرجح أن يتذكر الإله عندما ينسون هم، واعتبروا الإله في أغلب المرات بأنه يتذكر أكثر من أمهاتهم. ولكن وكما في الدراسات السابقة فقد مال الأطفال إلى إعطاء معرفة الآخرين فرصة الشك. وعندما جهلوا هم أنفسهم ظلّوا يعتقدون بأن الآخرين (حيوان، إنسان، أو الإله) سوف يعرفون.

***

## هل هذا مجرد تلقين؟

تدلنا هذه الدراسات على ثلاثة أشياء. أولًا: أن الإله ليس مجرد إنسان آخر بالنسبة للأطفال دون الثامنة أو التاسعة كما اعتقد بياجيه؛ بل إنه من عمر خمس سنوات يكون التمييز الواضح بينهما ممكنًا. ثانيًا: إن الأطفال في عمر الثالثة والرابعة في هذه السيناريوهات من التجارب توقعوا معرفة الإله بدقة أعلى (قياسًا على لاهوتية آبائهم المسيحية) مقارنةً مع معرفة الأشخاص الآخرين، وبذلك مالوا إلى زيادة نسب المعرفة إلى الإله. ثالثًا: تصل درجة دقة تقديرهم لمعرفة البشر إلى درجة دقة تقديرهم بالنسبة لمعرفة الإله في عمر الخامسة.

إن كنت قد لُقّنت فرضية التلقين أو إن كنت مجرد شخص يشكك بطريقة سليمة بالاستنتاجات مفرطة الحماس، فربما لاحظت أن الأطفال المذكورين في الدراسات الواردة في الفصل السابق ينتمون إلى عائلات متدينة. ربما هنالك شيء خاص يتعلق بالأطفال الناشئين في عائلات من هذا القبيل يمكّنهم من «فهم الإله بشكل صحيح» في سن مبكرة جدًا (ويجعلهم يعاملون آباءهم مثل الآلهة). وعلى سبيل المثال، ربما غُرس مفهوم الإله كليِّ المعرفة بقوة في أذهانهم بحيث يتبعون هذا التعليم اللاهوتي على نحو تلقائي وملائم في سياق الألعاب الصغيرة الغريبة التي تهتم بمعرفة الإله، قد يكون الأمر كذلك.

أقر بأن هؤلاء الأطفال لا يمثلون الأطفال عامةً من ناحيتي التنشئة التعليمية والدينية. ربما ما يقدمه هؤلاء الأطفال مجرد دليل على أن الأطفال الأصغر من عمر الثامنة لا يلزمهم نسبة الصفات البشرية للإله. أي أن الأطفال بين عمر الرابعة والسادسة يمكنهم في بعض الظروف الثقافية أن يروا أن إدراك ومعرفة الإله تتميز عن إدراك ومعرفة البشر، ولكنها ربما ظروف خاصة نسبيًا.

إن كانت فرضية التلقين صحيحة، فلا يمتلك الأطفال قابلية تلقي خاصة تجاه فكرة الإله ذي السمات الخارقة، ويتعلمون بالتالي أي شيء يتم تعليمهم إياه بدرجات قريبة من السهولة. ولذلك إن عُلِّم الأطفال ديانات تكون بعض الآلهة فيها عرضة للخطأ مثلها مثل البشر، بينما تكون آلهة أخرى فائقة الذكاء، فيجب أن يتعلموا ما يخص كلًا من نَوعَيِّ الآلهة على درجة سواء. ذلك لأنه إن لم يمتلك الأطفال ميلًا طبيعيًا تجاه الآلهة فائقة الذكاء، فيجب أن يتعلم الأطفال عن الآلهة المغفّلة بالسرعة ذاتها أو أسرع من تعلمهم عن غيرها. لقد أجري استقصاء حول المجموعات السكانية ذات الآلهة المتعددة، والتي لديها كل من الآلهة الذكية وآلهة أقل ذكاء، ويبدو أن فرضية التلقين تفشل هنا.

رغم الانطباع الذي ربما كوّنته من دروس مادة التاريخ في المدرسة إلا أن المايا ليست منقرضة، وتعيش الآن في جنوب المكسيك وفي غواتيمالا. يمتلك العديد من المايا دينًا توفيقيًا – فمعتقداتهم خليط من معتقدات المايا التقليدية والمعتقدات المسيحية التي أتت لاحقًا، وبشكل رئيسي من الروم الكاثوليك. فلديهم بالنتيجة

عدد من الآلهة المتعددة التي يؤمنون بها. يؤمنون بالله Diyoos (إله المسيحيين) وإله الشمس وأرواح الغابة (تُسمى أسياد الغابة) وبعدد من الكائنات الخارقة الأخرى منها Chiichi –وهو شيء يمكن مقارنته بالغول. ويعتقدون بأن الله كلّي المعرفة. وأن إله الشمس من موقع المراقبة الشامخ يعرف كل ما يجري تحت الشمس، إن جاز التعبير، وبالنتيجة فإن هذا معبود عليم أيضًا. تصل معرفة إله الشمس إلى حيث يصل الضوء. وكما توحي تسميتهم حرفيًا فإن أسياد الغابة، هي أرواح تعرف كل ما يُمكن أن يُعرف عن الغابة بما في ذلك النباتات والحيوانات القاطنة فيها وما يجري في الغابة. فإن كنت مجروحًا في الغابة أو إن كنت تصطاد في الغابة، فيجب أن تتوسل إلى أسياد الغابة. أما Chiichi فهي أرواح قاصرة، وكما هو الحال بالنسبة للغول أو الأشباح القاصرة الأخرى التي قد يستخدمها الراشدون في إخافة الأطفال ليحسّنوا من سلوكهم، فإن Chiichi قاصرة في قواها ومعارفها. قد تكون مقززة أو مزعجة ولكن من الممكن أن يُحتال عليها أو أن تُخدع. إن هذا التنوع في الآلهة ذات الخصائص المتنوعة يمنح فرصة ممتازة لنحاول رؤية إمكانية مجموعة مختلفة جدًا من الأطفال يستطيعون أن يضعوا حدودًا فاصلة مماثلة بين الإله والإنسان، ولنرى إن كان بإمكان هؤلاء الأطفال أن يميزوا بين الأنواع المختلفة من الآلهة كما يفعل البالغون من شعب المايا. إن كان الله عليمًا بكل شيء فإن خبرة أسياد الغابة محصورة في الغابة فقط. فهل يستطيع الأطفال أن يميزوا بهذه الدقة.

اقتبس مساعدي نيكولا نايت Nicola Knight المختص بعلم الإنسان وعلم النفس نسخة من مهمة علبة البسكويت ليستخدمها مع أطفال المايا.[١٢] وبما أن علب البسكويت ليست مألوفة بيسر لهؤلاء الأطفال، فقد اختار بدلًا عن علبة البسكويت يقطينة مجوّفة مألوفة تُستخدم لصنع التورتيلا في المنزل. لن يكون إيجاد الحجارة في مثل هذه اليقطينة أمرًا غير متوقعًا أو مفاجئًا للغاية كما هي الحالة في إيجادها في علبة بسكويت في أميركا الشمالية، لذلك استخدم نايت شيئًا مفاجئًا حقًا: قطعة ثياب داخلية.

وبمساعدة مترجم يستخدم اللغة اليوكاتية وهي اللغة الأم للأطفال، أجرى نايت مقابلات مع أطفال تتراوح أعمارهم بين الأربع والسبع سنوات، وكانت المقابلة عن يقطينة التورتيلا وعدد من العوامل الفاعلة: الله، وإله الشمس، وأسياد الغابة، وChiichi، ولعبة تمثّل إنسانًا، وحيوانات مختلفة مألوفة تُمثلها دمى (نحلة، كلب، خنزير بيكاري، وجاكوار)، وكان ترتيب التجربة مشابهًا لترتيب علبة البسكويت.

عرض مؤدي التجربة على الأطفال اليقطينة وهي مغطاة عند فتحتها بقطعة ورق مقوى وسألهم ما الذي اعتقدوا أنه موجود داخلها، ثم أراهم المحتوى المفاجئ أي الثياب الداخلية. أعِيدت تغطية فتحة وعاء اليقطينة، ومن ثَمَّ سأل مؤدي التجربة ما الذي سوف يعتقده كل من الدمية البشرية، والحيوانات، ومختلف الآلهة بأنه موجود في داخلها. وكما في الدراسات السابقة، عامل الأطفال الأصغر

عمرًا اللهَ والإنسانَ على نحو متشابه. أجاب معظمهم أن كلًا منهما سوف يعتقد بأن هنالك ثيابًا داخليةً داخل اليقطينة –وهي اليقطينة ذاتها التي اعتقد الطفل أنها تحتوي على التورتيلا ولكن اتضح أنها احتوت على قطعة ثياب بها يدعو للذهول. واعتقد معظم الأطفال من عمر سبع سنوات أن الله سوف يعرف بأن اليقطينة تحتوي على الثياب الداخلية ولكن الإنسان سوف يعتقد مخطئًا أنها تحتوي على التورتيلا. وكما هو الحال في النسخة الأميركية من التجربة، في حين تغيرت الإجابات على نحو ملحوظ تبعًا للعمر بخصوص سؤال ما الذي يعرفه الإنسان، فإن الأطفال لم يُبدوا أي اختلاف مرتبط بالعمر عند الإجابة عن معرفة الله. فقد كان راجحًا على نحو متساوٍ عند الصغار والكبار على حد سواء، أن يجيبوا بأن الله سيعرف أن ما يوجد داخل اليقطينة هو ثياب داخلية.

وهكذا أجِيب على السؤال الأول حول إن كانت القدرة على التمييز بين الإله والإنسان قبل عمر الثامنة تخص النموذج الأميركي لتجربة. فقد ميّز كل من المايا اليوكاتيين والأميركيين بين الإنسان والإله بمجرد استطاعتهم أن يتنبؤوا بمعتقدات الإنسان بشكل صحيح. وقد عاملوا الإله والإنسان بالمثل قبل (اجتياز) مهمة المعتقد الخاطئ، بحيث نسبوا المعتقدات الصحيحة إلى كلّ منهما.

فما هو الوضع إذًا بالنسبة للآلهة الأخرى؟ ما يثير الدهشة أن الأطفال قد أبدوا بعض الحساسية تجاه الفروق الدقيقة في المعرفة المحتملة لمختلف الآلهة.[١٣] اعتقد معظم الأطفال بأن الله سوف يعرف محتوى اليقطينة، ولكن ما يقارب نصف

المرات فقط أجابوا بأن إله الشمس وأسياد الغابة سيعرفون المحتوى الصحيح ويعتقدون بأن هنالك ثيابًا داخليةً في اليقطينة. أما عندما تعلق الأمر بـ Chiichi الأقل ذكاء فقد كانت إجابات الأطفال مشابهة لإجاباتهم عندما سُئلوا عن الإنسان أو الحيوانات. فاعتقدوا غالبًا بأن Chiichi سوف يظن بأن اليقطينة كانت تحتوي على التورتيلا. تقدم هذه التجربة دليلًا على أنه لا يستطيع الأطفال فقط أن يفرّقوا بين الآلهة والإنسان قبل بلوغهم عمر الثامنة؛ بل يستطيعون أيضًا أن يبدؤوا بالتمييز بين مختلف الآلهة في هذه الأعمار المبكرة. فعندما استطاع أطفال المايا أن يفهموا طبيعة المعتقدات وأنها يحتمل أن تكون خاطئة، أظهروا بالمثل استطاعتهم التمييز بين الفروق الدقيقة للمعرفة المحتملة لمختلف المعبودات. ولكن الأطفال الأصغر نزعوا إلى أن ينسبوا المعرفة الخارقة لجميع العوامل الفاعلة. فحتى إن لُقّنوا بأن الله يعرف كل شيء، فمن المؤكد أنهم لم يُعلّموا الشيء ذاته حول Chiichi، ومع ذلك فإن الأطفال الأصغر عمرًا ظنوا أن Chiichi (بالإضافة للبشر وخنزير البيكري) سوف يعرف ما الذي كان موجودًا في اليقطينة كما سيعرفه الإله.

إن هذه النتائج تتناسب مع فرضية فطرية الولادة على الإيمان، ولكن من الصعب أن تُفسِّر فرضية التلقين.

***

## ما الذي يعرفه الإله؟

ينسب الأطفال بعمر ثلاث سنوات المعرفة الخارقة للآلهة، ولكني لا أفترض ضمنًا بأن هؤلاء الأطفال يفهمون الإله وغيره بأنهم عليمون بكل شيء أو يحيطون بكل شيء علمًا. في الحقيقة، لدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد بأن الراشدين لا يرون الإله بالضرورة عليمًا بكل شيء بالمعنى الدقيق للكلمة. إن تصوّر ما يعنيه العلم بكل شيء صعب الإدراك ذهنيًا (على الأقل بالنسبة لي). من الصعب عليَّ أن أدرك تمامًا ما قد يعنيه أن أعرف بأنه حتى ما لا أعرفه شيء يمكن أن يُعرف. (هل فهمت وجهة نظري؟) إن نتائج تجربة علبة البسكويت وتجربة يقطينة التورتيلا والتجارب الأخرى المذكورة تترك لنا عددًا من التفسيرات المفتوحة الممكنة. فوفق اعتقاد هؤلاء الأطفال الأصغر عمرًا كيف يكون نمط معرفة الإله؟ إليك ثلاثة احتمالات:

عليم بكل شيء. يفترض الأطفال بأن الآخرين يعلمون بالتأكيد كل شيء. أي يشمل ذلك: الله وأبويهم، وحتى الفِيَلة هي عليمة بكل شيء وكلية المعرفة.

المعرفة المتمركزة عند الطفل: يفترض الأطفال بأن الآخرين يعرفون كل شيء يعرفونه هم أنفسهم، ولكنهم لا يعرفون شيئًا لا يعرفونه هم–نوع من المركزية المفرطة حول الذات. والنوع الملطف قليلًا لهذا الخَيار هو أن الآخرين عندهم معتقدات دقيقة تمامًا بخصوص ما يهتم به الأطفال فقط، ولكن ليس بالضرورة حول ما يعرفونه حاليًا.

وصول كامل: يفترض الأطفال بعمر ثلاث سنوات والأطفال الأصغر من ذلك أن الآخرين لا يعرفون كل شيء بالضبط، ولكن يعرفون فقط ما يدرك الأطفال إمكانية معرفته أو ما يستحق أن يُعرف.

ستساعد تجارب إضافية في تحديد أي هذه الاحتمالات الثلاثة أكثر دقة في التعبير عن تفكير الأطفال بعمر ثلاث سنوات بخصوص معتقدات الآخرين، ولكني أعتقد أن استبعاد الخيار الأول أمر سليم. أن يفترض الأطفال أن معرفة الآخرين شاملة لكل شيء - أي أنهم ذوو علم كلي ominiscient بالمعنى الحرفي - أمر غير مرجح. فبالمحصلة إن معرفة أن الآخرين يعرفون كل شيء تمامًا قد يتطلب إدراكًا جيدًا نوعًا ما لما قد يعنيه معرفة كل شيء -وبالأخص الأشياء التي لا نعرفها نحن ذات أنفسنا أو حتى نعرف أنها أشياء قابلة للمعرفة. تطعن بعض التجارب التي أجريت مع أطفال يونانيين وأطفال إسبانيين في مسألة العلم الكلي بصورته الشاملة (الخيار ١).

عرض نيكوس ماكريس Nikos Makris وديميتريس بيفماتيكوس Dimitris Pnevmatikos على أطفال من عائلات مسيحية أرثوذوكسية علبةً تحتوي شيئًا غير معروف، وطرحا سؤالًا؛ إن كان الإله ودمية تدعى (تي تي) سيعرفان ماذا يوجد في العلبة.[١٤] فماذا كانت النتيجة؟ أجاب معظم الأطفال من عمر ثلاث وأربع سنوات بأن الإله لن يعرف ما الذي يوجد في العلبة، وكان معدل استجابتهم بالنسبة لـ تي تي مشابهًا. أما في عمر خمس سنوات فقد فرّق الأطفال بوضوح بين معرفة الإله ومعرفة تي تي، بحيث أن أغلب الأطفال اعتقدوا أن الدمية

تي تي لن يعرف ما الذي يوجد في العلبة، ولكن معظمهم اعتقد أن الإله سيعرف. وكما مر معنا سابقًا، فقد ميز الأطفال بين عقل الإله وعقل الإنسان بزمن يسبق بسنوات ما كان متوقعًا بناءً على وجهات نظر بياجيه، ولكن الأطفال الأصغر عمرًا نزعوا في هذه الحالة لتوقع معرفة الإله بطريقة غير دقيقة.

قد تكون هذه نتائج خاصة بالمجموعة المدروسة أو بالوظيفة المستخدمة (نحتاج مزيدًا من الأبحاث لنكون واثقين منها)، ولكنها قد تدل أيضًا على أن الأطفال لا يفكرون بالإله على أنه كلي العلم، وإنما على أنه خارق المعرفة في بعض النواحي فقط (الخيار ٢ أو ٣ السابقين). ربما يجد الأطفال الصغار في حالة الجهل صعوبة في رؤية «الغيب» غير المعلوم على أنه قابل لأن يُعرف. ولأنهم يفتقدون المعرفة الخاصة بهم ليعتمدوا عليها فقد يجدون صعوبة أكبر في نسبة المعرفة للآخرين.

أجرت مارتا جيمينيه داسي Marta Giménez-Dasí وزملاؤها تجربة مماثلة تتعلق بموضوع إن كان الأطفال يفهمون أن الإله (والآخرين) علمهم كلي أم أنهم مجرد خارقي المعرفة[١٥]. قدم فريق جيمينيه داسي لأطفال إسبانيين شكلًا مختلفًا لمهمة علبة البسكويت، بحيث تكون العلبة المألوفة بالنسبة لهم (وهي حلوى السمارتيز في هذه الحالة) مغلّفة في البداية كالهدية بحيث تحجب أية معلومات تدل على المحتوى المحتمل. سأل مؤدي التجربة نصف الأطفال الذين يتراوح أعمارهم بين الثالثة والخامسة فيما إن كان صديق لهم سوف يعرف بالتأكيد ما الذي يوجد في العلبة عندما تكون مغلفة، أو أن عليه أن يُخمّن. وسألوا النصف الآخر من الأطفال

السؤال ذاته ولكن فيما يخص الإله. هل سيعرف الإله بالتأكيد ما الذي يوجد في العلبة المغلفة قبل أن يُزال الغطاء؟ مال الأطفال بعمر ثلاث سنوات في دراسة جيمينه داسي إلى الاعتقاد بأن الإله سوف يعرف ما الذي يوجد في العلبة في حين أن صديقًا ما لن يعرف. وما يزيد على ثلاثة أرباع إجاباتهم عن المُسؤالين أكدوا بأن الإله سيعرف ما الذي يوجد في العلبة، ولكنهم قالوا في ثلثي الحالات تقريبًا أن صديقهم لن يعرف. واستمرت هذه الأنماط العامة مع الأطفال ذوي الخمس سنوات أيضًا. فربما يستطيع الأطفال إذًا حتى بعمر ثلاث سنوات أن يدركوا أن جهل الصديق لا ينسحب على الإله، ويستطيعون التمييز بين العقول الإنسانية والعقول الإلهية.

أعدتُ النظر أنا وإيميلي بورديت في هذه القضايا باستخدام سلسلة من المهمات التي قدمتها لأطفال يهود وتتضمن المهمة علبة غير معنونة أخرى ذات محتوى مجهول. حتى عندما يجهل الأطفال الأصغر عمرًا (ذوو الأعمار من ثلاث إلى أربع سنوات) أنفسهم مكانَ بطاقة معينة (كما بيّنا سابقًا) أو يجهلون محتوى العلبة فإنهم يفترضون غالبًا أن الله سيعلم. ويعني ذلك أنهم حتى عندما جهلوا ما الذي يوجد في الصندوق، إلا أنهم لا زالوا ينسبون المعرفة للإله بشكل صحيح. تشكك هذه النتيجة بالخيار ٢ ، وتدعم الخيار ٣ أي أن الأطفال يميلون للتعامل مع الآلهة على أنها عليمة ومطلعة على كل شيء[١٦].

رغم بقاء كثير من التساؤلات دون جواب حتى الآن إلا أننا قد نستنتج مبدئيًا بأن الأطفال في عمر الثلاث سنوات (١) قادرون على التمييز بين الآلهة والبشر فيما يخص ما يعرفونه وما لا يعرفونه، (٢) يميلون للمبالغة في نسبة المعرفة والدقة إلى معتقدات الآخرين في كثير من الحالات، ولكن (٣) من غير المرجح أن ينسبوا المعرفة الكلية التامة للآلهة أو البشر، لأنهم قد يعتبرونهم جاهلين بالواقع في بعض الحالات (خصوصًا عندما يجهلها الطفل أيضًا).

والظاهر أن الأطفال بعمر ثلاث سنوات بدلًا من استخدام الوصف بالمعرفة الكلية، يصفون جميع العوامل الفاعلة بالمعرفة الخارقة: يعتقدون أن الإله وآباءهم والآخرين يعرفون كل ما يلزم معرفته (معرفة غير محدودة)، فيبدأ الأطفال بافتراض المعرفة الخارقة التي تكون في أغلب الحالات أشبه بالإلهية منها بالبشرية.

تشير نتائج هذه الدراسات إلى أنه قد لا يكون صعبًا على الإطلاق بالنسبة للأطفال أن يتعلموا ويؤمنوا بإله عليم بكل شيء. في الواقع قد يكون أصعب على الأطفال أن يتعلموا ويؤمنوا بالوالد المحدود والجاهل غالبًا. إن الخبر السار بالنسبة للآباء هو أن الأطفال يتعلمون بأن الإله حكيم قبل أن يعلموا أننا مغفلون.

***

## الفصل الخامس

# طبيعة الإله

يعتقد الناس عادة في الجزء الناطق بالإنكليزية من العالم أن للآلهة حكمة بالغة واطلاعًا على خفي الأعمال (عبر رؤية كل شيء، وسماع كل شيء، ومعرفة ما في الصدور)، إلا أنه لا تتمتع كل الآلهة بهذه الصفات. فبعض الآلهة إما أنها تتمتع بمعرفة محدودة بأماكن وأنشطة محددة أو أنها بكل بساطة ليست ذكية جدًا. لدى أرواح الغابة عند شعوب المايا اليوكاتيكين معرفة مثيرة للإعجاب فيما يخص حياة الغابة وما يحدث فيها، ولكن لا تعلم إلا القليل عما يحدث في القرية. وبالمثل فقد لاحظ هارفي وايتهاوس Harvey Whitehouse في دراسته الاثنوجرافية الوصفية (الجغرافيا الأثنية) لشعب بيانينغ Baining في بابوا غينيا الجديدة Papua New Guinea رغم أن الأجداد يعتبرون مطلعين على أفكار الناس وأنشطتهم، إلا أن أرواح الغابة أو السيجا sega تعتبر معرضة للخطأ ولا تطلع على ضمائر الناس[1]. ونرى هذه الفروقات في المسيحية بين الكائنات الخارقة للطبيعة. فقد تعلمت عندما كنت طفلًا أن الله يعلم كل شيء: مثل الحقائق حول العالم والمستقبل وأفكارنا وسلوكنا. وأن الشيطان ماكر بكل تأكيد، لكنّه لا يستطيع قراءة الأفكار

وبإمكانه ارتكاب الأخطاء. وبالمثل، هناك في الممارسة اليهودية التقليدية، طقوس مباركة شهرية للقمر الجديد. ومع ذلك، يُؤجل الاحتفال خلال شهر تشرين لما بعد احتفالات يوم التكفير (يوم الغفران Yom Kippur). والتفسير الشعبي الشائع لهذا الانحراف في التقليد الاعتيادي أن الشيطان لا يعلم على وجه الدقة تاريخ يوم الغفران. من الواضح أن الشيطان ضعيف قليلًا حتى يُخدع بسهولة عامًا بعد عام[٢]. كما توجد بعض الآلهة والكائنات الخارقة الأغبى من ذلك. ففي العديد من الثقافات الآسيوية والإفريقية التقليدية، يطلق الآباء على الأبناء أسماء مُضللة ومهينة لكي لا تنتبه لهم الأرواح الشريرة وتهاجمهم.

إنّ الميل الموثق في الفصل الرابع المبين لفكرة افتراض الأطفال الصغار أن كل الآخرين لديهم معرفة خارقة، يساعدهم بعد ذلك في اكتساب أنماط معينة فقط من مفاهيم الإله مع خصائص محددة. لا تُعامل كل السمات الإلهية المميزة المنسوبة عادةً إلى الله في الديانات المسيحية أو الإسلامية أو اليهودية بمعاملة تطورية خاصة. فمثلًا، لا يوجد لدينا أي دليل على أن فكرة كون ثلاثة أشخاص في واحد (فكرة الثالوث المسيحي)، منطقية تمامًا للأطفال أو للعديد من البالغين[٣]. وبالمثل، تبدو فكرة أن الله ليس له موقع في المكان أو الزمان، كما يقترح بعض المسلمين واليهود والمسيحيين اللاهوتيين، مرهقة لعقول البالغين والأطفال على حد سواء- وهذه النقطة سأعود إليها في الفصل التالي.

تبقى فقط الصفات الإلهية التي يؤمن بها الأطفال بالفطرة موضعًا للتساؤل. سآخذ بعين الاعتبار في هذا الفصل العديد من الصفات المميزة الإضافية. وسأبحث بداية إن كان بإمكان الأطفال أن يفهموا بسهولة أنَّ الله فائق الإدراك وأبدي وحسن الأخلاق، اعتمادًا على نموهم العقلي. ربما يكون الإله الذي يولد الأطفال مؤمنين به فائق الذكاء ومسؤولًا بطريقة أو أخرى عن تصميم جزء من العالم الطبيعي على الأقل، ولكنّه من ناحية أخرى يشبه شخصًا عاديًا- أي أنه الرجل الجبار (سوبر مان) أكثر من كونه إلهًا.

***

## إدراك الله

يُعامل فهم الأطفال للإدراك غالبًا كجزء من نظرية العقل، لأن ما نعرفه عن العالم من حولنا يرتبط ارتباطًا وثيقًا بما نتعلمه من خلال حواسنا. يعلم الراشدون ذلك، ولكن متى يعرف الأطفال أن الرؤية تقود عادة إلى الإيمان؟ أو أن هناك بعض الأشياء التي لا يمكن لنا كبشر معرفتها دون الرؤية أو السمع أو الإدراك؟ كما علمنا من الفصل الرابع، يواجه الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين السنتين والثلاث سنوات صعوبة في كثير من المشاكل المتعلقة بالتصورات البصرية للآخرين. إذ يبدو أنهم يعتقدون بأننا نرى الأشياء كما يرونها. فإذا شاهد الطفل صورة توضيحية لمنزل، وكنت تجلس بالجهة المقابلة له، فسيفترض الطفل ذو الأعوام الثلاثة أنك ترى الصورة بالجهة الصحيحة أيضًا عوضًا عن الجهة المقلوبة.

وعندما يطلب منهم تحديد الصورة التي يراها الشخص المقابل لهم على الطاولة، يميل الأطفال في هذا العمر إلى اختيار الصورة ذات الجهة الصحيحة (أو المقلوبة في حال كانت هي التي يراها). يواجه الأطفال في الثانية من العمر والعديد من الأطفال في الثالثة مشكلة حتى في معرفة ما إذا كان شخص ما يستطيع رؤية ما يرونه. فسرت دراسة أجراها جون فلافيل John Flavell وزملاؤه مدى دراماتيكية هذا العجز.[٤] حيث أجلس القائمون على التجربة أطفالًا في الثالثة من العمر على طاولة مع حاجز من الورق المقوى. وقَدَّم لكل منهم كوبين، أحدهما أبيض والآخر أزرق، وسُئلوا أي الكوبين كان أبيضَ وأيهما لم يكن أبيضَ. ثم أُبعد الكوب الأبيض وبقي الكوب الأزرق، وأكدوا علىٰ الأطفال أن الكوب الأزرق لم يكن أبيضَ. (يا للعجب!) بعد ذلك دخلت باحثة أخرى (إيليEllie) إلى الغرفة وجلست قبالة الطفل على الجانب الآخر من الورق المقوى على الطاولة بحيث لم تستطع رؤية الكوب. وسألها الباحث: (إيلي، لدينا كوب هناك، هل تعتقدين أنه أبيض؟) فأجابت: (لا أستطيع رؤية الكوب، ممم، أعتقد أنه أبيض، أعتقد أن هناك كوبًا أبيضَ). ثم سُئل الطفل فيما إذا كانت إيلي تعتقد أن الكوب أبيض، كمؤشر على وجود اعتقاد خاطئ لديها. فلنلاحظ هنا أنه للإجابة الصحيحة على هذا السؤال، يتوجب على الطفل ببساطة أن يكرر ما قالته إيلي للتو: إنها تعتقد أن الكوب أبيض. لكن الأطفال في الثالثة من العمر أجابوا خطأً في ثلثي الحالات بالقول إنها تعتقد أن الكوب أزرق. فحقيقة أن الكوب كان أزرقَ فعلًا جعلت من الصعب عليهم تخيل (وقول) أن أي شخص آخر يمكن أن يفكر خلاف ذلك.

تعكس هذه النتائج المتعلقة بتلقي التصورات نتائجَ أخرى من اختبار علبة البسكويت المذكور في الفصل الرابع. حيث يميل الأطفال في الثالثة من العمر (بطريقة خاطئة) إلى توسيع تصورهم البصري ليشمل غيرهم من البشر. فهل يمكن بطريقة مماثلة أن يفترض الأطفال بسهولة إمكانية أن الآلهة ترى أو تسمع أو تشم، كل ما يرونه أو يسمعونه أو يشمونه بأنفسهم؟

أخبرتني والدتي أنه خلال نشأتها المتشددة، شعرت بالخوف من التأكيد على فكرة أنّ (الله يراقبنا دائمًا). واعترفت أنّها بعد تلقيها الصارم بشكل خاص لجملة: (عليكِ أن تتصرفي على نحو أفضل لأن الله يراقبنا دائمًا)، شعرت بعدم الارتياح للغاية عند استخدام المرحاض بسبب رقابة الله لها.

بطبيعة الحال تنسب في جميع أنحاء العالم إلى الآلهة عادةً قدرة أكبر على الرؤية والسماع مقارنة بما يستطيع بقية البشر رؤيته وسماعه - وتنسب حتى إلى الآلهة التي لا تتصف بالعلم الكلي. وبسبب كونها غير مرئية أو امتلاكها لقدرات إدراكية مميزة، فكثيرًا ما ترى الآلهة أو تسمع أكثر من الجار القريب المتطفل. في الحقيقة يمّكن هذا الوصول إلى المعلومات، ولا سيما المعلومات حول ما نقوله ونفعله، الآلهة في كثير من الثقافات لتطبيق الأخلاق الإنسانية أو معاقبة الإساءة ضد الآلهة وأراضيها. بعد ذلك تساءلنا أنا وزملائي المساعدون إن أمكن للأطفال الصغار أن يستوعبوا امتلاك الله لقدرات إدراكية مختلفة.

تحت جنح الظلام، تحدث الكثير من الأشياء السيئة بشكل غير مرئي. على الأقل هذا ما تدفعنا الكتب والأفلام تحت هذا العنوان إلى الاعتقاد به. ولكن هل هي غير مرئية فعلًا – أو أنّها غير مرئية للعيون البشرية فقط؟ قمت مع العالمة المختصة بعلم النفس النمائي ريبيكا ريتشرت Rebekah Richert بابتكار تجربة سألنا فيها أطفالًا تتراوح أعمارهم بين ثلاث إلى ثماني سنوات حول الرؤية في الظلام.[٥] حيث أظهر الباحث لكل طفل صندوقًا له فتحة في الجزء العلوي منه للنظر من خلاله. ثم دُعي الطفل للنظر من خلال الشق وسُئل: (ماذا ترى داخل الصندوق؟). بعد أن أجاب الطفل بعدم رؤيته لأي شيء، أُشعل المصباح المُركب على فتحة في جانب الصندوق، مضيئاً لكتلة خشبية في الداخل. ثم أطفئ المصباح، ودُعي الطفل للنظر مرة أخرى. أوضح الباحث للطفل بعد ذلك أنّه بإمكان القطط أن ترى في الظلام بسبب عيونها الخاصة، وسُئل عمّا يراه كل من الدمية الشبيهة بالإنسان والقطة والقرد والله في الصندوق المظلم. في حين ذكر معظم الأطفال البالغين من العمر ثلاث سنوات بأنّ الدمية بإمكانها أن ترى الكتلة في الصندوق المظلم (التي كانت غير مرئية بالنسبة لهم)، أجابت أقلية من الأطفال البالغين خمسة أعوام بهذا الجواب أيضًا. وبالمقابل، أجابت أغلبية كبيرة من الأطفال من جميع الأعمار بأنّ الله والقطة سيرون الكتلة – حوالي ٩٠٪ من الحالات– وهو ميل يستمر بازدياد مع الأطفال الأكبر سنًا. وعثرنا لاحقًا على نتائج مماثلة لدراسة مع أطفال من عائلات مسيحية أرثوذكسية في اليونان.[٦]

تختلف المعلومات البصرية والحسية الأخرى أكثر من مجرد الوجود والغياب. فتختلف أحيانًا في شدتها من ضعيفة إلى قوية، وتختلف اعتمادًا على عمق الإحساس، وهكذا إما أن نكتشفها أو لا، وتبين حالة الكلاب وحاسة شمها القوية هذه النقطة جيدًا. يدرك أي شخص بالغ أمضى وقتًا مع الكلاب أنها تشم أشياء لها رائحة ضعيفة جدًا بالنسبة إلينا كبشر. تتخذ الكلاب وضعية جسمية مميزة، وتتوتر فتحتا الأنف لديها بانتباه حين تشتم شيئًا مثيرًا. لا تكون كل مستويات الإشارة الحسية قابلة للكشف، وقد تختلف قابلية رؤية شيء أو سماعه وشمه أحيانًا من فرد إلى آخر ومن نوع حي إلى نوع آخر. مثل الرؤية في الظلام أو فهم الرموز السرّية وفهم الألعاب، فمتى يبدأ الأطفال بفهم أن العوامل الفاعلة المختلفة لها هذه القدرات الإدراكية المتباينة، وأنّها تتباين في ظل الظروف المختلفة؟

في استكشاف أولي لهذه الأسئلة، طلبت أنا وريبيكا ريتشرت من أطفال تتراوح أعمارهم بين ثلاث إلى سبع سنوات أن يفكروا بنوعية إدراك الكائنات المختلفة في ظل مستويات حسية مختلفة الشدة.[٧] عرضنا للأطفال اختبار بصريًا، واختبارًا سمعيًا، واختبارًا شميًا، وفق المنطق الأساسي نفسه. حيث عُرّض الأطفال بالبداية إلى الهدف (وجه مبتسم بلون أصفر، وصوت لموسيقى خافتة، ورائحة زبدة الفول السوداني) وذلك مع وقوفهم أبعد من إمكانية تحري الهدف. ثم أُحضروا إلى مسافة أقرب ليتمكنوا من رؤية وسماع وشم الهدف. وأخيرًا، أُعيد الأطفال إلى المكان الأولي (حيث لا يمكنهم رؤية أو سماع أو شم الهدف) وسئلوا

عمّا إذا كان العديد من الكائنات الأخرى قادرة على رؤية أو سماع أو شم الهدف من مكانهم الحالي هذا، أجاب الأطفال مستخدمين ثلاث دمى طُلب منهم التظاهر أنها حقيقية: فتاة تدعى ماغي Maggie، وقرد، وحيوان آخر مميز قيل بأنه يمتلك قدرة ممتازة على الرؤية (النسر)، أو السماع (الثعلب)، أو الشم (الكلب). وكما هو الحال في الأبحاث السابقة في نظرية العقل، لم يتمكن معظم الأطفال حتى حد سن الخامسة من الإجابة المتسقة بأن ماغي والقرد لن يكونا قادرين على رؤية أو سماع أو شم الهدف من المكان الأولي، بينما يستطيع الحيوان ذو الحس المميز من ذلك، ويقدر الله على ذلك. يميل الأطفال في الواقع حتى الوصول إلى هذا العمر (الخامسة) إلى ادعاء أنهم يستطيعون أنفسهم رؤية الوجه الضاحك وسماع الموسيقى وشم رائحة زبدة الفول السوداني رغم عدم قدرتهم على ذلك. أي يميل الأطفال الأصغر سنًا إلى المبالغة بنسب القدرة الإدراكية إلى أنفسهم وإلى ماغي والحيوانات. حيث يعتبر الأطفال قبل الخامسة الجميع مثل الله.

تتلاقى هذه المهام الإدراكية المختلفة على نتيجتين: أولًا: يستطيع الأطفال قبل الثامنة بسنوات من التمييز بين القدرات الإدراكية لله (ولبعض الحيوانات ذات الحس المميز) وبين القدرات الإدراكية للبشر (ولبقية الحيوانات). ثانيًا: يستطيع الأطفال في بعض الحالات توقع الإدراكات الإلهية بأكثر دقة من توقع إدراكات البشر، على الأقل حتى حوالي الخامسة من العمر. أي أنه من بعض النواحي فالأطفال الذين ما زالوا يكافحون لمعرفة ما الذي تعلمه أمهاتهم وتراه وتسمعه

وتشمه، استطاعوا بالفعل فهم ما يعلمه ويراه ويشمه ويسمعه الله في حالات مماثلة. إذ يبدو أن مسار نمو التوقع الدقيق للحالات العقلية عند بقية البشر يأخذ فترة أطول - ربما أطول بعامين- مقارنة مع التوقع الدقيق للحالات الذهنية لله. إذًا يُمكن للأطفال في الثالثة من العمر أن يفهموا الله، وليس الناس، بشكل (صحيح).

قد يعود سبب أداء الأطفال الجيد في هذه الاختبارات، أي من وجهة نظر لاهوتية، إلى التلقين العميق، فقد قيل لهم مرارًا وتكرارًا إنّ الله يعلم كل شيء، ويستطيع رؤية وسماع وشم كل شيء، وإنّ الله فعال لما يريد. فمن ثَمَّ يقومون بتطبيق هذه البديهيات عن الله في هذه الاختبارات الجديدة. فليس الشأن أن فهم الله أسهل لعقل الطفل من فهم الناس في هذه الحالات ذاتها، ولكن يعود السبب فقط أن لديهم تعليمات أكثر حول الصفات المميزة لله مقارنة بالأشخاص، ربما هذا هو السبب. ولكن يبدو لي أنه تفسير مبالغ فيه: فهل يُعتبر الشم الخارق لله أكثر وضوحًا حقًا في خبراتهم مقارنة بحالات الفشل في رؤية أو سماع أو شم شيء ما عند بقية البشر وعند أنفسهم؟ سيكونون بالتأكيد قد تعلموا أنه ليس بإمكانهم رؤية أو سماع الأشياء من مكان بعيد جدًا قبل أن يعلموا أن لله قوى شمية خارقة. يُثير البحث عن الخلود الإلهي مشكلة مماثلة لفرضية التلقين.

***

## الخلود الإلهي والإنساني

أخبرني صديقي مؤخرًا قصة من طفولة ابنته. حيث تعرضت من فترة قريبة إلى موضوع الفناء البشري عبر حادثة وفاة والدة أحد الأصدقاء. دفع هذا الحدث الطفلة التي لم تبلغ عمر المدرسة إلى العديد من التساؤلات، وأدى الأمر إلى مناقشات وتوضيحات من والديها حول ديمومة الموت. أوضح لها والدها أن الموت هو النهاية، فيتوقف الجسم عن العمل ولا يمكنه معاودة العمل مرة أخرى، بحالة تشبه كثيرًا اللعبة المكسورة. ولإتمام نهائية موت الإنسان، يُدفن الجسم في الأرض، ويتحول إلى تراب. ولا يتبقى منه شيء يمكن إصلاحه. أوضحت هذه الفكرة عن الآلة أو اللعبة المكسورة التي لا يمكن إصلاحها المعنى، واستطاعت الفتاة فهم الموت. ليس مفاجئًا هذه السهولة النسبية عند الأطفال لفهم الموت البيولوجي. ولكن تطبيقًا معينًا من حيث المبدأ لا يزال يهم الطفلة الصغيرة: ماذا عن المسيح؟ هل هو ميت أم على قيد الحياة؟ حاول الأب أن يشرح استثنائية المسيح، ولكنه لم يتوصل إلى نتيجة. في النهاية استسلم الطفل المحبط لفكرة أن مثل هذه المواضيع ببساطة (من الصعب جدًا أن يفهمها الأطفال).

إنّ فكرة موت المسيح، ثم عودته إلى الحياة، ومن ثم الاستمرار بالحياة إلى الأبد ككائن خالد قد تكون صعبة التقبل والفهم جدًا للأطفال. ومع ذلك فقد لا تكون فكرة الخلود الجوهري لزيوس Zeus والأشباح والله والكائنات الأخرى صعبة الفهم والتصديق إلى هذا الحد بالنسبة إليهم. وكما في افتراض المعرفة

الخارقة والإدراك الخارق، ربما يبدأ الأطفال بافتراض مبدئي أنّ كل الكائنات الذكية - الآلهة والبشر وبعض الحيوانات أيضًا - خالدة ويحتاج الأطفال لتعديل هذا الافتراض عند مواجهة حوادث موت الإنسان والحيوان ولكن لا يلزم تغيير تفكيرهم لاستيعاب الكائنات الخالدة مثل الآلهة، وتشير تجربتان إلى هذا الاحتمال.

***

## كيف يفكر الأطفال بالفناء

سألت مارتا جيمينه - داسي Marta Giménez-Dasí ومساعدوها أطفالًا إسبانيين تتراوح أعمارهم بين ثلاث إلى خمس سنوات أسئلة تتعلق بفناء الصديق مقابل فناء الله.[٨] ركزت هذه الأسئلة على أن الله والصديق المحدد: (١) كانا على قيد الحياة في زمن الديناصورات، (٢) كانا أطفالًا في وقت ما في الماضي، (٣) سوف يكبران في مرحلة ما في المستقبل، و(٤) سيموتان في مرحلة ما في المستقبل. ولإعطاء قيمة (مجموع نقاط) لفناء كل من الله والصديق، حدد الباحثون نقطة واحدة مقابل إجابة (لا) على السؤال الأول، ونقطة واحدة لإجابة (نعم) على الأسئلة المتبقية. على سبيل المثال، الطفل الذي أجاب بأن صديقه/ صديقته لم يكن على قيد الحياة في زمن الديناصورات، وكان طفلًا فيما مضى، وسيكبر يومًا ما، وسيموت في النهاية سيكون مجموع نقاط فناء صديقه تساوي أربعة. أما الإجابة بأن الله كان على قيد الحياة منذ زمن الديناصورات، ولم يكن طفلًا أبدًا، ولن يكبر،

ولن يموت، فستعطي إجابات هذا الطفل مجموع نقاط بقيمة الصفر لفناء الإله، وتدل على أن الله أبدي.

وبما لا يختلف عن الاختبارات المعرفية أو الإدراكية، لم يُميز الأطفال في الثالثة من العمر بوضوح بين فناء الإله وفناء الصديق. حيث لم يقر الأطفال الصغار بوضوح بفناء أي منهما، مع معدل نقاط فناء بلغ ٠,٢ للصديق و١,٦ للإله. وفي المقابل، نَسب الأطفال في الخامسة من العمر بشكل موحد وصحيح الفناء للصديق. حيث بلغ معدل نقاط الفناء ٠,٤، ونقول مرة أخرى إنه كما حصل في تجارب صندوق البسكويت، لم ينسب الأطفال في الخامسة من العمر الصفات البشرية إلى الإله، أو تعاملوا مع الإله كالإنسان تمامًا. حيث اعتبر الأطفال في الخامسة، على سبيل المثال، الصديق أكثر ترجيحًا أن يكبر ويموت مقارنة مع الله. وبقي معدل نقاط الفناء للإله حوالي ٠,٢، بحيث لا يمكن تمييزه إحصائيًا عن نتائج الأطفال في الثالثة من العمر.

تُوضح هذه التجربة، مثل الدراسات التي تبحث في فهم الأطفال للعقول، أنه لا يلزم معاملة الأطفال في سن الخامسة للإله والناس على حد سواء. ولكن هل تشير إلى انحياز الأطفال في الثالثة من العمر نحو تبني الخصائص الشبيهة بالإله - مثل الخلود في مثل هذه الحالة؟ لم تكن النتائج واضحة. إذ يميل الأطفال في الثالثة من العمر إلى رفض الأجوبة المتعلقة بفناء الإله، لكن إجاباتهم لم تصل إلى مستوى مستقر يمكن أن يعطينا الموثوقية. ويبدو أنهم كانوا يجيبون (اعتمادًا على

الصدفة)، سواء بالنسبة للإله أو لصديقهم، مما يعني احتمالًا ألا يكون لديهم أي فكرة فيخمنون. وهذا محتمل، وقد يكون ما رأيناه عند الأطفال في الثالثة من العمر عند الإجابة حول أصدقائهم بمثابة لحظة خاطفة للانتقال من افتراض الخلود إلى التعلم عن فنائية أصدقائهم. وربما لم يقدم الأطفال في حالة الإله رفضًا مقنعًا للفنائية بسبب السياق المسيحي الذي أجريت فيه الدراسة[1]. حيث يرتاد نصفهم مدارس مسيحية، ونشأ جميع الأطفال في سياق ثقافي تتعقد فيه فكرة أبدية الله بفكرة أنه أصبح بكليته إنسانًا على شكل يسوع الناصري Jesus of Nazareth. وإذا فهم بعض هؤلاء الأطفال (الله) بما يشمل المسيح، وهو سيناريو ليس بعيد الاحتمال، فقد يميلون للقول بأنّ الله كان فعلًا فيما مضى طفلًا صغيرًا، ولا يحتمل أن يموت فقط لكنّه قد مات فعلاً في يوم الجمعة العظيمة.

لهذه الأسباب، قمت أنا وطالبتي إيما بوردت Emma Burdett بإعادة دراسة غيمينث- داسي اعتمادًا على عينة أطفال تخطوا مشكلة التعقيد الناتج عن فكرة أن الله أصبح إنسانًا، ذهبت بوردت إلى مدينة في جنوب القدس وتحدثت إلى أطفال يهود في مكان كل من فيه على دراية بموت الإنسان، ولكنهم لا يعرفون إلهًا كان طفلًا في وقت مضى أو يمكن أن يموت. سألنا الأسئلة الأربعة ذاتها عن الله، وعن والدة الطفل، وصديق ما. واستند معدل نقاط الفناء على ثلاثة أسئلة: حول إمكانية أن يكبر الله أو والدة الطفل أو الصديق، وإمكانية أن يموتوا، وهل كانوا

(١) يشير المؤلف إلى أن المسيحي قد يتوهم فنائية الإله نتيجة تأليه المسيح مع ما يرتبط بحياته من ولادة وموت (المترجم)

أطفالًا في وقت مضى.[٩] قسمنا أطفال التجربة إلى مجموعتين: المجموعة الأصغر سنًا (من ثلاث إلى أربع سنوات ونصف) والأكبر سنًا (من أربع سنوات ونصف إلى خمس سنوات وأحد عشر شهرًا). وميّزت مجموعة الأطفال الصغار بالفعل بين الله والشخصين الآخرين بطريقة صحيحة. فلو قام الأطفال بالتخمين فقط، لحصلوا على معدل متوسط للنقاط يساوي ١,٥، ولكن الأطفال الصغار أعطوا الأم والصديق معدل فنائية بقيمة أقل بقليل من نقطتين. هذا يعني أنهم قد فهموا بشكل ضعيف أن الإنسان فانٍ. وفي المقابل، بلغ معدل نقاط فنائية الإله حوالي ٠,٨ فقط، مما يدل أن لديهم بالفعل شعورًا قويًا بأن الله أبدي. وعند النظر في سؤال (هل يمكن أن يموت الله يومًا ما؟) أجاب عشرون طفلًا من أصل تسعة وعشرين أنه لن يموت أبدًا. إذًا فقد أدرك معظم الأطفال أن الله لن يموت. في حين لم يكونوا على ثقة تامة بذلك بالنسبة لوالدتهم أو صديقهم، حيث أجاب اثنا عشر من أصل تسعة وعشرين طفلًا أن والدتهم لن تموت، وخمسة عشر من أصل تسعة وعشرين (أكثر من النصف) أن صديقهم لن يموت أبدًا. أما جواب الأطفال الأكبر سنًا (رغم أنهم ما زالوا في الرابعة أو الخامسة من العمر فقط) فقد كان مثاليًا حقًا في القول إن الله لن يموت ولكن البشر سيموتون. وجدنا في هذه الدراسة دليلًا يبين إدراك الأطفال المبكر لأبدية الله مقارنة بفناء الإنسان، حتى في بلد يعاني من الحرب. وربما أحدثت قصص يسوع تشويشًا في الدراسات السابقة.

يعتبر مصاص الدماء حالة شاذة مختلفة قليلًا ضمن فكرة الخلود. فلن يموت مصاصو الدماء بالأسباب الطبيعية كما تصورهم الأفلام الترفيهية الشائعة هذه الأيام، ولكن يمكن أن يقتلوا بطريقة عنيفة. فهل هذه هي الطريقة التي يفكر بها الأطفال اليهود في تجربتنا؟. عند سؤال: (هل يمكن أن يُقتل الله؟)، أجاب أربعة فقط من أصل ثلاثة وخمسين طفلًا بالإيجاب، ولم يعرف اثنان. وبالنظر إلى إجابات الاثني عشر طفلًا الذين تقل أعمارهم عن ثلاث سنوات ونصف، فقد أجاب تسعة منهم أن الله لا يمكن قتله، وأجاب اثنان بأن ذلك ممكن، وواحد لم يعلم الإجابة.

وبالتالي يمكننا الاستنتاج الصحيح أنه وبما يتوافق مع نتائج الدراسات الأخرى المذكورة في الفصول السابقة، لا يحتاج الأطفال في سن الخامسة من العمر إلى نسب الصفات البشرية إلى الله بخصوص الفناء. حتى بالنسبة إلى الأطفال في سن ثلاث سنوات لا يبدو أنهم يفترضون الفناء؛ بل يحتاجون إلى تعلم عكس ذلك. فإذا وجد عندهم افتراض مسبق فهو على العكس من ذلك: فالأطفال لديهم تحيز بسيط نحو افتراض الخلود وعليهم تعلم عكس ذلك. وفي حالة الإله فضلًا عن غيره أبدى الأطفال ميلًا لرفض الفنائية. ولن نفاجأ إذا أكدت أبحاث إضافية هذا الميل. إن حتمية الموت البيولوجي - بغض النظر عن الموت العقلي - نتيجة الأسباب الطبيعية قد لا تكون واضحة في ممارسة الحياة اليومية لمعظم الأطفال. وإن لم يكن ضروريًا للكائنات الواعية أن تكون كائنات بيولوجية، وأعتقد أن الأدلة تبين لنا كيفية تفكير الأطفال بالعوامل الفاعلة، فهنالك دافع ضئيل عند

الأطفال للتفكير بالله غير البيولوجي على أنه فان. وينبغي عليهم أن يتعلموا أن الله فان عبر تعليم مشوش ومجسم بخصائص بشرية، في حين يمكنهم بالسهولة نفسها تعلم خلاف ذلك، أو حتى تعلمه بسهولة أكبر.

***

## معتقدات الحياة الآخرة والخلود والأشباح

خضت مع زوجتي تجربة غريبة عند قيامنا بجولة ضمن قصر تاريخي رائع في إنكلترا. أثناء تجولنا ضمن هذا المبنى الضخم، الذي ما زال مسكنًا للدوق الحالي، تفحصنا الصور العديدة للعائلة وغيرهم من الأنسباء والضيوف الكرام. ثم وصلنا في نهاية قاعة طويلة من الصور إلى صورة حديثة المظهر. وهناك هتفت زوجتي على الفور أنها قد رأت هذا الرجل في وقت سابق خلال زيارتنا وأنّه كان يرتدي ذات السترة الرياضية غير الملائمة كما في الصورة. افترضنا طبعًا لا بد أنه كان الدوق الحالي وسنحت فرصة لزوجتي برؤيته. وجدنا بعد دقائق بطاقة تعريفية توضح أنه الدوق وسيد هذا المقر فعلًا. هل حُلّت الأحجية؟ ليس تمامًا. حيث أظهر التاريخ المدون أن هذا الدوق توفي قبل أربع سنوات.

في مثل هذه الحالات، رغم ندرتها، يمكن حتى لمن لا يؤمن منا بأن الأشباح تلازم الأحياء أن يقشعر جلده رهبة. فاحتمال سيطرة رؤية الشبح يتفوق مؤقتًا على أي تفسير منطقي عن تركيبة ذاكرة غير صحيحة. أخبرني زميل ملحد قصة عن كيفية سيطر عليه اعتقاد محاولة أحد أقاربه المتوفين حديثًا التواصل معه. ويشعر زميل لا

أدري آخر بعدم الارتياح عند التحدث بسوء عن النظريات الخاصة بسلف علمي معين مشهور ضمن مجال اختصاصه عندما يكون في مكتبه الخاص. لماذا؟ لاحتواء المكتب على أثاث يعود في السابق إلى ذلك الفقيد. بالمختصر فينا شيء مستعد للإيمان بالأشباح سواء أردنا ذلك أم لا.[١٠] يعتقد المزيد من الباحثين في مجال النمو المعرفي أن شيئًا ما يرتبط بطريقة نمو العقول البشرية يعرضنا كثيرًا للاعتقاد أن جزءًا فينا يبقى قائمًا بعد الوفاة، وأن شيئًا ما قد يستمر فعله في العالم الحالي.[١١] إن الدليل الأولي على هذه القابلية هو واقع أن الإيمان بالأشباح والقديسين وأرواح الأسلاف - أي كل التصورات عن الأموات الذين كانوا أحياء فيما مضى وما زالوا قادرين على التفكير والشعور والتصرف بأساليب تهم الأحياء - هو النوع الأكثر انتشارًا للإيمان بالمتجاوز للطبيعة. حتى في الأماكن التي تدّعي أنها مجتمعات إلحادية، مثل أجزاء من المجتمع الصيني والمجتمع الياباني، لا يزال الناس يمارسون مجموعة طقوس للتواصل مع الأسلاف المتوفين. يُعلّم علم اللاهوت المسيحي النموذجي فكرة أنه لا بد أن يحدث بعث جسدي للناس للاستمتاع بالحياة الآخرة، وليس الشأن أن الحياة تستمر ببساطة بعد الموت، ومع ذلك يستمر الحديث عن الأشباح وأرواح الأموات التي تتواصل دومًا مع الأحياء في المجتمعات المسيحية.[١٢]

يُظهر الأطفال أيضًا في التجارب والمقابلات المنظمة فهمًا مقيدًا جدًا للموت، كما لو أن له معنى في بعض الحالات فقط أو يعني بعض الجوانب من البشر فقط.[١٣] على سبيل المثال، قام عالم النفس النمائي جيس بيرينغ Jesse Bering ومعاونوه

باختبار الحدس لأطفال أسبانيين (بأعمار تتراوح بين خمس إلى اثني عشر عامًا) فيما يتعلق بالحياة الآخرة (إن وجدت) لفأر له خصائص بشرية.[١٤] فشاهد الأطفال عرضًا مسرحيًا للعرائس ذهب فيه الفأر الصغير إلى نزهة في الغابة، وانتهى العرض بالقول: (عندها، لاحظ شيئًا غريبًا. لقد تحركت الشجيرات! وقفز التمساح من ورائها وأكل الفأر الصغير، التهمه التمساح كله، ولم يعد الفأر على قيد الحياة بعد الآن). وأجاب الأطفال، بعد أن وافقوا على أن الفأر الصغير قد مات، على مجموعة من الأسئلة المتعلقة بالقصة. على سبيل المثال، جاع الفأر الصغير في القصة، فسئل الأطفال بعد وفاته: (هل تعتقد أن الفأر الصغير ما زال جائعًا إلى الآن؟) وكان الفأر الصغير في القصة غاضبًا من أخيه، وتمنى لو لم يكن لديه أخ بعد الآن، فبعد وفاة الفأر الصغير، سأل الباحث: (هل تعتقد أن الفأر الصغير لا زال يرغب لو لم يكن لديه أخ الآن؟). أعرب الأطفال الإسبانيون بثقة أن الفأر الصغير لن يحتاج بعد الآن إلى طعام أو يشعر بالعطش (بما أنه ميت الآن) مقارنة بفكرة أنه لا يزال يرغب بالعودة إلى منزله أو أنه يفكر بأخيه. من الواضح أن الخصائص البيولوجية (مثل الحاجة إلى طعام) انتهاؤها أسهل استيعابًا مع الوفاة بالنسبة إلى الأطفال، وذلك بمقارنة الخصائص العقلية مثل وجود الرغبات أو القدرة على التفكير.

يشير العديد من العلماء إلى حقيقة أن الموت – بخلاف الخلود- معقد لاشتماله على مكونات جسدية وبيولوجية ونفسية (على الأقل). أي تتحلل الأجسام المادية وتتغير عند الموت، وتتوقف الأجسام البيولوجية عن النمو والتطور والتنفس

والحاجة للطعام والتنقل، ويتوقف العقل عن التفكير والإدراك والشعور والرغبة والوعي. وقد تظهر صعوبات إن كانت هذه الجوانب المختلفة للموت تتطلب تنسيقًا لأنظمة عقلية مختلفة. فماذا لو لم يكن أحد هذه الأنظمة قابلًا للإغلاق الفوري عندما يتوقف الجسم عن العمل، كالنظام المسؤول مثلًا عن التفكير بما يريده الشخص أو يفكر به (نظرية العقل)؟.[١٥] ربما تعطي الجثث، أكثر من مجسمات العرض، مشاعرَ غريبةً متضاربةً، وتترك الباب مفتوحًا أمام احتمال أن يكون الساكن السابق للجسم لا يزال يراقب ويستمع ويفكر ويمارس أفعالًا بطريقة أو بأخرى.

إن تعليل الإيمان بالأشباح أو الأرواح التي بقيت بعد الموت بشكل طبيعي جدًا عند الأطفال (والبالغين) هو مجال بحث ونقاش نشط. وقد ظهر إجماع بالرأي أن الأطفال يولدون مؤمنين بنوع من الحياة الآخرة، ولم يجمعوا على تعليل ذلك.

***

## الخيرية الإلهية

هنالك القليل من الأبحاث العلمية المتعلقة بكيفية نظر الأطفال لخيرية الله أو غيره من الكائنات الخارقة، ولذلك لا أستطيع الادعاء بثقة بوجود أي ميل لدى الأطفال لنسب الخيرية أو السوء الأخلاقي لآلهتهم عمومًا. على أية حال أعتقد أن بعض الصفات المميزة تجتمع مع بعضها طبيعيًا أكثر من غيرها. فإن كان الله ذا قدرة خارقة ومعرفة خارقة، فسيكون من البديهي أكثر بالنسبة إليه أن يكون بأخلاق حسنة كذلك. وبالمقابل قد تكون الآلهة المغفلة والضعيفة نسبيًا أكثر عرضة للفشل الأخلاقي. ومعرفة السبب الذي دفعني إلى هذه الظنون سيتطلب عرضًا موجزًا لما يبدو أنه يظهر من الأبحاث العلمية للتفكير الأخلاقي.

***

## الأخلاق البديهية (الفطرية)

بدأت الأبحاث العلمية الحديثة المتعلقة بالاستدلال الأخلاقي، وخاصة التي انطلقت من منظور تطوري، تجمع على فكرة وجود مجموعة أساسية من الغرائز الأخلاقية أو القواعد أو البديهيات منذ الطفولة.[١٦] تقدم هذه البديهيات الأخلاقية الهيكل لكيفية تفكير الناس في جميع أنحاء العالم بخصوص الصواب والخطأ. نعلم جميعًا على سبيل المثال القاعدة البديهية حول عدم إيذاء الآخرين دون موافقتهم، ولكن هذه القاعدة قد تُخفف أو تضخم في بيئات ثقافية مختلفة. ويزيد تعليم الأخلاق

مسألة حساسية الأطفال لهذه البديهيات الأخلاقية، ويساعدهم على استيعابها وتطبيقها في حالات جديدة، ولِإتِّباعِ الأنسبِ بين القواعد المنافسة أحيانًا. يقول علماء التطور إن هذه الغرائز الأخلاقية قد ساعدت أجدادنا على التعاون والتفوق على أولئك الذين لا يملكون بديهيات أخلاقية تلقائية.[١٧] تشير هذهِ الملاحظات إلى أنّه خلافًا لما قد يجادل به البعض، لا تصدر الأخلاق الأساسية من نظام اعتقاد ثقافي محدد. فلدى كل الأشخاص الناشئين بطريقة طبيعية البديهيات الأخلاقية الأساسية نفسها، تمامًا كما يملكون البديهيات الأساسية المتعلقة بخصائص الأشياء المادية أو كيفية تشكل سلوك الأشخاص بناء على معتقداتهم ورغباتهم.

يبدو أن إحدى هذه البديهيات الأخلاقية الأساسية هي الإيمان أن القواعد الأخلاقية مطلقة وغير قابلة للتغيير، في حين أن القواعد الأخرى اعتباطية وبالإمكان تغييرها، إذًا فعدم وضع مرفقيك على طاولة العشاء هي قاعدة يمكن للأم أو الرئيس أو الله نقضها، بالتالي: (فانطلق الآن، ولا بأس أن تضع مرفقيك على الطاولة). ولكن لن يكون قتل شقيقتك فعلًا مقبولًا على الإطلاق، ولن يستطيع أحد أن يجعله كذلك. تسمى هذه الرؤية الأخلاقية – التي تكون مبادئها غير قابلة للتغيير، وتكون بعض الأفعال في جوهرها صحيحة أو خاطئة – في بعض الأحيان بمذهب الواقعية الأخلاقية moral realism: توجد قواعد أخلاقية حقيقية لا يمكن تغييرها بطريقة اعتباطية. ويقول علماء النفس وعلماء الأنثروبولوجيا التطورية إن الناس طبيعيًا يتبعون مذهب الواقعية الأخلاقية.

رغم أن هذه الملاحظات حول فطرية naturalness التفكير الأخلاقي قد أَيدها حديثًا مناصرو الإلحاد العملي، إلا أنها لم تفاجئ الكثير من المؤمنين المتدينين.[١٨] قام العالم المسيحي سي إس لويس C. S. Lewis (مؤلف سلسلة سجلات نارنيا The Chronicles of Narnia) في أطروحته عن التعليم بعنوان: إلغاء الإنسان The Abolition of Man، بالحديث عن البديهيات الأخلاقية المتقاربة عمومًا، ووصفها بمصطلح تاو Tao، وأوضحها باقتباسات من التقاليد الدينية والفلسفية من جميع أنحاء العالم.[١٩] وكتب ملاحظة في مكان آخر توضح أن الناس عندهم بديهيات أخلاقية واقعية قوية، قائلًا:

أعتقد أننا نستطيع أن نتعلم شيئًا مهمًا جدًا من خلال الاستماع إلى طبيعة ما يقوله [الأشخاص عند الخلاف]. يقولون شيئًا من هذا القبيل: (كيف سيكون شعورك لو قام شخص ما بفعل الشيء نفسه لك؟)... وما يهمني فعلًا حول كل هذا الكلام أن الرجل الذي يقوله لا يشير ببساطة إلى أن سلوك الرجل الآخر لم يرضه. وإنما يحتكم إلى نوع معين من السلوك المعياري الذي توقع معرفته من الطرف الآخر. نادرًا ما يجيب الشخص الآخر بقوله: (اذهب إلى الجحيم أنت ومعاييرك). بل سيحاول في أغلب الأحوال تقريبًا أن يوضح أن أفعاله لم تكن ضد المعيار، أو أنها إذا كان كذلك فهناك عذر خاص. حيث يدّعي أن هناك سببًا خاصًا في هذه الحالة تحديدًا لا ينبغي لأجله أن يحتفظ الشخص بالمقعد الذي جلس عليه أولًا، أو أن الأمور كانت مختلفة تمامًا عندما أُعطي قطعة من البرتقال، أو أن شيئًا ما قد تبدل مما دفعه إلى نقض وعده.[٢٠]

يبدأ لويس في هذا المقطع بطرح مسألة أن الأشخاص لديهم عادة تصورات بأن بعض الأمور صحيحة وبعضها خاطئ، وهذا هو الحال. لا نجادل هنا في تلك النقاط، ولكننا نناقش إن كانت مواصفات سلوكنا مبررة باستخدام هذه المبادئ. عندما نكون واثقين بالشرعية الأخلاقية لأفعالنا، نقوم بالنقاش كما لو أن إقناع الآخرين بالشرعية هي مسألة اطلاعهم على الظروف بدقة، لا إقناعهم بالمبدأ الأخلاقي. فإذا كانوا على علم بالحقائق (مثلنا)، سيصلون إلى النتيجة نفسها التي وصلنا إليها.

***

## الآلهة المهتمة بالأخلاق

قام باسكال بوير Pascal Boyer في سبيل مناقشة كيفية تقييمنا الأخلاقي لسلسلة توضيحية من الأفعال، بصياغة الحالة على النحو الآتي:

من شأن طرف ثالث غير متحيز ممن عرف الحقائق (حول السرقة من صديق) أن يوافق على أن سرقة الأموال فعل مُخجل... هذا على الأقل ما سنفترضه، وما يدفعنا للتفكير دائمًا بأن أفضل طريقة لتعليل سلوكنا هي تفسير الحقائق الفعلية... فمعظم الشجارات العائلية ما هي إلا محاولات إضافية وغير مجدية عمومًا لحث الطرف الآخر على (رؤية الحقائق كما هي في الواقع) - أي كما نراها نحن - واستنادًا إلى ذلك، إلى مشاركة أحكامك الأخلاقية.[٢١]

يقول بوير إن السبب في ربط الآلهة بالنظام الأخلاقي عادة هو هذا الإحساس البديهي بأن معرفة الحقائق هو المطلوب للوصول إلى حكم أخلاقي. تستطيع الآلهة الوصول إلى جميع المعلومات المتعلقة بموضوع ما لاتخاذ أحكام أخلاقية دقيقة. وبالتالي مع وصلها للمعلومات تعلم الآلهة من الذي كان سيئًا أو حسن السلوك. (لهذا نفترض عفويًا أنه إذا كان لعاملٍ فاعلٍ ما إمكانيةُ الوصول الكامل لجميع المعلومات المتعلقة بالحالة، سيميز هذا العامل الفاعل مباشرة بين صواب أو خطأ هذا السلوك).[٢٢] فطالما لدى الإله المفترض هذه المعلومات المتعلقة بالحالة، سيعلم من هو على صواب ومن هو على خطأ.

ومن السهل بعد ذلك ربط الآلهة، على الأقل تلك التي تمتلك معرفة خارقة، باعتبارات أخلاقية لتكون حكامًا قد تقوم بالمعاقبة أو المكافئة. قد تفكر إذا حدث لك شيء سيئ لسبب غير مفهوم، ما الذي قمت بفعله لأستحق ذلك؟ وقد يسأل جارك هذا أيضًا، لكن مع افتراضه بأن القادر على إنزال العقاب يعرف تمامًا ما الذي فعلته. إن الله الذي يستطيع معرفة ما تفعله -حتى في السر- مصدر معقول لإنزال العقاب. حتى الآلهة المغفلة نسبيًا لديها غالبًا هذه القدرة للوصول إلى المعلومات ذات الصلة لكونها غير مرئية (قد تكون تراقبنا الآن) أو لقدرتها على سماع أو رؤية الأشياء التي نود إخفاءها.

لذلك نفترض منذ الطفولة أن العديد من الأفعالٍ جيدة أو سيئة بجوهرها. ونتمسك بأفكار بديهية أنه إذا علم أحد ما وقائع الحالة، سيعلم تلقائيًا خير الفعل الذي نحن بصدده أم شره. تعلم الآلهة عادة وقائع الحالة، بالتالي تعلم ما إذا كان الشخص خيرًا أم شريرًا. يمكن أن يشابه الحظ أو سوء الحظ (بديهيًا) العقاب والثواب في يد الكائن الخارق المهتم بالأخلاق. تجعل هذه العلاقات من فكرة وجود روح أو إله مهتم بالأخلاق، طبيعيةً إلى حد ما وسهلةَ الفهم والإيمان بمجرد أن تمتلك فكرة صحيحة عن وجود الله أو الروح.

***

## الآلهة الخيرة أخلاقيا

لا تعني أي من هذه العوامل بالضرورة وجوب أن تتصرف الآلهة نفسها أخلاقيًا أو أن تكون مهتمة بالأخلاق. يُصر بعض علماء اللاهوت على إظهار الإله أو الآلهة في معتقداتهم متسقة مع الخيرية الأخلاقية، ناهيك عن الكمال الأخلاقي، كما هو الحال في المسيحية والإسلام واليهودية. تشبه الآلهة الأبعد من ذلك من الناحية الأخلاقية الآلهة اليونانية والرومانية غير المعصومة عن الخطأ، التي كانت عرضة للحسد والشهوة والخداع والكراهية وسوء النية. حيث استمتعت الإلهة الهندوسية المحبوبة كريشنا بالميل إلى اللعب الجنسي مع حلابات لا تعد ولا تحصى بما لا يمكن تقبله أخلاقيًا من كائن فانٍ كالبشر. يكون الصلاح الأخلاقي المطلق بين الآلهة استثنائيًا، وكذلك الحال أن يكون الإله كائنًا علويًا وقديرًا وعليمًا بدل

كونه أحد الكائنات الخارقة المحدودة القابلة للمقارنة تقريبًا والمُعرضة لارتكاب الأخطاء. فمن المحتمل أن تتناسب صفة الخيرية الأخلاقية الإلهية بسهولة مع بعض أنواع الخصائص الإلهية الخارقة الأخرى فقط.

قد يتناسب الجمع بين امتلاك العلم الكلي والإدراك الكلي والقدرة الكلية مع الخيرية الأخلاقية أيضًا – هذا على الأقل أفضل من إله ضعيف وجاهل وغبي نوعًا ما. إن كانت تحليلات بوير وغيره صحيحة، فسنفترض أن الكائن ذا العلم والإدراك الكليين سيعلم أيضًا الموقف الصحيح أخلاقيًا في الحالة المفترضة. وبالمقابل من المرجح أن يرتكب الكائن ذو الإدراك والمعرفة المحدودة أخطاءَ في الحكم الأخلاقي أيضًا. ولعلّ الكائن القوي بما يكفي ليخلق الكون سيكون قويًا بما يكفي أيضًا لتلبية كل ما يريده ويرغبه دون اللجوء إلى سلوك غير أخلاقي لفعل ذلك. فقد يلجأ الإله الضعيف إلى الفعل غير الأخلاقي للحصول على ما يريده، تمامًا كما يلجأ الناس إلى الغش والسرقة لأنهم ببساطة لا يستطيعون تحقيق ما يريدونه. فالله سيد الكون والعليم والمدرك لكل شيء، لا توجد أسباب تجعله يتصرف بطريقة غير أخلاقية أو أن يكون فاسدًا أخلاقيًا مقارنة بالإله غير المعصوم عن الخطأ من حيث المعرفة والقوة.

بالطبع لا تشكل هذه الملاحظات حجة على أن الله ذا القدرة الكلية والمعرفة الكلية هو خير أخلاقيًا بالفعل.[٢٣] فتلك الحجة تقتضي أن الملاحظات لا تدل مباشرة على أن هذه الصفات مُلزمة للصلاح الأخلاقي. لكنّني عرضت هذه الملاحظات

لأننا قد نجد على المستوى الحدسي أن المعرفة والإدراك والقدرة الكلية، في ألوهية ما، تُعزز تبادليًا الصلاح الأخلاقي عندما تظهر هذه الصفات معًا. إن التنبؤ القابل للاختبار الذي قد نجازف بطرحه هو أن الآلهة الخارقة تميل إلى أن تكون خيرة أخلاقيًا والآلهة غير المعصومة عن الخطأ تميل لأن تكون معرضة للخطأ أخلاقيًا.

***

## الفترة الحساسة للإيمان

إن فكرة ميل الأطفال الطبيعي لاكتساب معتقدات عن نوع من الإله عمومًا، وربما الإله ذي المعرفة والإدراك الكليّين والأبدي والخالق الخير على وجه الخصوص، لا تعني أن جميع الأطفال سيصبحون مؤمنين بآلهة أو مؤلهين Theists. فقد يتم تجاوز هذه الميول الطبيعية من عوامل أخرى، أو ربما ينبغي أن يتعرض الأطفال للاطلاع على مفهومٍ ما للإله في بداية الحياة فيستفيد من هذه الميول المبكرة. يمكن أن توجد مساحة فارغة تصورية للإله في السنوات الخمس الأولى ولكنها تتقلص تدريجيًا بعد ذلك أو يعاد تشكيلها إذا لم تُملأ بالمفهوم الصحيح للإله.

تقترح أبحاث كثيرة عنيت بكيفية اكتساب الأطفال للغة، أن الناس لديهم ما يُعرف بالفترة الحساسة لاكتساب اللغة.[٢٤] أي يحتاج الأطفال أن يتعرضوا، في مجال عمري محدد من مراحل النمو، إلى لغة طبيعية من أجل فهمها والتحدث بها ضمن المستويات الطبيعية من الكفاءة. عندما ينشأ الأطفال في هذه البيئة الغنية باللغة، سيبدؤون باكتساب اللغة كما تبدأ الأسماك بالسباحة في الماء. وإذا لم يتعرضوا للغة في هذه المرحلة يصبح تعلم اللغة أكثر صعوبة بكثير، وربما لا يصل إلى الطلاقة

الكاملة أبدًا. يبدو أن الفترة الحساسة لاكتساب اللغة تبدأ من الولادة وحتى بداية سن البلوغ، رغم أن التعرض للغة خلال السنوات الست الأولى قد يكون الأكثر أهمية.[٢٥] وإذا حُرم الطفل من التعرض اللغوي الكافي خلال هذه السنوات المبكرة، فمن المرجح أن يبقى معه أنواع من القصور اللغوي الحاد حتى بعد عقود من التعرض اللغوي اللاحق.

هل يملك الأطفال شيئًا مثل فترة حساسة ما من نموهم للتعلم عن الله؟ لم تُجمع أدلة قوية على هذه المسألة، ولكن العديد من المعلومات المتوفرة عن النمو المعرفي في مرحلة الطفولة تشير إلى احتمال وجود هذه الفترة الحساسة. بداية يبدو أن هناك شيئًا يشبه الفترة الحساسة في مجالات أخرى من التفكير بحيث تأخذ الميول الطبيعية وتجمع بينها وبين خصوصيات ثقافية. فعلى سبيل المثال يبدو أن بعض الكفاءات الموسيقية لها فترة حساسة، فإذا تعرض الأطفال إلى تدريب موسيقي خلال السنوات الأولى من حياتهم، سيثمر ذلك الوقت المستثمر في التدريب أكثر من أي وقت لاحق في الحياة.[٢٦] تميل مجالات التفكير المرتبطة بوجود فترات حساسة أن تتطلب قدرًا معينًا من الضبط البيئي. فمثلًا نتيجة وجود أطعمة مختلفة في بيئات مختلفة، لا يمكن التحديد الثابت لما هو مثير للاشمئزاز وما ليس كذلك في عقولنا. فهناك حاجة إلى بعض المرونة، ولكن قد تؤدي المرونة الكاملة إلى كارثة، كما هو الحال في تناول السموم أو غيرها من المواد الخطرة. ولهذا يحتاج ما يجده المرء مثيرًا للاشمئزاز من الأطعمة إلى بعض الضبط في مرحلة الطفولة المبكرة. يمكن

أن يأكل الأطفال في العام الأول والثاني من العمر بعض الأشياء المثيرة للاشمئزاز (كما حدث من ابني، آه، بالتنظيف وراء الأرنب الأليف)، ولكن بمجرد أن يتحدد شيء ما أنه مثير للاشمئزاز في السنتين الثالثة والرابعة، يصبح من الصعب للغاية تغيير تفكير الأطفال أو البالغين بخصوصه. وهكذا يعتقد الكثير مِن الأميركيين (ولكن ليس كثير من الشرق آسيويين) أن فكرة تناول الأسماك النيئة أو الأخطبوط الحي مثيرة للاشمئزاز، ولن يغير بالضرورة التعرض لهذه الفكرة على مدى سنوات وسنوات من تفكيرهم.

في مجال معرفة العقول، نظرية العقل، بما في ذلك عقول الآلهة، يوجد بعض التشابهات للمجالات التي ثبت فيها وجود فترة حساسة أو حرجة. يعتبر التفكر حول العقول الأخرى كفاءة اجتماعية حرجة وضرورية لبقاء البشر ككائنات اجتماعية. وتمامًا مثل اللغة يوجد بعض التباين من مكان إلى آخر يتعلق بما يجب فهمه من خصائص العقول والاهتمام به بالضبط. ويختلف مضمون معتقدات الناس من مكان إلى آخر، وتختلف تلك الأشياء والأنشطة التي يجدونها قيّمة، وكذلك تختلف القواعد والمكاتب والمهن والأعراف الاجتماعية. وحين النظر في العقول فقد لا يتقن الناس معرفة أنواع عقول البالغين فقط، وإنما الأنواع التي يمتلكها الأطفال أيضًا، أو التي قد توجد عند المسن أو الأعمى أو الأصم أو غيرهم من الأشخاص، وقد يحتاج إنسان مجتمعات الصيد أو الزراعة لمعرفة عقول حيوانية مختلفة. إنّ كل هذه التنوعات الممكنة في البيئة، كما هي كل التنوعات الممكنة في اللغة، تعني أن

استيعاب العقول الأخرى قد يتطلب قدرًا معينًا من المرونة في وقت مبكر من مرحلة الطفولة. وكما هو الحال في الاشمئزاز، يحتاج استيعابنا لعقول الآخرين أن يكون مضبوطًا بأنواع العقول الأكثر أهمية بالنسبة لنا طوال حياتنا.

تدفعني هذه الأمور المتقابلة لأعتقد بإمكانية وجود شيء يشبه فترة حساسة للتفكير حول عقول الآلهة. أي أن معرفة أن الله بصير وعليم ويعلم ما في الصدور ويستجيب لعدد لا حصر له من الصلوات في وقت واحد قد يبدو صعبًا - وصعبًا للغاية بالنسبة للأطفال الصغار، ولكن ربما من الأسهل إجادة هذا النوع من التفكير في مرحلة الطفولة عوضًا عن محاولة تعلم ذلك للمرة الأولى عند البلوغ. إن الميزة الوحيدة التي قد يمتلكها الأطفال الصغار هو أن جزءًا من تفكيرهم حول جميع العقول منحاز فطريًا لافتراض الإدراك والمعرفة الخارقين. ما أن نتعلم حقيقة أن المعرفة والإدراك محدودان لدى البشر، سيصبح من الصعب مخالفة تلك المعرفة عند تطبيقها على الآلهة. ربما لأن الأطفال لديهم مرونة طبيعية أكثر في استيعاب الأنواع المختلفة من العقول مقارنة بالبالغين، فما يبدو من وجهة نظر البالغين أنه ببساطة صعب جدًا للأطفال، قد يكون في الواقع صعبًا جدًا بالنسبة للبالغين ولكنه مجرد لعبة بالنسبة إلى الأطفال. ربما يكون تعلم خصائص الله فوق البشرية مشابهًا لتعلم اللغة، فيستطيع الأطفال في الخامسة من العمر تعلم لغة ثانية خلال أشهر، وهو إنجاز مستحيل تقريبًا بالنسبة لشخص بالغ. وقد يستطيع الأطفال في الخامسة تعلم التفكير (استيعاب) العديد من الخصائص المتجاوزة لله بطلاقة أكثر من البالغين مع استخدام الممارسة نفسها.

## المكونات الأساسية للدين

كتب بياجيه Piaget: (إليكم الوقائع، يندفع الطفل الصغير بحماس ليسبغ على والديه كل تلك الصفات التي تسندها العقائد اللاهوتية إلى الآلهة -القداسة والسلطة العليا والعلم الكلي والأبدية وحتى الوجود الكلي Ubiquity).[٢٧]

رغم عدم ثقتي من توافق قائمة بياجيه من الصفات الإلهية تمامًا مع الأدلة المتوفرة، إلا أن فكرته العامة أصابت الصميم عندي. يفكر الأطفال (في صغرهم) بالعوامل الفاعلة - من البشر إلى الآلهة - على أنها عوامل فاعلة لها صفات شبه إلهية تقريبًا. ويبدو أن الأطفال الصغار ليس لديهم أي صعوبة في فهم الله الأبدي ذي العلم الكلي والإدراك الكلي والقدرة الكلية وخالق العالم الطبيعي، وربما يميلون لافتراض هذه الخصائص لكل العوامل الفاعلة إلى أن يعلموا خلاف ذلك. وبهذا المعنى فإن المفهوم البسيط الأساسي للعامل الفاعل الذي يستخدمه الأطفال لصياغة أفكارهم حول الناس والأرواح والملائكة والشياطين والآلهة قد يأخذ على الأقل في بداية تفكيرهم صيغة مفهوم الإله أكثر من الشكل البشري. إذا كانت هذه الفرضية صحيحة، فستساعدنا في تعليل تمكن الأطفال من الاستيعاب السهل لمفاهيم عن الله وغيره من الكائنات الخارقة للطبيعة: لأن المكونات الأساسية كلها موجودة قبل أن يتعلم الأطفال عن الآلهة المعينة الخاصة بجماعتهم الدينية والثقافية.

وعند إجراء تجارب من النوع الموصوف في هذا الفصل والفصل السابق، شهدت طالبتي ومساعدتي إيما بوردت Emma Burdett العديد من التبادلات

المعبرة (والمسلية غالبًا) بين الأطفال والبالغين، بما في ذلك والديهم. وثقت إحدى الحالات من أكسفورد في انجلترا بدقة فرضية الإيمان بالفطرة. فقد أخبرت والدة أحد الأطفال بوردت قبل الدخول إلى الجلسة أن ابنها البالغ من العمر خمسة أعوام تعرّف على مفهوم الله في المدرسة، ولكنها ملحدة ولم تتحدث بمسائل دينية في المنزل على الإطلاق. وأخبرتها أنها سعيدة لمشاركة ابنها في هذه الدراسة، وليس لديها أية فكرة عمّا قد يجيب فيها نظرًا لهذا التعرف العرضي على مفهوم الله. ولكن هذا الطفل الصغير أجاب خلال الجلسة بطريقة صحيحة لاهوتيًا عن الأسئلة حول الله - حيث أجاب بأن الله لن يموت، ومن شأنه أن يعلم ما يوجد داخل صندوق البسكويت المغلق، وما شابه ذلك. جلست والدته مذهولة خلال المقابلة، وبعد الانتهاء من وظائف التجربة، سألت ابنها إن كان يؤمن بوجود الله. كان رده كالتالي: (حسنًا، بالطبع، يا أمي).

اقترحت بوردت على هذه الأم المشاركة في الدراسة، لوجود حاجة إلى مشاركة بعض الكبار للمقارنة. وافقت الأم ولكنها أوضحت أن ذلك قد يكون مضيعة للوقت لأنها ستجيب بالنفي على كل الأسئلة المتعلقة بالله لأنها ملحدة. وكما قالت تمامًا، أجابت الأم بـ (لا) عن الأسئلة حول الله. لكن ابنها الذي كان ما يزال بنفس الغرفة تدحرج على الأرض ليصبح في مواجهة والدته وسألها: (أمي، لماذا تجيبين بـ (لا)؟ يجب أن يكون الجواب نعم!). ووجد أن حيرة والدته الواضحة مصدرًا للتسلية وبقي يضحك على إجاباتها السخيفة. فكيف لها أن تجيب بشكل خاطئ جدًا على ما كان واضحًا جدًا بالنسبة إليه؟[٢٨]

الجزء الثاني

# النتائج

## الفصل السادس

## دين الفطرة

إن الأبحاث العلمية للنمو العقلي عند الأطفال وارتباطه بالإيمان بالمتجاوز للطبيعة تبيّن اكتساب الأطفال السريع والفطري لعقول تسهل عليهم الإيمان بالعوامل الفاعلة فوق الطبيعية، يميز الأطفال خاصةً في العام الأول بعد ولادتهم بين ما هو من العوامل الفاعلة وما ليس كذلك، ويفهمون أن العوامل الفاعلة قادرة على تحريك ذواتها بطريقة هادفة لتحقيق ما تصبو إليه، ويميل الأطفال لرؤية الفاعلية في كل ما يحيط بهم ولو بمجرد وجود أدنى دليل على ذلك، ويبدي الأطفال منذ عامهم الأول إدراكًا لقدرة العوامل الفاعلة على إحداث الانتظام من الفوضى، خلافًا للقوى الطبيعية والأجسام العادية، ويجد الأطفال قبل دخول المدرسة أن العالم الطبيعي حولهم مصمم لغاية، وذلك بطرق لن يلقنهم إياها الآباء المتدينون أو يعتقدونها.

إن هذا الميل للإيمان بالغائية والوظيفية في كل شيء في هذا الكون، مع فهم أن هذا الانتظام الهادف يأتي من كائنات عاقلة يجعل الأطفال ميالين بديهيًا لرؤية الظواهر الفطرية مخلوقة قصدًا. لكن من هو هذا الخالق؟ يدرك الأطفال أن البشر ليسوا خيارًا مقبولًا كإجابة لهذا السؤال، فلا بد أن الخالق هو الله.

الآلهة ليست فقط بشرًا يتمتعون بقدرة على خلق الجبال والأشجار والفراشات، لكن الافتراضات الأولية والنموذجية عن هذه الكائنات العاقلة تجعل من السهل على الأطفال فهم الآلهة على أنها كائنات تتمتع بمعرفة كلية وإدراك كلي، وقدرة كلية وتتصف بالخلود، وربما تكون مصدر الخير الأخلاقي. ويبدي الأطفال في الواقع ضمن هذه الأبعاد قدرة على تعليل لاهوتي صحيح، قبل أن يكونوا قادرين على تقديم تعليل صحيح بخصوص الذات البشرية ضمن الأبعاد نفسها.

إن مجموع هذه الأفكار الدينية تُجمِل صفات ما أسميه دين الفطرة Natural Religion. وسأصف في هذا الفصل دين الفطرة وكيف يختلف عن العقائد اللاهوتية. رغم أن الأطفال يمتلكون ميلًا فطريًا قويًا نحو التدين عمومًا، إلا أن هذه الميول لا تدفع بهم نحو أي دين محدد، فما زال لديهم الكثير ليتعلموه.

***

## دين الفطرة

يولد الأطفال مؤمنين بما أدعوه دين الفطرة، ويقابل اللغة الفطرية التي تميل أذهان الأطفال إلى فهمها على رأي كثير من علماء اللغة، فاللغات الإنكليزية والهندية والماندرينية والإسبانية والسواحلية واليوكاتيكية وبقية اللغات الأخرى في العالم تؤخذ وتشتق من اللغة الطبيعية هذه. وبالمثل فإن المسيحية والهندوسية والإسلام واليهودية والجانيسية والمورمونية والسيخية وغيرها من الديانات القبائلية والعالمية مشتقة ومأخوذة من هذا الدين الفطري. وتقيد اللغة الفطرية بقوة لغات العالم أكثر من تقييد الدين الفطري لديانات العالم، إلا أن الدين الفطري يبقى حجر علام يساعد على منع ديانات العالم على تجنب الانحراف. لا تزال الدراسات المتعلقة بالدين الفطري في مراحلها الأولى (خصوصًا إذا ما قورنت مع الدراسات المتعلقة باللغة الفطرية الأساسية) ولكن بوسعنا مؤقتًا عرض بعض ملامح هذا الدين.

يدل البحث المتعلق باكتساب الأطفال للأفكار الدينية والمقارنات العابرة للثقافات، على أن الدين الفطري يتضمن الملامح التالية :

وجود كائنات فوق بشرية لها أفكار وإرادات وتصورات وعواطف.

كل عناصر العالم الطبيعي كالصخور والأشجار والجبال والحيوانات قد وُجدت لهدف وصُممت قصدًا من قِبَلِ كائن/ كائنات فوق بشرية، ولها بالتالي قدرات فوق بشرية.

إن الكائنات فوق البشرية تعلم عمومًا أمورًا وأشياء لا تعلمها الكائنات البشرية (قد تكون واسعة العلم أو واسعة الإدراك أو كلا الأمرين) وربما تعلم خاصةً الأمور والأشياء الهامة لعلاقات البشر.

قد تكون الكائنات فوق البشرية خالدة وغير مرئية لكنها لا تقع خارج الزمان والمكان.

للكائنات فوق البشرية شخصية تتصف بأنها إما خيّرة أو سيئة.

للكائنات فوق البشرية إرادة حرة، مثل البشر، ويمكنها أن تتفاعل مع البشر وتتفاعل أحيانًا معهم إما لمكافأتهم أو معاقبتهم.

المبادئ الأخلاقية غير قابلة للتغيير أبدًا حتى من الكائنات فوق البشرية.

قد يستمر البشر بالبقاء بعد موتهم دون جسدهم الأرضي.

يمكن لمفاهيم الدين الفطري لاحقًا أن تخصص أو تضخم أو أن تعارض في ترتيبات ثقافية معينة -ندعوها عادة باللاهوت- بما لا يختلف كثيرًا عن الطريقة التي نتعلم بها خصوصيات لغتنا المحلية. فعلى سبيل المثال في سياق ثقافي مسيحي يمكن لبعض ملامح الدين الفطري أن تتوسع لاهوتيًا كالتالي (سنشير للتوسعات بخط عريض).

توجد كائنات فوق بشرية لها أفكار وإرادات وتصورات وعواطف، هذه الكائنات هي الله القدير، وكائنات أقل مثل الملائكة والشياطين.

كل عناصر العالم الطبيعي كالصخور والأشجار والجبال والحيوانات قد وُجدت لهدف وصُممت قصدًا من قِبَلِ كائن/ كائنات فوق بشرية ولها بالتالي قدرات فوق بشرية. العالم الطبيعي خلقه إله واحد.

إن الكائنات فوق البشرية تعلم عمومًا أمورًا وأشياء لا تعْلمها الكائنات البشرية (قد تكون واسعة العلم أو واسعة الإدراك أو كلا الأمرين) وربما تعلم خاصة الأمور والأشياء الهامة لعلاقات البشر. يعلم الله حتمًا كل شيء يمكن معرفته، ولا شيء يمكن أن يغيب عن شهوده، بينما تكون الكائنات الأخرى كالملائكة والشياطين فوق البشر بالمعرفة ولكن معرفتها محدودة.

قد تكون الكائنات فوق البشرية خالدة وغير مرئية لكنها لا تقع خارج الزمان والمكان. إن الله وبقية الكائنات فوق البشرية تكون نمطيًا غير مرئية لكنها قد تصبح مرئية، والله أبدي ولا نهائي، أما بقية الكائنات فوق البشرية فهي غير فانية من المنظور البيولوجي لكن خلودها مشروط بإرادة الله جعلها كذلك، وهذه الكائنات جميعها موجودة في حيز الزمان.

للكائنات فوق البشرية شخصية تتصف بأنها إما خيّرة أو سيئة، أما الله فهو الخير الكامل والدائم بلا تبديل، وأما غيره من الكائنات فوق البشرية فإما أن تكون خيّرة أو شريرة.

للكائنات فوق البشرية إرادة حرة، مثل البشر، ويمكنها أن تتفاعل مع البشر وتتفاعل أحيانًا معهم إما لمكافأتهم أو معاقبتهم أو الانتقام منهم، وقد يعاقب الله على الأفعال السيئة مباشرة.

المبادئ الأخلاقية غير قابلة للتغيير أبدًا حتى من الكائنات فوق البشرية. إن المبادئ الأخلاقية هي تجلٍ لشخصية إلهية لانهائية، وبالتالي فهي غير قابلة للتبديل.

قد يستمر البشر بالبقاء بعد موتهم دون جسدهم الأرضي. يمكن لله أن يحيي بعض الموتى من البشر بعد موتهم ليستمروا بالعيش في الجنة.

لاحظ مما سبق أن تفاصيل هذا التوسيع الإيضاحي صعبة على الفهم، ومتعبة في العرض مقارنة بالنقاط التي انطلقنا منها من دين الفطرة، رغم أني حاولت تبسيطها قدر الإمكان. كلما تعقدت الأفكار اللاهوتية أكثر، أي انحرفت وابتعدت أكثر عن الإدراك العادي الذي يشكل أساس الدين الفطري، كلما كان الجهد الواجب بذله لتعليم هذه الأفكار والحفاظ عليها أكبر، وهي نقطة سأعود لعرضها وبسطها لاحقًا.

فعندما نأخذ بالاعتبار الصعوبة النسبية في إدراك بعض الدعاوى الدينية اللاهوتية مقارنة بالدين الفطري العام فمن غير المفاجئ أن يغلب الخطأ على الأطفال في فهم المسائل اللاهوتية لأنهم لا يملكون المصادر الفكرية والثقافية التي يعرفها الكبار.

ورغم أن النمو الطبيعي لتوصيلات الدماغ البشري أنتجت نمطيًا أدمغة جاهزة ومستعدة للإيمان بكائنات إلهية حكيمة ذات قصد صممت هذا الكون، فقد تكون هذه الأدمغة مؤمنة بكائنات إلهية معصومة عن الخطأ بالاعتقادات، واسعة البصيرة والقدرة ومتصفة بالأبدية، ولا يملك الأطفال تلك العلوم اللاهوتية المعقدة عميقة التفاصيل التي يملكها الكبار. دعونا نعترف إذن: من الواضح جدًا أن بعض الأفكار المتعلقة بالآلهة صعبة الفهم، فضلًا عن الاعتقاد بها. وقد كان بياجيه مصيبًا في اعتباره أن كثيرًا من هذه الأفكار بعيدة عن استيعاب الأطفال الصغار؛ بل إن بعض الأفكار اللاهوتية يصعب على البالغين أيضًا إدراكها.

فلو أخذنا عقيدة التثليث كمثال، فسنجد كيف تؤكد المسيحية التقليدية على الفكرة القائلة بأن هناك إلهًا واحدًا، وهذا الإله مكون من ثلاثة (أشخاص): الإله الأب، والإله الابن، والإله روح القدس. إن الصياغة الدقيقة لهذه العقيدة وما تعنيه وما لا تعنيه كانت موضوعًا للعديد من المجالس الكنسية والكتابات اللاهوتية التي امتدت لما يزيد عن ألف عام. وأظن أن هذه العقيدة ستبقى ملغزة وصعبة على الفهم ولكنها ليس من النوع الذي يمكن صرف الكثير من الوقت للقلق بشأنه، وذلك لغالبية معتنقي المسيحية في العالم والذين يصل عددهم لمليارى نسمة. وقد خرج الكثير من نقاد المسيحية بخلاصة (أظنها متسرعة قليلًا) أن هذه العقيدة غير قابلة للفهم وبالتالي فهي هراء[1]. ما أود الإشارة إليه ليس صواب أو خطأ المفاهيم اللاهوتية ذات الطبيعة الإدراكية غير الفطرية وغامضة التصور للديانة، وإنما فقط

الإشارة إلى حاجتها اكتسابها إلى مزيد من الوقت والجهد، وبالتالي فهي خارج مجال ميول الإدراك الفطري للتدين عند الأطفال. ويجب توفر عوامل مجتمعية خاصة للانتشار الناجح لهذا النوع من الأفكار.

إن التحيزات والميول الإدراكية الناشئة عن نضج الأنظمة الفطرية هي ما يجعل الأطفال يولدون مؤمنين، وليست الخصوصيات الثقافية. وعلى أي حال فمن التضليل إهمال الإشارة لثغرة مازالت توجد بين أنواع الإيمان بالمتجاوز للطبيعي التي يملكها الأطفال فطريًا وبين أنواع العقائد اللاهوتية التي يروج لها ويوصي بها علماء اللاهوت، قد يولد الأطفال مؤمنين، لكن من المبالغة القول إنهم يولدون متدينين، إن كلًا من الأفكار التي يضعها اللاهوتيون والممارسة الفكرية للعمل اللاهوتي قد تكونان بعيدتين عن الفطرة نسبيًا.

***

## دين أقل فطرية

في المقاطع التالية سأطرح بعض الأفكار اللاهوتية التي أعتبرها غير فطرية تقريبًا، وليست من النوع الذي يميل الأطفال لاعتناقه. ومن ثم سأعرّج على الفرق بين الدين واللاهوت، لأوضح فكرتي أنه رغم ولادة الأطفال مؤمنين بالفطرة إلا أنهم لا يولدون لاهوتيين.

***

## الإفراط في التوحيد

هل تذكرون من المرحلة المدرسية زيوس (كبير آلهة اليونان)، أبولو (إله النور ابن زيوس)، هيرميس، وفينوس (ربة الحب والجمال)؟ أم لعلكم تذكرون أنوبيس (إله العالم السفلي عند المصريين)، راع (إله الشمس)، أوزيريس (إلهُ محاسبة الموتى في العالم السفلي)، إيزيس (ربة الخصب)؟ إن الأزتيك القدامى والبابليين والمصريين واليونان والأنكا والرومان لديهم جميعًا تشكيلة واسعة من الآلهة متعددة المهام والوظائف: من آلهة الشمس وآلهة الخصب وآلهة الموت وهكذا. وبالمثل يوجد في الهندوسية مئات من الأرباب والربات، كما أن لقبائل المايا هيكلًا ضخمًا من الآلهة. بأخذ هذه الأدلة التاريخية عن تعدد الآلهة عبر مختلف الثقافات والحضارات من الصعب الجدال بأن الإيمان بإله واحد أكثر فطرية من الإيمان بعدة آلهة[٢].

عُرفت المسيحية واليهودية والإسلام كأعظم الديانات التوحيدية وتؤكد جميعها على وجود إله واحد، وعلى الرغم من ذلك فإن معتنقي هذه الديانات يؤمنون بالعديد من الكائنات فوق البشرية التي تضم الملائكة والشياطين والقديسين والأرواح. ومن جانب معين يبدو أن الإيمان بكثير من الكائنات فوق البشرية هو النمط الأكثر فطرية لنظام الإيمان، إذ ما من دليل يقول إن الأطفال يولدون موحدين بهذا الشكل الصارم.

فلو جمعنا كل الخبرات الغريبة من جهاز كشف الفاعلية فائق الحساسية - بما فيها حالات حسن الحظ الكبير وسوء الحظ الكبير، وحالة التحري الظاهري لشخص مات مؤخرًا - بالإضافة إلى تعليل النظام والغاية في الكون بنسبتها إلى كائن واحد، قد يتطلب كل ذلك الكثير من التجريد والدقة الفكرية بحيث لا يكون أمرًا عامًا.

***

## مفهوم اللازمان

يُصرّ كثير من رجال الدين المسلمين واليهود والمسيحيين على تعليم أتباعهم بأن الله خارج الزمان أي غير مقيد بالزمن، وهذا يسمح بفهم نصوص دينية مثل رسالة بطرس الثانية الإصحاح الثالث ٣:٨ التي يقول فيها: (ولكن لا يخفى على هذا الشيء الواحد أيها الأحباء إن يومًا واحدًا عند الرب كألف سنة وألف سنة كيوم واحد)، إن وجود الله خارج الزمن يظهر في تفسيرات كيفية معرفة الله لمستقبلنا دون أن يسلبنا حرية الإرادة. ولكن ما الذي يعنيه وجود الله خارج الزمن؟ أجد صعوبة في تخيّل كيف يمكن أن يكون ذلك، أو كيف يمكن الكلام عن كائن يقع خارج الزمن، ولو أخذت العبارة بحرفيتها فستقتضي الغرابة في قولنا (حين أصلي يسمعني الرب) أو أن (الرب كلم إبراهيم في الماضي) وسيفاجئني جدًا إن لم يجد الأطفال أي مشكلة في فهم صفة اللازمان للرب.

***

## مفهوم اللامكان

إن فكرة وجود كائن ليس له حيز مكاني في هذا الفضاء، بحيث لا يمكن القول إنه موجود هنا أو هناك أو في أي مكان أو في كل مكان، تصعقني لأنها فكرة بعيدة عن القبول المباشر من الأطفال، فمع صفة اللازمان توجد صفة اللامكان في كثير من اللاهوتيات. فإذا كان الله كائنًا غير مادي، فمن التضليل القول بأن الله في السماء أو إن الله في كل مكان. لذا أعتقد بأن هذين التعبيرين كليهما أقرب للمجاز إذ يصعب بشدة على الأطفال أو البالغين التعامل مع كائن لا مكان له.

***

## المعرفة اللامحدودة

إن قدرة رؤية ماذا يحتوي صندوق مظلم أو عبر الحواجز أو سماع شيء من الطرف الآخر للكون، تبدو خواصًا لاهوتية قابلة للتصديق والفهم عند الأطفال، لكن الأمر يختلف مع القدرة على معرفة ما يوجد في كل صندوق مظلم في كل مكان، وسماع كل صوت يصدر من كل زاوية في هذا الكون. وأشير هنا إلى الفارق بين القدرة على الرؤية والمشاهدة الفعلية، أو القدرة على السمع والاستماع الواعي. فمن التعابير الأكثر شيوعًا لصفة الإحاطة والمعرفة اللامحدودة أن الرب يراك، ويرى كل أحد آخر على الدوام، وأن الله يستمع لصلوات الجميع حول العالم في ذات الوقت[٣].

ليس لدينا أدنى سبب للاعتقاد بأن الأطفال أو الكبار يجدون خاصية المعرفة اللامحدودة للرب غير بديهية أو أقل فطرية من غيرها. فقد نكون قاصرين عن تخيل وإدراك هذه القدرة الإلهية بسبب محدودية حواسنا وقدراتنا، وعجزنا عن تخيل كيف يمكن للرب أن يسمع في وقت واحد أفكار جميع البشر، ويشاهد كل نشاطاتهم، مما يجعل فكرة وجود أي كائن يملك هذه الصفة صعبة على الفهم المباشر. أظن أننا حين نواجَهُ بفكرة وجود كائن له قدرة على الإحاطة بكل شيء علمًا فإنا نميل إلى إعادة صياغة هذه الصفة لتكون ببساطة معرفة كل شيء. هل بوسع الرب أن يحيط بكل شيء علمًا في نفس الوقت؟ وما الذي يعنيه هذا؟ إن هذا يعني أن الله يعلم كل شيء، إن معرفة الله لكل شيء أو اطلاعه على كل أمر قد ترغب بذكره، لا يبدو صعب الفهم.

***

## فهم صفة الرحمة - سهلٌ على الأطفال وعسيرٌ على الكبار

الرحمة هي أحد المفاهيم اللاهوتية التي أتعبني تحديد درجة فطريتها التي قد تمكن الأطفال من استيعابها، يمكن تعريف الرحمة أحيانًا بأنها فضل غير مستحق من الله على عبده، كعفو الله عن جرم نستحق العقوبة عليه. يشير مفهوم الرحمة في اللاهوت المسيحي إلى أن النجاة الأخروية لا تُكتسب ولا تُستحق ولكنها هبة مجانية من الرب إلى أولئك الذين يتلقونها. هل تذكر هدية عيد الميلاد التي تلقيتها من جدتك في صغرك، ألا تذكر أنك لم تقم بما يوجب اكتسابها، وليس هناك ثمة

استثناء أو مقايضة، ولتحصل على تلك الهدية فما عليك سوى أن تقول لجدتك «شكرًا» وتفتحها. يشبه الكثير من المسيحيين رحمة الله بهذه الهدية، كل ما عليك أن تستقبلها وتبدي الامتنان، وتلك هي الاستجابة المعقولة الوحيدة[٤].

لقد استخدمت مثال هدية الجدة في عيد الميلاد للأطفال لأُصور الفروق الواضحة بين ردة فعل الصغار وردة فعل الكبار تجاه فكرة الرحمة، ذكرت في جلسات لتبادل الأسئلة والأجوبة بعد إلقاء المحاضرات وإجراء اللقاءات، أن عقيدة الرحمة التي يتم تلقينها في المسيحية ليست فطرية تمامًا، فاندفع الكبار على الأقل عبر العصور لإضافة شروط لنيل منحة الخلاص: كأن تكون حسن السلوك، وأن تواظب على الذهاب إلى الكنيسة، وأن ترتدي البناطيل إذا كنت ذكرًا والفساتين إن كنت امرأة (بدلاً من الملابس التقليدية الخاصة بكل عرق أو إثنية)، وأن تقرأ الكتاب المقدس بانتظام، وتصلي يوميًا، وهكذا. فيضيف الكثير من الوعّاظ هذه الطقوس إلى مفهوم الرحمة في خطبهم وعظاتهم المعتادة المتعلقة بهذه الأمور شهرًا بعد شهر وعامًا بعد عام، مما يشهد بأنَّ الفكرة لم تصل للناس بعد. يميل الناس بعمق إلى التمسك بفكرة المقابلة بالمثل، فحين تمنحني شيئًا سأكون مرغمًا على أن أمنحك شيئًا بالمقابل يماثله بالقيمة، وما لم أقم بهذه المبادلة فسأكون مدينًا لك، ولا شك أن الشعور بالمديونية لأحدٍ ما ليس بالأمر المريح، لذلك يميل الناس لتصفية حساباتهم. أما الأسوأ فهو عندما يتلقى أحد الرحمة بدلًا من العدل، يصف عالم الدين دونالد ماكولا Donald McCullough الوضع كالتالي:

الرحمة تقوم بفعلها الخاص، ولكن ماذا عن الرحمة ذاتها؟ ماذا عن الرحمة كفكرة؟ الرحمة كفعل؟ الرحمة كقوة؟ لعلنا لا نحبها... ربما نفضل لقاءً مقتضبًا معها، كأن نكون متأخرين في دفع أقساط التأمين الصحي ويخبرنا موظف شركة التأمين بألا نقلق لأن هناك (فترة سماح أو رحمة) للمتأخرين، سنكون شاكرين لهذه التنفيسات الثانوية من الرحمة، لكن لو حصل الشيء الحقيقي كأن شملتنا رحمة كلية غصبًا عنا دون خيار منا فستكون مشاعرنا تجاه الرحمة متناقضة بعض الشيء. حين تسحبنا يد الرحمة القوية فورًا رغمًا عنا وتضعنا في مكان جديد آخر لم نكن لنكتسبه أو نستحق الوصول إليه فقد نميل على الأغلب للاعتراض على ذلك، ربما لو كان لدينا وقت كافٍ لجئنا بأنفسنا إلى هذا المكان، نشكرك كثيرًا، ولا حاجة إلى المعاملة القاسية. ماذا لو حصل معنا ما هو أشد؟ كيف ستكون ردة فعلنا تجاه رحمة تحل على شخص آخر نعلم أنه لا يستحقها، ولا يسرنا حصوله عليها؟ لعلنا لن نكون مستعدين لسماع أي كلمة عن الرحمة، فضلًا عن رؤيتها تؤدي عملها، إذ أنها ستبدو في مثل هذه الحالات كما لو كانت إخفاقًا للعدالة[٥].

درس عالما النفس ليدا كوزميدس Leda Cosmides وجون توبي John Tooby حالة الأشخاص الحساسين تجاه قواعد التبادلات الاجتماعية وجادلا بأن هذه الحساسية قدرة إدراكية قد تطورت[٦]. فحتى الشعور بالامتنان قد يكون صعبًا علينا، لو قدم أحدهم لنا معروفًا عظيمًا فقد نشعر بالإحراج أو الذنب أو المديونية عوضًا عن الشعور بالامتنان[٧]. لذا لا يهم عدد المرات التي سيردد فيها الوعّاظ

قولهم بأن (الله لا يريد منا شيئًا) أو أن (الثمن الذي دفعه المسيح أكبر من أي شيء يمكن أن يقدمه أي بشر) أو ما شابه ذلك، لأننا لا نستطيع التخلص من ذلك الشعور الملح بأن الله لا بد أنه يريد منا شيئًا ما بالمقابل لقاء خلاصنا، لذا فقد قادني هذا النوع من الاعتبارات للاعتقاد بأن الرحمة أحيانًا تكون مخالفةً لبداهة تفكير البشر[8].

قد لا يكون عند الأطفال المشاكل ذاتها عند الكبار بخصوص الرحمة والامتنان، فبخلاف الكبار الذين قد يحملون شعورًا عميقًا بالواجب ورد الجميل، فإن الأطفال ربما لا يحملون تلك المشاعر، لأنَّ الأطفال وصغار السن منهم خاصة، لا يملكون الموارد ولا القدرة على رد الجميل للآخرين بأسلوب (حك لي لأحك لك)، فلا يشعرون بالإحراج من الآخرين إن تلقوا منهم هدايا أو أي فعل لطيف، لأن الكبرياء لا تحجزهم عن قبول الهدية والإحسان. فلو أن الجدة منحت طفلًا هدية كانت رحلة إلى عالم ديزني لاند فإن هذا الطفل لن يشعر بعدم الراحة أو يفكر بكيفية الرد المناسب لتلك الهدية من جدته، ولكن في غمرة هذا الحماس والانفعال قد يكون بحاجة فقط لمن يذكره بأن يشكر الجدة على هديتها، وليس ذلك لأنه غير شاكر أو ممتن جدًا. (أما حين تمنحه العمة مابل زوجًا من جوارب الأرغيل سعره خمس دولارات، فلن يكون عندئذٍ ممتنًا ولكن يحتاج من يذكره بالتزام التهذيب على كل الأحوال). ولو أن الأطفال لديهم ذلك الأسلوب لقبول عطايا الآخرين السخية مما لم يكتسبوه أو يستحقوه تمامًا، فسيسيطر عليهم القلق والحيرة، وبمجرد

أن يبلغ أحدهم مرحلة المراهقة ويحصل على أول مبلغ مالي سيسارع بتسليمه لوالديه مع وعود نادمة بالوفاء بالديون التي لا يمكن حسابها بأسرع وقت ممكن.

إن هذه الملاحظات رغم أنها تخمينات بطبعها، تدفعني للتفكير فيما إن كان الأطفال أكثر استعدادًا لقبول رحمة الله أيضًا دون حاجة للشعور باستحقاق الخلاص أو وضع أي اشتراطات أو قيود. هل يكون هذا القبول السهل للرحمة هو المقصود بقول المسيح عيسى: (دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ، لأَنَّ لِمِثْلِ هؤُلاَءِ مَلَكُوتَ الله[٩]) ؟

***

## المذهب الروحاني

كان كل ما ورد سابقًا أفكارًا لاهوتية انحرفت عن الدين الفطري، وربما نربط الروحانية بالديانات تقليدية ونفترض أنها جزء من الدين الفطري، في الواقع إنَّ المذهب الروحاني يشكل أيضًا إسهابًا لاهوتيًا أو فكريًا للدين الفطري، إذ يعتقد بعض التقليديين وأتباع أنظمة الاعتقاد الجديد أنَّ الصخور والجبال والينابيع لها أرواح أو قوى حية أو أن الجمادات تملك وعيًا، ويُعتقد بأن هذه الأفكار الروحانية كانت من أوائل المعتقدات الدينية، وذلك يرجع جزئيًا إلى الفكرة الخاطئة الشائعة بأن الأطفال يعجزون بداية عن التمييز بين الأشياء الحية والجمادات، فيعاملون الكائنات اللاواعية كما لو أنها عوامل فاعلة واعية ذات قصد. والتفكير بهذه الطريقة يبدو أنه يعتمد على ضرورة تعلم الأطفال الفرق بين الشيء الحي والجماد

وبالتالي نستنتج أن البشر البدائيين كانوا كذلك. وبعيدًا عن هذا الافتراض الخطير بأن البشر الأوائل كانوا مثل الأطفال المعاصرين، فإن الدليل على أن الأطفال روحانيون بالفطرة متداعٍ في أفضل أحواله.

لقد ذكرت سابقًا في الفصل الثالث من هذا الكتاب أن ابنتي في عامها الثاني اعتادت أن تلتقط ديدان أرض كبيرة من الحديقة وتحملها معها وتبدأ بالتكلم معها ومناغاتها كما لو كانوا أطفالًا، وكانت تفعل الشيء ذاته مع منفضة غبار مصنوعة من الريش، بل وجدناها تضع علب الخضار الفارغة في عربة ألعابها وتعامل العلب كما لو كانت أطفالًا. إن مثل هذه السلوكيات يعتبرها البعض أدلة على أن الأطفال الصغار لا يدركون الفارق بين البشر وديدان الأرض، أو بين الأشياء الحية وغير الحية. لكن هل هذه أدلة جيدة؟ إن هذه الطفلة ذاتها التي كانت تعامل منفضة الغبار كطفل كانت أيضًا تستخدم منفضة الغبار المصنوعة من الريش في تنظيف غرفتها، وكانت تعرف ضرورة إرجاع ديدان الأرض إلى الحديقة كي لا تموت، لكنها لم تكن لتحاول أبدًا استخدام ديدان الأرض أو علب الخضار في تنظيف غرفتها، ولا حاولت دفن علب الخضار في الأرض كيلا تموت، إن الأطفال بعمر عامين ليسوا حمقى، فعندما يتظاهرون بمعاملة ألعابهم ومنافض الغبار ذات الريش كأشياء حية أو واعية، فإنهم يدركون تمامًا أنها ليست كذلك.

تبين الكثير من الأدلة التجريبية أنَّ الأطفال في سن قبل دخول المدرسة يميّزون تمامًا بين الأشياء الحية وغير الحية. فعلى سبيل المثال في غضون السنتين الأوليين أو السنوات الثلاث من أعمارهم يدرك الأطفال أن أشياءَ مثل النباتات والكرات

يجب أن تلمس كي تتحرك، أما الكائنات الحية كالبشر فيمكن التعامل معهم عن بعد[١٠]. ومع بلوغهم سن الخامسة يكون لدى الأطفال طيف عريض من التوقعات الحيوية تجاه الأشياء الحية، التي لا تنطبق على الصخور والكرات والأشياء غير الحية الأخرى. فعلى سبيل المثال يُعتقد بأن الأشياء الحية تملك قوة حياة داخلية تجعها تنمو وتتحرك، وبأن لها أجزاء حية بداخلها في حين تحوي الآلات بداخلها أجزاءَ اصطناعية. وأن الأشياء الحية لا يمكن أن تتحول من نوع إلى آخر بإضافة تعديلات خارجية (فلا يمكن تحويل حيوان الظربان إلى راكون)، بينما يمكن تحويل الأدوات وكل ما يصنعه الإنسان من شيء إلى شيء آخر. تملك الحيوانات صغارًا لها وتتحرك وتأكل لتبقى على قيد الحياة على عكس الحجارة والعصي، كذلك للأشياء الحية أجزاء وظيفية تخدمها هي، أما الأشياء المصنوعة فلها أجزاء تخدم البشر الذين صنعوها[١١]. والواقع يوجد سببًا للاعتقاد بأنَّ الأطفال يقللون بداية من نسبة وجود الحياة إلى الكائنات (مثل المزروعات والفطور والكائنات البدائية غير المتحركة) فهم لا يميزون أنَّ الإشنيات والفطور والطحالب والأشجار كائنات حية، وفي الوقت ذاته يميّزون أيضًا أنَّ الكلاب والعصافير والحلزونات كائناتٌ حية[١٢]. ولذلك فإنَّ الدليل العلمي لا يدعم الفرض القائل بأنَّ الأطفال وبالتالي الناس البدائيين يعتبرون أنَّ كل الأشياء ومنها الجمادات ذات روح أو وعي. لذا فما من سبب للاعتقاد بأن الأطفال منحازون حدسًا إلى روحانية على النمط الذي نراه في التقاليد الدينية.

إن بعض مظاهر الروحانية كما هو مشاهد في بعض النظم العقائدية عند الكبار ليس بعيدًا عن الفطرية بالمطلق، فأحد المكونات المفتاحية لبيولوجيا الفطرة الشعبية (الفكرة القائلة بأن كل ما هو حي يملك قوة حياة محركة أو قوة حيوية) يمكن أن توفر المادة الأولية التي لم تعتمد التفكر الديني، وبنيت منها الاعتقادات الثقافية التأملية، مثل الأرواح الحية، وقوى الحياة، وقوة الحياة العامة في الكون qi الصينية، وغيرها من المعتقدات عن الطاقات الكامنة غير المرئية (الأرواح) التي تحرك البشر (وأحيانًا أشياء أخرى). تشترك اليهودية والمسيحية بفكرة أن روح الله أو نفسه يكون قوة محركة أو منشطة تحول المادة الجامدة إلى أشياء حية، أو تجعل البشر والحيوانات أكثر أو أقل طاقة وحيوية. ربما تجد كل هذه الأفكار عن الأرواح كقوى محركة قبولها البديهي في فكر الإدراك الفطري المتعلق بالفكر البيولوجي. وما هو غير فطري ومخالف للبديهة قليلًا من الروحانية هو الافتراض القائل بأنه حتى الحجارة والأشجار مسكونة بالأرواح كالبشر والحيوانات.

* * *

## ما ولد ليؤمن بتقليد لاهوتي معين

حاولت خلال هذا الكتاب أن أثبت قضية فحواها أنَّ الأدلة العلمية التي حصلنا عليها مؤخرًا تقول بأن الأطفال ينمو لديهم قابلية فطرية لتلقي العديد من المعتقدات الدينية الأساسية، وعلى وجه الخصوص تلك المعتقدات المتعلقة بوجود كائنات فوق بشرية. ومع مساعدة بعض التحفيز المجتمعي فسيؤمنون بفاعلية فوق بشرية. لكن هذه القابلية لتلقي الأفكار الدينية محدودة، لأن كثيرًا من الأفكار اللاهوتية التي يضعها رجال الدين ويؤكدها كثيرٌ من المؤمنين جزءٌ من عقائد تاريخية ليست من النوع التي يميل الأطفال لاكتسابها. (بل إنَّ بعض هذه المعتقدات مثل اللازمانية واللامكانية وما شابهها) يصعب تصور مفاهيمها من قِبَلِ الأطفال؛ بل ومن الكبار أيضًا. وتحتاج إلى دعم ثقافي خاص لتنتشر بقوة. وبهذا الخصوص تشترك بعض الأفكار اللاهوتية بالكثير من الجوانب مع أفكار أخرى تنشأ بالتفكر ضمن ظروف ثقافية خاصة كالتي نراها في العلم المعاصر.

إحدى نتائج هذا القيد على أطروحة ولادة الأطفال مؤمنين، هي أنَّ الأطفال (لا يولدون مؤمنين) بديانة أو تقليد لاهوتي محدد. وأذكر بعد إلقائي لمحاضرة عامة تناقش أطروحة ولادة الأطفال مؤمنين، أني تلقيت العديد من الرسائل الالكترونية ووجدت تدوينات لمسلمين يدّعون فيها أن أطروحة ولادة الأطفال مؤمنين مماثلة لتعاليم أصولية في الإسلام وإليكم إحدى تلك الملاحظات كمثال:

مرحبا، لقد قرأت مقالة الدكتور باريت عن الإيمان بالله، وأنا كمسلم يؤمن بالله، أعلم الكثير عما شرحه الدكتور باريت بأن كل إنسان يولد بالفطرة مؤمنًا بالله. لقد أخبرنا نبينا محمد هذا الأمر قبل ١٤٠٠ عام عندما قال بأن كل رضيع يولد مؤمنًا بالله على الفطرة، بينما يجعله والداه يغير ذلك.

إنني أقدر هذا التأكيد، لكن ما وصلنا إليه من الدليل حتى الآن يدعم فطرية الإيمان برب خالق قدير، ولا يؤكد بأن الأطفال يولدون مؤمنين بدين مسلمين سنة، أو يهود أو مسيحيين - أو أي دين آخر من هذا القبيل، بل قد ينحازون بالعموم لإحدى الديانات دون غيرها - ولعل هذا أحد أسباب الانتشار الواسع لبعض الديانات دون غيرها - لكنني لا أعلم أي تقاليد دينية معينة تنطبق عليها تمامًا الأفكار الفطرية التي يميل الأطفال للإيمان بها.

يوجد عند بعض الناس رؤية رومانسية بأنَّ الأطفال غير مشوشين، وبالتالي سيكونون على صلة بحقائق الحياة مباشرة، فيحاول هؤلاء بناء أفكار لاهوتية معتمدين على الميول الدينية الفطرية عند الأطفال، أما هؤلاء الذين يعتبرون الأطفال حمقى أساسًا فربما يجدون أنَّ قابلية الأطفال الفطرية لقبول عقائد دينية محددة يمثل أساسًا لرفض تلك العقائد. وأعتبر من طرفي أن كلا الاتجاهين خاطئ ومضلل، وهو ما سأعرضه في الفصل القادم.

***

## الدين ليس لاهوتا

إن علم الإدراك الديني الذي أشارك فيه يميز نمطيًا بين الفكر الدين والفكر اللاهوتي، فثمة فرق بين ما يميل الناس إلى الإيمان به يوميًا بطريقة تلقائيًا، وبين ما يؤمنون به حين يعتزلون للتفكر والحساب المنهجي الخاص بما يؤمنون به وما لا يؤمنون به. فبعض الأفكار مثل الحالة الخاصة التي يمكن أن يكون فيها كريشنا Krishna هو فيشنو Vishnu ولكن ليس مماثلًا له تمامًا، أو أن يكون الرب المسيحي مكونًا من ثلاثة أشخاص في نفس الوقت، أو كيف يعمل مبدأ كارما Karma على وجه التحديد، أو ما الذي يحدث تحديدًا للمورمون بعد الوفاة، هي أنماط للقضايا التي يفكر بها اللاهوتيون بعمق، ويتجادلون حولها متأملين وضع الأمور في نصابها. لقد بذل اللاهوتيون من الوقت والجهد، وما زالوا يبذلون الكثير، محاولين الملائمة والتوفيق العقليين بين الافتراضات المختلفة المتعلقة بالإله (أو بالآلهة) والأمور ذات الصلة، فيعتمدون على الفلسفة والعلوم والدراسات النصية وعلم اللسانيات والاعتبارات التاريخية للوصول إلى نتائجهم، ومثل هذه الأنشطة الفكرية والمنطقية لا يتصف بها عادة البالغون المتدينون المخلصون، فضلًا عن الأطفال، فالحالة الغالبة على الأفراد المؤمنين أنهم لا ينخرطون في مثل هذه الممارسات اللاهوتية التأملية، ولكنهم راضون بالعيش متدينين، فخلاصة القول أن تكون متدينًا لا يعني بالضرورة أن تكون لاهوتيًا، والعكس صحيح فليس جميع اللاهوتيين متدينين.

وعلى نحو مماثل لما لخصناه للاختلاف بين الأفكار العامة والأفكار الرسمية، يبدو أن الاعتقادات التفكرية تظهر في مجالات مختلفة، فعلى سبيل المثال يملك الأطفال بعمر أربع السنوات شعورًا سليمًا بالقواعد الأساسية للغتهم الأم، فلو كانوا متحدثين بالإنكليزية فسيدركون أن جملة مثل (the dog like to eat cucumbers) (يحب الكلب أكل الخيار) صحيحة قواعديًا، وإن كانت غريبة المعنى، أما جملة مثل (the likes to cucumber eat dog) (يحب للخيار أكل الكلب) عبارة لا معنى لها. لكن هذه القدرة اللغوية عند عامة الناس تتميز عن أنواع المعرفة التفكرية للغة التي يكتسبها البالغون لاحقًا عند تعلمهم اللغة. ربما كان بوسع عالم اللغة إخبارنا بدقة أكثر عن العلاقة بين أجزاء الكلام في الإنجليزية، ولماذا تكون جملة مثل (الكلب يحب أكل الخيار) أفضل صياغة من (الكلب، خيار، يأكل) (كما لو أن الكلام ليودا Yoda من فلم حرب النجوم)، ويخبرنا عن معارف نوعية متنوعة أخرى، لن تلزمنا في الاستخدام الناجح للغة الإنكليزية عند الحديث على الهاتف أو لطلب طعام في مطعم، أو تبادل الشائعات عند الوقوف أمام مبردة الماء. إذن فيما يتعلق باللغة يمكننا التمييز بين معرفة عامة الناس ومعرفة علماء اللغة.

وبما أن علماء نفس النمو يوازون بين طرائق تعلم الأطفال عن العالم الطبيعي وطرائق العلماء، يجب إدراك الفارق الكبير بين فهم العوام للعالم الطبيعي وفهم العلماء. فتختلف العلوم العامة وعلوم اللغة واللاهوت من جهة، مع معرفة

العوام واللغة والدين في الجهة الأخرى، وذلك بدرجات التفكر الواعي والجهد والشيوع، تضم المجموعة الأولى أمثلة من الفكر العالي نسبيًا التي لا يشارك فيها كل الناس أو يهتمون بها. لأنها من النوع الذي يحتاج وقتًا وجهدًا - فليست من النوع الذي نحصل عليه فطريًا - ولم تتطور في سياق جميع الثقافات فضلًا عن الأفراد، لذلك ندعها لأصحابها من المختصين. إن هذه الملاحظات تقتضي أنه بوسعك أن يكون لديك معرفة بالعالم الطبيعي، اللغة، والدين، دون أن يكون لديك الكثير من المعرفة أو أي معرفة قد تُدعى علومًا عامة أو علوم لغة أو علم اللاهوت[١٣].

***

## من دين الفطرة إلى التنوع اللاهوتي

إن صورة النمو الديني التي ظهرت عبر البحث المعُروضِ هنا (ومن عدة دراسات أخرى) تقول إن الأطفال ينجذبون فطريًا إلى أفكار دينية أساسية وإلى ما يتصل بها من ممارسة (الدين الفطري) ومن ثم يكتسي هذا الهيكل باللحم بفعل تعليم التقاليد الدينية واللاهوتية من قبل الوالدين والمجتمع المحيط بالطفل، فالإسهاب المجتمعي الثقافي هو الذي يعطي هذا التنوع اللاهوتي المحيّر والمربك الذي نجده عندما نستقصي النظم العقائدية في العالم.

فالأفكار عن الآلهة حول العالم متنوعة لدرجة محيرة، فبعض الآلهة له شكل الحيوان، ومنها على شكل بشري، ومنها من ليس له هيئة مطلقًا. منها إله عليم، ومنها ما يعلم الأمور بمقدار ما يعرفه البشر أو يعرف الأشياء نفسها التي يعرفونها،

ومنها ما هو أخلاقي، ومنها ما هو شرير. ومن الآلهة من لديه قدرات كلية ومنها من يملك القليل من القدرة، ويوصف بعضها أنه لا يمكن معرفته، وأنه الغير الذي لا يمكن وصفه.

ففي دولة بابوا غينيا الجديدة نجد عند قبيلة مالي بينينغ Mali Baining أرواح الغابة أو ما يدعوها سيغا segaوهي كائنات شبيهة بالبشر على نحو مدهش، وقد لاحظ عالم الأحفورات هارفي وايتهاوس Harvey Whitehouse أن السيغا مخلوقات شبيهة بالبشر بالشكل لدرجة يصعب تمييزها عنهم، إذ يقول: (يعتقد أن السيغا تبدو كالبشر، رغم أن قلة من الناس تمكنوا من رؤيتها إلا في الأحلام. ويعجز الناس عن التفسير المباشر لكيفية تعرفهم على أن ما شاهدوه هو كائن فوق بشري، وليس مجرد غريب فانٍ)[١٤]. بكل الأحوال فإن السيغا غير مرئية للبشر ووجودها يعرف من خلال حسن الحظ أو سوء الحظ.

والسيغا لا يزعجها أي تجاوزات أخلاقية جارحة البشر، وتعاقب فقط على التدخل غير المرغوب في شؤونها، وتكمن المشكلة أنه على عكس المخاطر التي يمكن رؤيتها في الغابة (كأفعى الفايتون، ونبات القريص والأجسام الحادة)، فإن السيغا يصعب تمييزها وتجنبها، ولا يمكن معرفة أنك أزعجتها أو أغضبتها إلا لاحقًا حين يحل بك النحس[١٥].

على النقيض من إنسانية سيغا البايننغ، نجد أن الديانات التوحيدية العظمى تقدم رؤى معقدة جدًا ومجردة عن الله، تؤكد بشدة كم أن الرب مختلف تمامًا عن

البشر وكم أن فهمنا للرب قاصر وغير ملائم، فعلى سبيل المثال كتب عالم اللاهوت المسلم محمد ضياء الله:

الله قديم أزلي وموجود في كل مكان، أما الإنسان فيموت ويحده المكان، وليس بوسعه إدراك الرب كما يدرك بقية الأشياء... لأن الله بلا حدود، بلا أبعاد، فكيف يمكن لذات أزلية غير محدودة أن تدرك في عقل ذات محدودة كالبشر؟[١٦]

وعلى ذات النحو من المقارنة يشرح عالم اللاهوت المسيحي غوردون سبايكمان وجه النظر الإنجيلية عن الله:

في هذه الرؤية فإن الله والعالم حقيقتان مستقلتان تمامًا، والفارق بينهما ليس كميًا فقط بل كيفيًا أيضًا، فالرب ليس أكثر مما نحن عليه فقط. هناك فجوة أساسية، وليس مجرد مقدار من الاختلاف، وليس تميزًا تدرجيًا نحو الأقل أو الأكثر وكأن الرب له ميزة السبق فقط. إن الله هو المهيمن (الآخر) وليس ببساطة (فرد آخر)[١٧].

ولأجل هذه المفاهيم عن الرب، فغاية ما يصله استكشافنا الفكري الرصين والأكثر حرصًا وتكريسًا أن يتمكن من خدش السطح فقط عن حقيقة الرب.

يحدث أحيانًا في نظام اعتقادي ما أن يأخذ الرب أشكالًا مختلفة تتراوح من الشكل البشري إلى الشكل المجرد؛ إن عالمة الأحافير إيما كوهين Emma Cohen خلال وصفها للمعتقدات الروحانية البرازيلية إفريقية الأصل التي درستها في شمال البرازيل، سنرى تفاوتًا كبيرًا في تصور الأوريكاس orixas (وهي أرواح أو آلهة)،

مقابل عيش أرواح الأسلاف الماضين في عالم روحي فسيح مطابق لعالمنا فإن كثيرًا من الأوريكاس ترى وتتصرف كما لو كانت بشرية. (إن الآلهة التي تبدو في هذه القصص تبدو كأنها بشرية فسلوكها الاجتماعي في التعامل مع بعضها وتصرفاتها مبنية على رغباتها ونزواتها. فالغيرة والثأر والنسل السيئ والخداع والتآمر يلون حياة هذه الشخصيات في أوبرا الحساء السماوية)[١٨]. أحد الذين زودوا كوهين بالمعلومات شاهد الأوريكاس وقال بأنَّ بعضها يشبه البشر بالشكل والتصرفات وبعضها الآخر أكثر تجريدًا:

لقد رأيت الأوريكاس بشرًا بالغي السواد... بعضها قوي وأمور أخرى، بعض الأجساد كانت مثالية وبعضها الآخر لم يكن كذلك... لقد اكتشفت أن الأوريكاس قوى طبيعية توجد معنا أيضًا طوال الوقت، واكتشفت أن بعض الأوريكاس شاركت في خلق العالم، ولأنهم قاموا بأعمال بطولية نالوا امتياز أن يصحبوا أوريكاس – ملوكًا وملكات وبناة للمدن. فالأوريكاس حقًا هم كل شيء يمكن أن نراه أو نشعر به... لقد اكتشف أن لهم مزايا وعيوبًا –فبعضهم يشبه البشر جدًا من حيث أن كلاهما يخطئ ويصيب.[١٩]

إذاً هل هي ذوات بشرية أو قوى طبيعية؟ هل هو (الآخر)؟ هل بوسع البالغين الإيمان فعلًا بأي نوع من الآلهة التي يحلمون بها؟

ربما، فحدهم هو السماء، بل ربما ما هو أبعد من السماء.

***

## ما الذي يؤمن به البالغون حين لا يراقبون أنفسهم؟

ثمة سبب يدعونا للاهتمام بالدين زمن الطفولة لأننا مهتمون بالأطفال وبما هم عليه من فطرة، وتدقيقنا بالسنوات الأولى من حياتهم تمنحنا أيضًا فرصة للتبصر بحال البالغين من خلال معرفتنا بما كانوا عليه في زمن طفولتهم. فهذا الدين الفطري النامي ليس شيئًا نستبدله ببساطة بعلوم لاهوت البالغين، وإنما يستمر بالتأثير على كيفية تفكيرنا وتصرفاتنا الدينية خلال حياتنا. والبالغون ليسوا بمعزل عن تأثيرات الإدراك الفطري الناضج كما يظهر في الدين الفطري.

لعلنا لا نستطيع الحد من المخيلة البشرية الدينية بسهولة لأي شخص في أي لحظة، وعمومًا فالكبار ليسوا متحررين، رغم أنه قد نجد من يؤمن بأن الله لا يدرك كنهه، ومُتعذّر وصفه، ومتعالٍ على كل شيء، ويوجد حقًا خارج الزمن، ويوجد في ما لا نهاية له من أبعاد الحقيقة، إلا أن هذه الأفكار تؤلم رأسي، فلست قادرًا على فهم معانيها ولا أستطيع بالتالي استخدامها (على الأقل من الناحية العملية) حتى لو أردت ذلك، ربما كان ذهني سميكًا على غير العادة، لكنني أشعر أنني لست الوحيد الذي يملك حدودًا أصلية حول ما يمكنني فهمه والإيمان به، ولحسن الحظ فلديَّ أدلة تجريبية تدعم إحساسي هذا.

قمت أنا ومعاونيّ بإجراء عدد من الاختبارات قارنا فيها بين ما يقوله الكبار عن عقيدتهم بالله، وبين ما يظنونه في موقف ما، عفوَ الخاطر، عن الله دون تفكر

عميق[٢٠]، إن ما دعانا لإجراء هذه الدراسات هو إحساسنا بأنَّ المؤمنين البالغين حتى المتعمقين لاهوتيًا منهم، لا يستخدمون لاهوتيًا هذه المبادئ اللاهوتية المعقدة طوال الوقت؛ لو أمضيت بعض الوقت مع من يؤمن بالله – إله لا يقيده مكان، ومنزه عن التشابه مع البشر، وخارج الزمن– وستسمع منهم عباراتٍ مثل (شعرت وأنا أجتاز تلك المحنة بأن الله كان رفيقي فيها) أو (أشعر أحيانًا وأنا أصلي بيد الله تحنو علي) هذا النوع من العبارات يطرح مفهوم لله أكثر مشابهة لبشر، وأقل تجريدًا مما يصفه علماء الدين ويؤكده المتدينون، وربما تكون تلك الصلات مجازية تتضمن استعارات لفظية لتوضيح الشعور أو الصورة التي يعيشها القائل، وليست مؤشرًا صحيحًا عن اعتقاد الناس بالله، لأنه من الخطأ تحديد تفكير الناس في الله خلال أحوالهم الاعتيادية لحظيًا بناء على أساليبهم اللغوية فقط. ولذلك أجريت مع معاونيّ مزيدًا من الاختبارات محاولين استجلاء هذه المسألة.

تعطي دراسة القصص المحكية فرصة رائعة للكشف عما يضيفه القارئ أو المستمع بنفسه، وهي طريقة غير مباشرة لمعرفة أفكارهم وبديهياتهم، والسبب في الفعالية الجيدة لاستخدام القصص في الاختبار أنها تكون دومًا غير مكتملة، فهي تحوي ثغرات لا نلاحظها غالبًا. ولا يستطيع أي راوٍ للقصة الإحاطة بها، فلو قلت: (كان يا ما كان، في أحد الأزمان فتاة تدعى سندريلا عاشت مع زوجة أبيها الشريرة وابنتيها) ستدرك سريعًا (ودون شعور منك) كل التفاصيل غير المذكورة عن الفتيات والشر وزوجة الأب القاسية وبناتها وهكذا، وما لم يتمكن

البشر من الإدراك اللاشعوري بهذه التفاصيل فلن تقوم للقصة قائمة، ولكان على راوي القصة أن يروي قصته على النحو التالي: (مرة كان هناك فتاة، آه فتاة أي أنثى من جنس البشر لم تصل لحد النضوج الجسدي والجنسي، تتميز بحجم أصغر من الشكل الناضج لكل من الذكر والأنثى عند البشر البالغين...) وستدرك ما أعنيه لو أنك رويت مرة قصة لا تناسب سن الأطفال على طفل كثير الأسئلة، فلا بد من وجود الكثير من المعلومات المسبقة عن الخلفية لفهم أي قصة.

وقد وجد علماء النفس الإدراكي -الذين يدرسون الذاكرة والتفكير- أن البالغين يتمكنون بسهولة وتلقائية من ملء الثغرات في القصص إلى درجة أنهم يخطئون في تذكر تفاصيل القصة الأصلية بحيث تصبح في أذهانهم أكثر اكتمالًا من واقعها في بعض الوجوه، ولهذا نستخدم معرفتنا الحالية لإضافة مزيد من التفصيل أو تشويه ما يعرض علينا.

قدم فردريك بارتليت Frederic Bartlett أشهر بحث في علم النفس بيّن فيه أنواع أخطاء إقحام التفاصيل الإضافية، وما يتعلق بها من تحريفات،[٢١] عرض قصة محلية أمريكية غير مألوفة على طلاب جامعة بريطانية عنوانها (حرب الأشباح) ومن ثم طلب من كل واحد منهم أن يعيد سرد القصة على زميل له ليقوم هذا الزميل بسردها من جديد على زميل آخر الذي سيسردها على زميل آخر وهكذا -كما في لعبة الهاتف- ومن الملاحظات الكثيرة التي سجلها بارتليت لهذا الاختبار عن كيفية تذكّر القصة، اكتشف ميلًا قويًا عند المستمعين لتحريف القصة

أو إدخال معلومات تناسب تصوراتهم الخاصة المسبقة، فأبطال القصة الذين كانوا في زورق نهري أصبحوا في زورق تجديف، كما لاحظ أن التفاصيل غير المناسبة أو المألوفة لدى المستمعين لم يتم تذكرها بشكل صحيح مقارنة بالأفكار والتفاصيل المألوفة والملائمة. قمت أنا وميلاني نيهوف بمجموعة تجارب للمتابعة فأعدنا تجربة بارتليت بغية التأكد من نتائجها، من خلال عرض قصة أمريكية محلية على طلاب غير أمريكيين[٢٢]، ومن جديد كان الطلبة أقل ميلًا لتذكر التفاصيل غير المألوفة مثل (شرائح البوفالو (العجل) مقارنة بما هو مألوف لديهم مثل (شرائح الخشب)، وقد وثق باحثون آخرون بدورهم كيف يمكن التذكر الخاطئ لبعض المعارف المتصلة بالسياق وغيرها وكأنها كانت مذكورة في النص[٢٣]، ففي أحد الاختبارات على سبيل المثال سمع المتلقون النص الآتي: (كان جون يحاول إصلاح بيت العصافير، وبينما كان يثبت المسمار دخل والده ليراه ويساعده في عمله) بعد سماع هذا الجزء من القصة قال جزء كبير من المستمعين بأنهم سمعوا الآتي: (كان جون يستخدم المطرقة في إصلاح بيت العصافير عندما دخل والده ليراه ويساعده في عمله)، لاحظ أن النص الأول لم يتضمن أي ذكر للمطرقة إلا أن المستمعين الذين يعلمون بأنه من الطبيعي استخدام المطرقة مع المسمار في تثبيت بيت العصافير أوردوا ذكرها لدى تذكرهم للنص.

من خلال التجربة السابقة ومع ما وجدناه من ميل المستمعين أو القراء للقصة إلى الملء التلقائي للتفاصيل غير الواردة فيها والمستقاة من معرفتهم الخاصة،

استغليت مع مساعديّ هذا الميل لقياس غير مباشر لأفكار الناس تجاه الرب[٢٤]. فقمنا بصياغة عدد من القصص التي يرد فيها ذكر الرب، وتركنا بعناية فراغات يمكن ملؤها من المتلقين، وإليكم مثالًا عن إحدى تلك القصص:

بينما كان ولد يسبح وحيدًا في نهر صخري سريع، إذ علقت رجله اليسرى بين صخرتين رماديتين كبيرتين ولم يتمكن من الإفلات، واستمرت أغصان الشجر بالارتطام به وهي تعبر النهر مسرعة. ظن الولد أنه سيغرق وبدأ يكافح ويدعو، رغم أن الله كان يجيب دعوات أخرى في مكان آخر من العالم عندما بدأ الولد بالدعاء، لم يمض وقت طويل قبل أن يستجيب الله ويدفع بإحدى الصخرتين ليتمكن الولد من تحرير رجله، ويكافح للوصول إلى ضفة النهر حيث سقط منهكًا[٢٥].

الأسئلة البحثية التي سعينا للحصول على إجابة عنها باستخدام قصص مثل هذه القصة؛ ما هي الفكرة عن الله التي يستخدمها المستمعون أو القارئون لاستيعاب القصة؟ وهل هي مطابقة لما يقولون إنه اعتقادهم عن الله؟

بعد أن استمع المتلقون البالغون لهذه القصة بدأنا بطرح بعض الأسئلة التي تعتمد على الذاكرة وللإجابة عنها (قمنا بتشجيع المستمعين على أن يستخدموا مفهومهم الخاص عن الرب لأقصى درجة، ومن ثم سألناهم عدة أسئلة مباشرة عن ما يعتقدون أنه صفات الرب). ولأننا كنا نبحث بالضبط عن إقحام مدخلات خارجية من المستمعين على القصة الأصلية - أي ما يتذكره الناس من أشياء غير موجودة في القصة أصلًا- فقد سألناهم: (أي من المعلومات الآتية كان واردًا في

القصة؟) وكان على المستمعين ببساطة أن يجيبوا (نعم) إن كانوا يذكرون ورود هذا التفصيل في القصة أو أن يجيبوا (لا) إن لم يذكروا وروده، وقمنا بإعلام المستمعين بأنه ليس من الضروري أن ترد الكلمات حرفيًا، بعض الأسئلة ارتكزت على الفهم العام لمعلومات القصة، فعلى سبيل المثال أحد الأسئلة كان على هذا النحو: (كان الولد يسبح وحيدًا) (لا ترجع إلى النص، صح أم خطأ؟) والأسئلة الأخرى تتحرى أخطاء إقحام التفاصيل التي تتصل بالأفكار عن الله، فمثلًا ورد في أحد الأسئلة (انتهى الرب لتوه من الاستجابة لدعاء آخر عندما ساعد الولد). (هل ورد هذا في نص القصة؟ صح أم خطأ؟).

ما وجدناه من نتائج باستخدام هذه القصص والأسئلة من هذا النمط أن أخطاء إقحام التفاصيل من المستمعين كشفت عن استخدامهم لمفهوم بشري وتجسيمي مفرط للرب في سياق فهمهم وإدراكهم للقصة. فقد كانت الإجابة بنعم هي الأكثر شيوعًا على سؤال: هل كان الله قد انتهى لتوه من إجابة دعوى أخرى ثم ساعد الصبي؟ لكن دقق مرة ثانية في القصة، وتذكر بأن الرب قادر على فعل أي عدد من الأشياء، في أي مكان، في آن معًا، فهل عنت القصة بأن الله أنهى فعل أمر ما ليتفرغ للقيام بأمر آخر؟ لماذا لم تُفهم القصة بأن الله استمر بإجابته لدعوة من مكان آخر في العالم حين بدأ بإجابة دعاء الصبي الغارق في النهر؟ بالتأكيد يمكن أن تُفهم كذلك. وعندما قمنا باستبدال الرب بغرباء فضائيين ذوي قوى خارقة في القصص ذاتها وعرضناها على مجموعة أخرى من البالغين فإنهم لم يقعوا بهذه

الأخطاء من إقحام التفاصيل بنسبة أعلى مقارنة بغيرها من الأخطاء. لكن لا شك أن ثمة صعوبة في استيعاب قصة تحوي إله قيوم قدير وغير مجسم، وعلى الأقل عند استخدامنا لأفكارنا الخاصة عن الله سيكون من الأسهل والأكثر فطرية علينا استخدام مفهوم أكثر بشرية عن الرب.

لقد أجرينا هذه الاختبارات على مشتركين بالغين يعيشون في الولايات المتحدة من خلفيات والتزامات دينية مختلفة جدًا، حتى أن بعض المشتركين لم يكن مؤمنًا بالله، لذلك طلبنا منه استخدام ما لديه من أفكار لا يؤمن بها حول الرب (وليس هذا بالأمر الغريب تمامًا فقد لا تكون مؤمنًا بالتنانين لكن هذا لا يمنع أن يكون لديك مجموعة من المعلومات عنها)، كانت نتيجة الاختبارات في كل المجموعات؛ مؤمنين كانوا أو غير مؤمنين، مسيحيين أو يهود، كاثوليك أو بروتستانت، أن أظهر الجميع نفس النموذج من خطأ إقحام التفاصيل. أدرك الجميع لا شعوريًا أن الرب (وليس الغرباء الفضائيين الذين وصفوا بدقة) على أنه مشابه للبشر في القصص، لكنهم كانوا ينكرون أنهم يؤمنون برب شبيه بالبشر بهذا الشكل عندما يسألون مباشرة. فقد تذكروا في القصة خطأ وجود الله في مكان محدد، لكن عند سؤالهم مباشرة فإنهم كانوا يجيبون بأن الله لا يحده مكان أو أنه يوجد في كل مكان، وفي سياق القصة كانوا يتذكرون قيام الله بعمل محدد في وقت محدد، لكنهم يدعون قدرة الله على القيام بعدة أمور في آن معًا عندما يسألون عن ذلك مباشرة. في سياق القصة كان من الممكن مقاطعة الرب وكان بالإمكان التشويش على رؤيته أو سمعه بسبب

ضجة ما، لكن المشتركين نفوا تمامًا وجود أي قيود أو حدود من هذا النوع على الله.

أخذنا بعين الاعتبار بأن الاستماع إلى القصص وما يرافقها من أسئلة لقياس مدى الإدراك، ربما تدفع بصورة غير عادلة إلى مزيد من نسب التجسيم البشري للرب عند المتلقين أكثر من تصوراتهم هم، لذا فقد عدلنا الاختبار السابق لنجعل المشتركين في الاختبار يقومون بقراءة القصص بأنفسهم ثم يجيبون على الأسئلة فحصلنا على ذات النتائج، وقمنا بإجراء اختبار آخر أيضًا جعلنا المشتركين فيه يقرؤون قصصًا ومن ثم يقومون بإعادة كتابة نسخٍ خاصة بهم لما قرؤوه، وبالتأكيد حصلنا مجددًا على إقحام التفاصيل التجسيمية في تصورهم للرب.

وحدث مرة بعد أن عرضت هذه النتائج في محاضرة عامة أن سألتني زميلة في علم النفس وهي زوجة لحاخام أرثوذكسي (ما الذي كنت تتوقعه؟) ما هي الأفكار الأخرى التي يمكن أن يفكر بها البشر عن الرب في مثل هذه الظروف؟ لا شك أننا أحيانًا بحاجة لاستخدام فكرة أبسط وأكثر ألفة عن الله.

وهذا تمامًا ما أردت الوصول إليه من عرضي لنتائج هذه الاختبارات، لأنها تكشف أن البالغين لديهم مجموعتان من الأفكار عن الرب؛ الأولى هي مجموعة الأفكار اللاهوتية الفخمة عن الكائن العليم الموجود في كل مكان، والمختلف كليًا عن أي كائن قد يخطر على ذهننا بالتفكر، أما المجموعة الثانية من الأفكار فهي عن كينونة تشبه البشر كثيرًا ويسهل التعامل معها في المواقف اليومية اللحظية. لأن الأفكار التي تنحرف بعيدًا عن ميول تصوراتنا الفطرية صعبة الاستخدام.

ولمعرفة إن كانت نتائج هذا الاختبار خاصة بالبالغين في أمريكا، سافرت إلى الهند، وهو أروع مكان للمقارنة حيث يوجد عدد كبير من الآلهة في الديانة الهندوسية؛ دين الأغلبية العظمى من الهنود. تأخذ هذه الآلهة أشكالًا وصورًا متنوعة، ويعبر عنها بالرسم والطلاء والنحت. ورغم كل ذلك فإن التعاليم الهندوسية تعطي نسخة أكثر تجريدًا للذات الإلهية المطلقة براهمان Brahman، فالرب موجود في كل شيء وعبر كل شيء، فهند الهندوسية من جهة آلهة متجسدة متعددة أكثر مما في المسيحية، ومن جهة أخرى عندها ألوهية أكثر تجريدًا من المسيحية. ربما تبيّن هذه الملاحظة بحد ذاتها عرضًا مزدوجًا للآلهة في الهند التجريد والتجسيم معًا.

قمت بتكرار اختبار فهم القصة مع تعديلات بسيطة[٢٦]، فاستخدمت أولًا نسخة الاختبار التي يقوم فيها المشتركون بقراءة القصة والأسئلة بأنفسهم، والتعديل الثاني بدلًا من استخدام اسم الرب استخدمت أربعة أسماء لأرباب هندوسية مختلفة (براهما، شيفا، فيشنو، كريشنا). وكما في السابق بعد إنهاء الجزء المختص بالاختبار من فهم القصة، طلبت من المشتركين إكمال استبيان يتعلق بآرائهم الخاصة عن نفس الإله.

في الواقع وجدت اختلافًا بسيطًا بين الآلهة في الاستبيان، أو في وظيفة فهم القصة، لكني وجدت اختلافًا واسعًا بين ما يقول الناس إنهم يؤمنون به حول تلك الآلهة، وبين المفهوم عن الإله الذي استخدموه لفهم القصص - أي تمامًا كالنتيجة التي حصلت عليها في الولايات المتحدة.

## ثم جاءت المفاجأة

وجدت فارقًا آخر بين نتائج الدراسة الأمريكية والهندية، وهو الفارق المتعلق بالمجال العمري للمشتركين، ففي الولايات المتحدة كان المشتركون في الدراسة التي حصلت منها على نتائجي في العشرينات من عمرهم، أما في الهند فقد كانت العينة العمرية التي أجريت عليها الدراسة، يتراوح المشتركين فيها من التاسعة وحتى الخامسة والخمسين من العمر.

إن هذا المجال العمري الذي يبلغ ستًا وأربعين عامًا سمح لي ببحث سؤال آخر؛ هل تختلف سعة الفجوة بين ما يعلنه الناس من اعتقاد بالله وما يستخدمونه من مفهوم عن الله مع اختلاف السن؟ وكانت المفاجأة أني وجدت تغيرًا ذا قيمة إحصائية على عكس ما كنت أتوقعه، فقد اتسعت الفجوة مع التقدم بالسن، لم يكن مفاجئًا ميل البالغين للتقليل من تجسيم الرب مقارنة بالأطفال في إجابتهم على أسئلة الاستبيان المتعلقة بالعقائد المعلنة، لكنهم كانوا يجسمون أكثر من الأطفال في إجابتهم عن فهم القصة. كان المشتركون الأكبر سنًا أكثر ميلًا لارتكاب خطأ إقحام التفاصيل ووصلت حتى القول بوجود حدود بشرية لصفات الرب. أعيد إجراء هذه الاختبارات بدقة أعلى وبظروف ثقافية أكثر ضبطًا من قبل ترافيس شيلكوت Travis Chilcott وراي بالوتزيان Ray Paloutzian[٢٧]. وظهر من جديد أن المشتركين الأكبر سنًا من الهندوسيين كانوا أكثر ميلًا للتجسيم من الهندوسيين الأصغر سنًا، والنتيجة مستقلة عن مدى الثقافة أو الممارسة الدينية عند البالغين.

إن مزيدًا من الأبحاث حول هذه المسألة قد يكون مفيدًا، لكن الظاهر بأن الأطفال أبدوا فطنة أشد بما يخص أفكارهم الدينية من البالغين في بعض المسائل، فكلما تقدمنا في العمر كلما أصبحنا أقل قدرة على الاستخدام المباشر لأفكار تنحرف بعيدًا عن الدين الفطري. إن هذه الاحتمالية تتلاقى مع فكرة وجود فترة حرجة للنمو الديني التي طرحتها في الفصل السابق، وربما يفقد الأطفال مع الوقت قدراتهم الفطرية على التفكير الديني إن فشلوا في ممارستها بما يكفي من سن مبكر.

أذكر زميلًا لي في الجامعة كان يشير إلى الرب بقوله: (الرجل الكبير في السماء). كان تعبيرًا طفوليًا للغاية، أليس كذلك؟ إن هذه الوقاحة لم يُقصد منها أي شكل من التدنيس، لكنها تعبر ببساطة عما يشعره ذلك الشاب الصغير تجاه الله، فقد كان يعتبر الله صديقًا مقربًا بقدر ما هو مالك ومتصرف بهذا الكون. إن طالب الهندسة هذا كان يستمتع بقراءة اللاهوت، ورغب في التفرغ للعمل في خدمة الكهنوت المسيحي. لقد بدا واضحًا أنه لم يعد يؤمن بأن الرب عبارة عن ذات بشرية ضخمة فوق الغيوم فحسب؛ بل في الواقع عندما سُئل عن اعتقاده بالله ادعى بأن الله لا يشغل أي حيز مكاني على الإطلاق، والقول بأن الله هنا أو هناك هي عبارة مضللة، فالله ليس رجلًا كبيرًا أو شخصًا أو في السماء. فلماذا إذًا كان صديقي يدعو الرب (بالرجل الكبير القابع في السماء)؟ في أوقات الاسترخاء عندما يريد الكلام والتفكير بالذات الإلهية، سيجد صديقي المرموق جدًا أنه من الأسهل عليه فهم الرب كشخص كبير يوجد في السماء. ولعل من الأسهل عليه استيعاب شخص

كبير يقبع في السماء عوضًا عن قيوم كلي الوجود ومالك للأكوان. لا شك بعدها لم ينشد المسيحيون طوعًا بأن الرب (يملك الكون كله في يديه) وبأن (عينه ترصد العصفور) بل حتى (أنه حين يشمر كميه فهو لا يضعهما في النعمة ... ثمة برق في خطوات قدميه ورعد في قبضتيه).

***

# الفصل السابع

## لا بأس أن يكون إيمانا طفوليا

هل الإيمان بإله أو آلهة ما طفوليٌّ أو صبيانيٌّ؟ الإجابة من بعض الجوانب وبوضوح؛ نعم. فالإيمان بالآلهة ينشأ على الأرجح مع نمو الطفل مبكرًا. فقبل أن يتقن الأطفال ركوب الدراجة، أو يعرفوا نقطة غليان الماء، أو يتعلموا ضرب الأعداد؛ بل حتى قبل أن يتعلموا القراءة، يعلم مسبقًا كل الأطفال في جميع أنحاء الكرة الأرضية ويؤمنون بوجود كائنات خارقة للطبيعة يحدِّثهم عنها والداهم: كالأشباح، وأرواح الغابات، وأرواح الأجداد، والملائكة، والشياطين، والآلهة أو الإله. يبدو أنَّ جزءًا من نمو الطفل الطبيعي قبل سن الخامسة هو الميل إلى الإيمان بإله واحد على الأقل فائق القدرة، فائق العلم، فائق الإدراك، يهتم بالأخلاق الحسنة، وعلى أي حال فاعتبارُ إيمانٍ ما طفوليًّا لا صلة له بسؤال هل يلزمنا أن نستمر في التمسك به في سن الرشد أم لا.

عرضتُ في خريف عام ٢٠٠٦ أمام ملأٍ من الحضور في كلية فرانكلين ومارشال في لانكستر (بنسيلفانيا) بعضًا من أفكار هذا الكتاب، وأثناء جلسة

المناقشة الحيوية بعد المحاضرة الرسمية بدا الجمهور مهتمًا على الأخص بمفهوم أن أسس الإيمان، أو حتى الإيمان نفسه، ينشأ فطريًا أثناء سنوات ما قبل المدرسة. ولما أكدتُ على هذا التفسير للدليل الحالي، بادر رجل كان قريبًا من صفوف المقدمة بالسؤال المباشر: «ألا يعني هذا أن الإيمان بالإله أمرٌ صبيانيٌّ؟» فأصابت الجمهورَ المهذبَ دهشةٌ من ما اعتبروه سؤالًا وقحًا بل وتهجميًا، ولكنه كان سؤالًا وجيهًا.

إن سؤال إن كان الإيمان بالإله (أو بأي عوامل فاعلة فوق بشرية أخرى) أمرًا صبيانيًّا، أو طفوليًا، أو نوعًا من بقايا سذاجة للطفولة، ينشأ مرارًا وتكرارًا عند مناقشة طبيعة الإيمان. أليس الإله مثل بابا نويل أو جنية الأسنان اللذَيْن يؤمن بهما الأطفال ثم عليهم أن يطرحوا هذا الإيمان جانبًا عندما يكبرون؟

***

## مهاجمة الدين لأنه صبياني

وضع سيجموند فرويد إحدى أشهر حجج الادعاء بطفوليَّة الدين، ففي كتابه «مستقبل وهم The Future of an Illusion) يعبِّر فرويد أكثر من مرة عن إصراره بأن الإيمان بالآلهة ينشأ نتيجة إسقاط قلق فترة الطفولة على العالم الطبيعي:

(عندما يتبيَّن الطفل وهو يشب ويترعرع أنه مقضيٌّ عليه بأن يبقى أبد حياته طفلًا، ولن يكون في مقدوره أبدًا أن يستغني عن الحماية من القوى العليا والمجهولة، يضفي عندئذٍ على هذه القوى خصال شخصية الأب، فيبتدع لنفسه آلهة، الآلهة التي يخشى جانبها، ويسترضيها، ويفوِّض إليها مع ذلك مهمة حمايته.)[1]

طبقًا لفرويد، يحتفظ الكبار بالخوف الطفولي من القوى المجهولة ويخترعون إلهًا يكون بمثابة شخصية أبٍ كونيٍّ، يعكس حاجة طفولتهم المبكرة إلى أبٍ يحميهم، ولكن يخافون منه في الوقت نفسه.

لا يقف تحليل فرويد عند طفلٍ محدد، أو مسار نهائي محدد مِن الطفولة حتى البلوغ؛ بل يسعى ليفسر سبب كون الإيمان بالآلهة إيمانًا بشريًا عامًا. ولفعل ذلك، يقترح أن القصة النهائية التي يروِّج لها تعيد على المستوى الفردي تمثيلِ مشكلة واجهتها الإنسانية عمومًا منذ نشأتها كجنس بشري:

(وعلى هذا النحو يتشكل مخزن غني بالفِكَر، نشأ من الحاجة إلى تقبُّل عجز الإنسان، وبنته مادة قدمتها ذكريات عجز طفولته وطفولة الجنس البشري بأكمله)[٢]

والخلاصة أن فرويد يرى أن أساس الإيمان بالآلهة أمر طفوليّ أو صبيانيّ، نؤمن بالآلهة لأننا نشعر دائمًا بالقلق أمام القوى الطبيعية الخارجة عن سيطرتنا، ونتغلَّب على هذا القلق باختراع كائن أو كائنات لها خواص تعود إلى آبائنا أثناء فترة الطفولة المبكرة. ونتذكر عندما كنا أطفالًا صغارًا (ولو لاشعوريًا) ذلك الإحساس من الحماية بواسطة أب قوي ولكنه مخيف، ونستخدم هذه الذاكرة الطفولية (مرة أخرى، لاشعوريًا) لنخلق مفهومًا للإله.

إلا أن فرويد يتمادى بخطوة أخرى: فهو يرى أن الإيمان بالآلهة ما هو إلا وهم طفوليٌّ قديم: (كذلك لا يجعل الإنسان من قوى الطبيعة كائناتٍ يسعُه الاتصال

بها كأنداد له - فهذ لن يتفق وما تحدثه في نفسه من وقع هائل - بل يضفي عليها خصائص الأب، ويحوِّلها إلى آلهة، وبالتالي لا يكون مجرد طفوليٍّ، بل يكون أصلًا تطوريًّا أوليًّا كما حاولتُ أن أبيّن)[3]

يقصد فرويد بكلمة (تطوريٍّ أولي) أن الآلهة ليست بدائية فقط من حيث التطور البشري الفردي؛ بل هي بقايا بدائيتنا وأصلنا ما قبل التاريخي. ويعبِّر بفجاجة أننا اكتسبنا الإيمان بالآلهة من أسلافنا رجال الكهوف؛ بل ربما اكتسبناه من الأنواع ما قبل البشرية، فالإيمان بالإله طفوليٌّ وقبل بشريٍّ.

لم يأخذ دليلَ فرويد الواهي بجدِّية بخصوص أصول الفكر الديني إلا قليلٌ من علماء النفس وغيرهم من العلماء الدارسين للدين، إلا أن فكرة أن (الإيمان بالآلهة أمرٌ صبيانيٌّ محرج) بقيت ولم تختفِ تمامًا، ولنأخذ مثالًا توضيحيًا: يتبنَّى ريتشارد دوكينز موقف (طفوليَّة الدين) في بعض مقابلاته وكتاباته الحديثة، وهذا مثال توضيحيٌّ لمنظور دوكينز اقتبسناه من إحدى مقابلاته في عام ٢٠٠٦:

(إنني أهتم بشغف كبير بالحقيقة، وإن أحد الاختلافات الرئيسية الواضحة بين بابا نويل والإله، أنك لا تجد أي بالغ -ممن يؤمن بإله- يؤمن بوجود بابا نويل، وللأسف هنالك كثيرون لا يؤمنون ببابا نويل وفي الوقت نفسه يؤمنون بإله. وقد حان الوقت أن يكبروا ويطرحوا الإله جانبًا في نفس السن التي يطرحون فيها بابا نويل جانبًا. وإن كان هناك بعض الأشخاص القلقين من فقدانهم لإيمانهم، فأنا أشجعهم وأقول لهم: اصمدوا؛ لأنكم إن وقفتم وشاهدتم العالم الحقيقي مباشرةً،

فسيتبين أنه مكان أروع من العالم الذي يرسمه الدين والإيمان الصبيانيّ هذا).[٤]

فدوكينز وفرويد يريان أن الإيمان بالإله أو الآلهة يُعد عملًا طفوليًّا، وينبغي على الناس أن يكبروا و(يطرحوا الإله جانبًا).

إن وصم المعتقدات والممارسات الدينية بأنها صبيانيَّة، ومن ثَمَّ الاستنتاج بأنه ينبغي التخلي عنها بناء على ذلك الأساس ليس إلا خطابًا إقناعيًّا فارغًا.

وإن المقارنة الشائعة مع بابا نويل وجنية الأسنان تفضح هذا الغباء والخمول الفكري والجهل الخطير. أولًا: يؤمن الكبار البالغون بالإله ولا يؤمنون ببابا نويل وجنية الأسنان، بينما قد يؤمن الأطفال بالثلاثة كلهم. والحقيقة - كما أشار العالم اللاهوتي أليستر ماكجراث Alister McGrath - أنَّ كثيرًا من البالغين (وهو منهم) يؤمنون بإله معين لم يكونوا مؤمنين به وهم أطفال. وتُعد هذه الحقيقة أيضًا نقطة تعارض مع حالتي بابا نويل وجنية الأسنان، فالناس لا يستهلون أو يستأنفون الإيمان بهما في فترة البلوغ بعد أن كانوا لا يؤمنون بهما وهم أطفال.[٥] كما أن بابا نويل وجنية الأسنان لا يملآن الفضاء المفاهيمي الموجود عند الأطفال (والبالغين) نتيجة إدراكهم الطبيعي. ولا يفسر بابا نويل وجنية الأسنان بسهولة النظام والغائية المدركين في العالم، ولا يفسران حسن الحظ أو سوء الحظ، ولا يفسران أمور الأخلاق، والحياة، والموت، والحياة الآخرة، وليس لهما أهمية تذكر فيما يتعلق بالمجريات اليومية الخارجة عن نطاق اهتمامهما المحدود جدًّا (هدايا عيد الميلاد، ومبادلة السن بالمال). لاحظ أيضًا أن الوالدَين يخدعان عمدًا أطفالهم

بمعتقدات كهذه عن طريق التسلل والخداع. ولا يأكل البالغون (في العادة) القربان المقدَّم للآلهة، ويتظاهرون أن الآلهة أكلته بنفس الطريقة التي يأكلون بها حلويات بابا نويل. إن كان التلقين والخدع المصطنعة هي كل ما تعنيه الآلهة، فسيطرحها البالغون عندما يكبرون جانبًا.

أتصور أن أغلب الكبار يؤيدون فكرة أنه ينبغي في فترة البلوغ التخلي عن التفكير (الصبيانيِّ) أو (غير الناضج) دون أي تحقق أليس كذلك؟ رجاءً اعذروا سذاجتي، ولكن لماذا؟ لماذا عندما نعتبر فكرةً ما أنها صبيانيَّة ستكون على الفور فكرةً سيئةً أو خطيرةً أو خاطئةً؟ قد تقول: (لا شك أن معرفة الأطفال قليلة مقارنة بمعرفة البالغين، ويرتكبون أخطاءَ أكثر في التفكير، فأحكامهم بالتالي ليست جديرة بالثقة) هذا أمر متفق عليه، ولكن ما يقتضيه هذا الأمر أنه ينبغي علينا تفحص معتقدات الأطفال بعناية أكثر من معتقدات البالغين، وخاصة إن انحرفوا عما يؤمن به البالغون، ولكن البالغون يؤمنون عمومًا بالآلهة.

إن حالة هذا الإيمان الذي يبدأ في فترة الطفولة ويستمر عادة في فترة البلوغ تضعه في نفس فئة الإيمان بالجاذبية، وبقاء الأجسام الصلبة، وتعاقب الزمن، وقابلية التنبؤ في القوانين الطبيعية، وأن المؤثرات تسبق الآثار، وبأنَّ الحيوانات تلد صغارًا تشبهها، وأنَّ للناس أفكارًا وحاجاتٍ تحرك أفعالهم وتوجهها، وأن بعض الأمور صحيحة أو خاطئة أخلاقيًا، وبأن الأمهات يحببن أبناءهنَّ وبناتهنَّ، وبالكثير والكثير من الأفكار عن العالم، وقد ناقشنا بعضها في فصول سابقة. إنَّ

جميع هذه المعتقدات تنشأ مبكرًا في فترة الطفولة وتستمر عادةً في فترة البلوغ. فإذا كان الإيمان بالآلهة أمرًا (صبيانيًّا) أو (غير ناضج) وفق الاعتبار نفسه لهذه الأنواع من المعتقدات، فنعما هذه الصحبة.

أُفضِّل النهج الذي يعتبر أنَّ عقولنا أساسًا جديرة بالثقة لتعطي المعتقدات الصحيحة، وأنه ينبغي اعتبار معتقداتنا (الصبيانيَّة) الناشئة فطريًا معتقداتٍ صحيحة حتى نحصل على سببٍ وجيه يجعلنا نشك بأنها معضلة. ليس واضحًا لي لِمَ نفعل العكس، ومع ذلك نبقى أناسًا طبيعيين عقلاء! تنشأ الكثير من معارفنا الأساسية وقيمنا المرشدة أثناء فترة الطفولة وتشكِّل لنا حياتنا. ينبغي علينا أن نثق في هذه المعتقدات (الصبيانيَّة) البريئة حتى تثبُت إدانتها. قد يردُّ ملحد دارويني بأن هناك أسبابًا أخرى وجيهة تعاكس الإيمان بكثير من الآلهة إن لم تعاكس الإيمان بها جميعها. قد يكون هذا صحيحًا، إلا أن الاكتشاف بأن الإيمان بالآلهة أمر (صبيانيٌّ) ليس واحدًا من هذه الأسباب الوجيهة.

ولننتبه أيضًا ليس معنى عدم نشوء فكرة أو اعتقاد ما نمطيًا في فترة الطفولة، وتأخره حتى فترة البلوغ أنه اعتقاد صحيح. إن اعتبرنا الإيمان بالآلهة إيمانًا (غير ناضج) أو (صبيانيًّا) لأنه نشأ مبكرًا في الحياة، فلنتذكَّر إذن أنَّ كثيرًا من المعتقدات (الناضجة) أو (البالغة) لا تحمل أي أفضلية على معتقدات الطفولة من حيث المصداقية، أو القيمة، أو المرغوبية. يبتكر البالغون نظريات علمية وآراء فلسفية ننبذها فيما بعد لأنها خاطئة أو غير ذات جدوى. لا تجد أي طفل يؤمن أنه لا شيء

يوجد حقيقة إلا النفس، أو أنه ليس هناك عالم خارج النفس، أو أننا أدمغة في مكان واسع ما[1]. يجرب البالغون هذه الأنواع من المعتقدات، اعتقدوا مثلاً أنَّ تدخين التبغ وتعاطي المخدرات لا يضران؛ بل هما للتمتع وتسلية الأوقات، واعتقدوا أن فصد دماء الناس وفتح الثقوب في جماجمهم علاجان مناسبان للاضطرابات المزاجية أو الوجدانية، في حين لا يبتدع الأطفال مثل تلك الآراء. ويميل البالغون أكثر إلى الاعتقاد بأن قتل أنفسهم أو قتل غيرهم فكرتان جيدتان، من الصعب أن تجد طفلًا في الخامسة يوافقك على هذا تحت أي ظرف من الظروف. قد يكون البالغون أكثر اطلاعًا وربما أكثر ذكاءً من الأطفال، لكن إضافة إلى كونهم أكثر صوابًا من الأطفال فهم يخطئون أيضًا أكثر من الأطفال.

وأُثير هذه القضايا لأبيِّن أنه إن كان إيمان ما (صبيانيًّا) بمعنى أنه نشأ في فترة الطفولة المبكرة، فليس لهذا علاقة مباشرة بصحته وصلاحيته أم لا، وقد يكون من الحصافة التعامل مع معتقدات الطفولة على أنها معتقدات بريئة حتى تثبت إدانتها.

***

(١) هو مصطلح فلسفي متداول في عدة تجارب فكرية، ويقصد به تسليط الضوء على ملامح معينة من أفكارنا عن المعرفة، والواقع، والحقيقة، والعقل، ومعاني الأشياء.

## أهي صبيانية طاهرة؟

هل الإيمان بإله أو آلهة طفوليٌّ أو صبيانيٌّ؟ الإجابة بوضوح من بعض الوجوه هي نعم، فالإيمان بالآلهة ينشأ على الأرجح مبكرًا مع نمو الطفل. وآمل أن أكون بيّنت إلى هنا أن الأدوات المعرفية اللازمة لاستهلال الإيمان بالآلهة تتوفر منذ سنوات ما قبل المدرسة.

وعلى أي حال فإن اعتبار إيمان ما طفوليًا، لا يعني شيئًا بخصوص إن كان علينا أن نستمر في التمسك به في فترة البلوغ أم لا. وما إن يزول هذا التنابذ بالألقاب للإقناع الخطابي، يمكن أن يرى المرء أن امتلاك أسس الإيمان من فترة الطفولة لا صلة له بكون إيمان ما صحيحًا أم خاطئًا. لا يُعدو وصف إيمان ما بأنه طفوليٌّ أو صبيانيٌّ إلا تنابذًا بالألقاب، وحيلة رخيصة لتنفير بعض الناس وإبعادهم عن الإيمان.

ويبدو أن المسيح لم يخشَ كثيرًا من تهمة الارتباط بالأطفال، فحين حاول أتباعه طرد الأطفال، رُوي أنه أجابهم بقوله: (دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ، وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ؛ لأَنَّ لِمِثْلِ هؤُلاَءِ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ)[٦] فاعتبر أنَّ شيئًا من الصبيانيَّة خصلة مُرحَّبٌ بها لا خصلة مخزية في أتباعه. وما اعتبره عيسى خصلة أو خصالًا مرغوبًا فيها عند الأطفال يطرح كمسألة لاهوتية مفتوحة. ربما كان التواضع جزءًا من الإجابة، ففي واقعة أخرى يقول عيسى موضحًا: (اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ

الأَوْلادِ، فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ، فَمَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مِثْلَ هذَا الْوَلَدِ [أي تواضَع]، فَهُوَ الأَعْظَمُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ)[٧] وربما أصاب جي. كي. تشيسترتون G. K. Chesterton أيضًا عندما كتب أن الأطفال يمتلكون (واقعية لم تُفسد) تمكِّنهم من أن يروا الأشياء كما هي على حقيقتها، فهم يرون الخير خيرًا، والشر شرًا، والمشتبه مشتبهًا، والمزعج مزعجًا، والمعجز معجزًا، ليسوا كالبالغين الذي يضيفون طبقات من العقلنة وخداع الذات أو البريق النظري الخيالي الذي يجعل الأشياء تبدو على غير حقيقتها، فبدلًا من ذلك يقترح تشيسترتون أنه لفهم معنى الإله فهمًا صحيحًا، والإيمان به، يحتاج البالغون أن (يستدعوا أوسع وأسمى أنواع الخيال الذي بإمكانه رؤية ماذا يوجد هناك.)[٨] أو لعل عيسى أشار إلى الطريقة التي يبدو فيها الأطفال قادرين على تلقي التقدير الإيجابي، والهدايا؛ بل حتى العفو دون أن يشعروا بالحرج أو أنهم مدينون لأحد، فهل هذا جزء من التواضع الذي يقدِّره؟ بالنسبة إلى البالغين قد يكون تلقي الفضل والرحمة معاكسًا لجوهر أحاسيسنا الضمنية للتبادل الاجتماعي المناسب أو لعالم عادل (كما بيّنتُ في الفصل السابق). ربما قصد عيسى التأكيد على قدرة الأطفال للثقة غير المتزعزعة، والتي لا تحتاج إلى فهم كل الكيفيات والأسباب؛ بل تحتاج فقط إلى فهم المُسبب. وأيٌّ ما كان قصد عيسى في قوله إنه ينبغي على أتباعه أن يصبحوا كالأطفال، فإنه يرفض الوصم لأن أتباعه يتهمون بالصبيانيَّة في إيمانهم.

***

# الفصل الثامن

## حمقى لدرجة أنهم سيؤمنون بأي شيء

إنني لا ديني بالمطلق، ومن الغريب أن ابني البالغ من العمر أربع سنوات يؤمن بالله و يتحدث عنه أحيانًا، فأنا لم أعلمه ذلك أبدًا. على كل الأحوال يبدو أمرًا مثيرًا للاهتمام فهذا جزئيًا من طبيعة الإنسان.

هذا الاقتباس كان ملاحظة نشرت على الإنترنت ردًا على مقالة في لندن تايمز تتحدث عن محاضرة لي عن فطرية الإيمان وفحوى المحاضرة كان معارضة صريحة لفكرة أن الأطفال يؤمنون لأن آباءهم قد لقنوهم ذلك بكل بساطة.

وتدّعي فرضية التلقين أن الأطفال يؤمنون بالآلهة - أي إله أو كل الآلهة - لأنهم لقنوا تلك المعتقدات بكثافة، فمنذ بداية العمر يسمعون عن الله أو الأسلاف أو يسوع أو فيشنو الهندوسي.

فيعلّم الآباء والمرجعيات الأخرى الأطفال مباشرة كل ما يتعلق بخصائص تلك الآلهة. بالإضافة إلى أن الآباء يعملون على التأثير على أطفالهم بقصص رهيبة عن جهنم الأبدية والمجاعة و العواصف و البراكين، وأن عدم الإيمان وترك طاعة

تلك الآلهة سيتبعه عواقب وخيمة، وبالفعل يقوم بعض الآباء ومعلمي الأديان بمعاقبة الأطفال الذين يشكون أو لا يأتمرون بمحرمات وإرشادات الإله، وعندما يبدي الأطفال الإيمان والطاعة للإله، يثنى عليهم ويكافؤون ويشجعون بالوعود بحياة مثالية بعد الموت، أو حتى الغنى والنجاح في هذا العالم. سيعتقد الأطفال في هذه الظروف بأي شيء لا يمكنهم بخلاف ذلك دحضه، ومن المعروف أن الإله من الصعب إثبات وجوده أو نفيه، ونظام التلقين القسري الصريح تمامًا هو سبب إيمان الأطفال بإله من نوع أو آخر حسب ما تقوله فرضية التلقين.

ولعل الناس الذين اقترحوا فرضية التلقين قد نظروا إلى حالات مثل مأساة معبد جيم جونز أو ديفيد كوريش من طائفة الداوديين وهي حالات يظهر فيها على ما يبدو أن أشخاصًا بالغين عاقلين قد تبنوا اعتقادات دينية جديدة متطرفة فهجروا مهنهم وعائلاتهم وفي كثير من الأحيان تخلوا عن حياتهم نفسها بسبب اعتقادهم. فإن كان البالغون عرضة للخضوع إلى ضغط التلقين المنظم فما هي فرصة الأطفال البسطاء في مواجهة تأثيره؟

في هذا الفصل سأناقش فرضيه التلقين وبعض ما يشبهها من أمور نظرًا لأهميتها بالنسبة لمن يريدون تعليم أطفالهم ليؤمنوا (أو ليكونوا غير مؤمنين) بأفكار دينية متنوعة، فهل يمكن غسل أدمغة الأطفال لجعلهم يؤمنون بأي شيء؟

شرح الفيلسوف أنتوني غارلنغ مفهوم التلقين بهذه الطريقة مشيرًا إلى التعليم المسيحي العالي[1]:

تذكر أن كل تدريبات التعليم المسيحية تركز على غسل دماغ ديني للصغار بل حتى الصغار جدًا، ودون غسيل دماغ الصغار سيذوي الدين ويموت نظرًا لسخافته، كل الأديان تعتمد حصريًا على التطويع عن طريق السيطرة على عقول الأطفال.

ولكن هل كل الأديان (تذوي وتموت نتيجة سخافتها) إن لم يتم (عملية غسيل الدماغ) للأطفال؟ أخشى أنه لا يوجد دلائل جيدة تدعم تكهنات غارلنغ؛ بل إن كثيرًا من الأدلة تشير إلى العكس.

رغم أن فرضية التلقين تبدو للوهلة الأولى معقولة، وقد طرحت عليَّ في مرات عديدة خلال محادثات غير رسمية أو في جلسات مناقشة بعد المحاضرات الأكاديمية لكن هذه الفرضية لم تحظ إلا باهتمام قليل من علماء الدين. ويتبادر إلى الذهن العديد من الأسباب لهذا الإهمال.

في المقام الأول لأن المتخصصين بعلم الإنسان الثقافي وأساتذة الدراسات الدينية والأشخاص الذين نشأوا في المجتمعات الدينية يجدون في فرضية التلقين صورة كاريكاتورية معبرة عما يحدث عادة في الجماعات الدينية. وبالمقارنة مع الإكراه والتهديد والتنمر على الأطفال لإجبارهم على الإيمان نجد أن البالغين يؤمنون بكل بساطة بأرواح الغابة والأسلاف والساحرات أو الله، ويتصرفون وفقًا لهذه الاعتقادات. فيقومون بالطقوس المناسبة و يتلون الصلوات ويناقشون معنى الحياة ويتفكرون في أفعال الله، ثم يتوجهون إلى حياتهم وكأن الآلهة أمر طبيعي

واعتيادي ومؤكد مثل وجود الهواء والجاذبية الأرضية والجراثيم. غالبًا ما يؤكد علماء الإنسان، الدارسون للاعتقادات والممارسات الدينية في المجتمعات التقليدية، شيوع الخطاب الديني وكيفية انسجامه بلطافة جدًا في الحياة اليومية[٢]. ولم يحدث إلا في القرنين الماضيين فقط وضمن قليل المجتمعات في العالم أن تم التعامل مع الاعتقاد والفكر الديني باعتباره شيئًا إضافيًا أو زائدًا عن الفكر والممارسة اليومية الاعتيادية.

حتى في العالم الغربي فالسياق الديني الذي يولد فيه أطفال الأسر المتدينة شيء كلي لا تميزه علامة ما عن الوجود الثقافي العادي. وتوضح حياة جدي وجدتي هذا الأمر؛ فهما مسيحيان ملتزمان جدًا بنوع محافظ و تقليدي من التدين. ولو وجد مراقب غير مرئي في منزلهما سيلاحظ أنهما لا يتلفظان بالكلام النابي ولا يشربان الكحول أو يرقصان أو يشاهدان أفلام جريئة أو يعملان أيام الأحد، ويتلوان الصلوات قبل تناول الوجبات، ويقرآن في نسخة الملك جيمس من الكتاب المقدس عدة مرات أسبوعيًا، ويذهبان مرتين إلى الكنيسة في الأسبوع، يحافظ جدي على شعره قصيرًا ولا يلبس الشورت أو يخرج من المنزل دون ارتداء قميصه وترتدي جدتي ملابس محتشمة ولا ترتدي إلا الفساتين وتبقي شعرها الطويل الذي يصل طوله إلى خصرها مضفورًا على شكل كعكة فوق رأسها وترتدي القليل من المجوهرات ولا تضع مساحيق التجميل، ورغم أن جدي لا يخرج من المنزل غالبًا فإن جدتي تتطوع في مركز لرعاية المسنين وفي المشفى، كما يبادر كلاهما لمساعدة الأصدقاء والعائلة

والجيران إن احتيج إليهما. ولا يتكلمان كثيرًا عن سبب اتخذهما القرار للقيام بما يقومان به أو العيش بهذه الطريقة، ولكن إن ضغط عليهما بالسؤال عن مبرر ما يفعلانه بينما لا يفعله الآخرون فقد يعطيان سببًا يتعلق بتعاليم الكتاب المقدس. إنهما يمثلان نوعًا من التدين المسيحي التقليدي الهادئ الذي يعتقدُ الناس أنه مميز لأناس يعيشون في بلدة صغيرة في غرب وسط وجنوب الولايات المتحدة. فأي العناصر من حياتهما سنعتبره تلقينًا لو وجد أطفال في منزلهما؟ باستثناء اصطحابهما للأطفال إلى الكنيسة حيث قد يسمعون عن أهمية العيش بحياة متدينة والعواقب الوخيمة في حال عدم فعل ذلك من الصعب رؤية ممارسة للتلقين الشديد. إن صورة بيئة التربية الدينية القاسية جدًا من الضغط والإكراه والاستدراج هي حالة مبالغة من المحاكاة الساخرة للعائلة المتدينة.

وسبب آخر لاعتبار فرضية التلقين فارغة المضمون عند كثير من الناس أن أغلب الأشخاص ببساطة شديدة هم من فئة الآباء، وغالبًا ما يحاول الأبوان تجربة (تلقين) أطفالهما. وينجحان في بعض الأحيان ولكن غالبًا ما يفشلان. وذلك بدءًا من تلقين آراء بسيطة وتفضيلات وحقائق علمية مثبتة إلى تلقين رؤى كونية. وقد يجد الآباء أنفسهم محبطين؛ بل يحبطهم بالفعل غياب رغبة أطفالهم بالاستماع إليهم أو تصديقهم. جرب إقناع طفل دون سن الدراسة بأن طاوله القهوة التي ضرب رأسه بها والفارغة تمامًا عليها الكثير من الجزيئات الحية. جرب إقناع طفل بأن الحساء الرمادي المخضر من الأطعمة المقدمة تعاونيًا في المجتمع لها طعم جيد.

جرب إقناع ابن الثانية عشرة بأن بيلي جويل وبول مكارتني قد ساهما في الموسيقى الشعبية بشكل أكثر قيمة من فرقة البوب المفضلة لديه. حاول إقناع مراهقة بأنها ستكون يومًا ما ممتنة لأنها تعلمت الجبر أو تاريخ بلاد ما بين النهرين، وأن التسويف بالدراسة سيعطي نتائج أضعف، وأن ساعة إضافية من الدراسة تصنع فرقًا في أداء الامتحان، وأن البثرة على وجهها لن تؤدي إلى منفى اجتماعي أبدي، وأن البشر ليسوا حيوانات ليلية حقًا. وكما يعرف كثير من الآباء ففي كثير من هذه الأمثلة أفضل ما نأمله أن يدعي أطفالنا الأعزاء تصديقنا ظاهريًا. لا يثق الأطفال ببساطة بما يخبرهم به آباؤهم أو المرجعيات التربوية الأخرى. وإن كانوا في كثير من المسائل يتنازلون من باب إعطاء الفرصة (ربما حيث لا ينبغي) ولا يقدمون في هذه الحالة شيكًا مفتوحًا، وكما علقت ابنتي مرة عندما كانت في الحادية عشر من عمرها (لا تثق بالكبار أبدًا إلا إن كان ما يقولونه منطقيًا بالنسبة لك)، إن إضافة بعض الترغيب المفيد إلى شهادة الكبار لا يجعل الأشياء بالضرورة أفضل لمتلقي التلقين. باستثناء تقنيات غسيل الدماغ في المعتقلات العسكرية ما قبل اتفاقات جنيف، لقد أعطت هذه الاستراتيجيات نتائج عكسية. وهددت بعواقب وخيمة من الكفر، أو حتى شحن فكرة مثل عدم وجود الله عاطفيًا مما يجعلها فكرة غير عادية أو خاصة. وبالتالي يزيد احتمال قبولها من الأطفال. بكل بساطة لا نملك دليلًا علميًا موثوقًا على أن هذا النوع من استراتيجيات التلقين ينفع في سياق تربية الأطفال.

وقد أقر أحد الملحدين الجدد هو كريستوفر هيتشينز جزئيًا بضعف فرضية التلقين مع تأكيده على أهميتها:

تلقين الصغار في الكثير من الأحيان له تأثير عكسي، ونعلم هذا أيضًا من المصير الذي آلت إليه العديد من الأيديولوجيات العلمانية، ولكن المتدينين سيخاطرون بهذا من أجل تطبيع الصبي أو الفتاة الاعتيادية بما يكفي من الدعاية الدينية. وماذا يمكنهم أن يأملوا غير ذلك؟ إذا لم يسمح بالتعليم الديني حتى يبلغ الطفل سن الرشد، فسنعيش في عالم مختلف تمامًا.[٣]

وهكذا يرتد التلقين أحيانًا بنتائج عكسية، ولكن المتدين ليس له خيار بديل سوى الاعتماد عليه، لأنه دون ذلك التلقين لن يتدين أحد. وإلى الآن فقد أصبحت تعرف مسبقًا أن الأدلة تقف ضد فكرة استمرار الدين كليًا نتيجة التلقين. ولكن اسمحوا لي بتوضيح آخر لنقطة تتصل بادعاء هيتشينز.

افتراض أن التلقين كان حقًا الأداة الوحيدة المتاحة (للمتدين) ولكنها أحيانًا ذات (تأثير عكسي،) وهكذا لنفترض أن واحدًا من كل عشرة أطفال سيصبح غير مؤمن مع وجود التلقين. دعونا نفترض كما يبدو أن هيتشينز وغارلنغ يفترضان؛ أي أن الناس ليس عندها أي ميول طبيعية نحو التدين إن لم يتم تلقينهم دينيًا. أو إن تم تعليمهم بنفس القدر من الأفكار الدينية والأفكار اللادينية، ستسيطر حالة عدم التدين. ونتيجة لعدم قدرتهم على الاحتفاظ بأعدادهم سيقل المتدينون إلى أقل من واحد على عشرين من عدد السكان المتدينين حاليًا بعد ستة أجيال.[٤] وإن كان التلقين شريان حياة الدين؛ فلن تستمر المسيحية والهندوسية واليهودية والإسلام إلا بضعة قرون. ولكنها لا تزال موجودة، فلا بد أن الأمور تسير على نسق مختلف.

كما تعاني فرضية التلقين من قصورات حسابات التثقيف السلبي الأخرى نفسها، من ناحية لماذا يعتقد الناس ما يفعلونه، وقد دفعت المشكلة ببساطة إلى جيل جديد. لماذا يعتقد الناس بوجود الآلهة؟ لأن والديهم والأفراد كبار السن الآخرين قد لقنوهم أو (بكلمة أكثر لطفًا) ثقفوهم. ولكن لماذا آمن آباؤهم وكبار السن منهم بالآلهة؟ لأن آباءهم وكبار السن منهم ثقفوهم، وهلم جرا، على الدوام. وسنفترض وفق هذا النوع من التفسير أن سبب انتشار الإيمان بالأشباح على نطاق واسع قد يكون نوعًا من هذا القبيل:

في يوم من الأيام، وعن طريق الصدفة العشوائية، قرر شخص ما أن يؤمن بالأشباح. (كان من الممكن أن يؤمن بالبطاطس غير مرئية أو الأبقار متجاوزة الأبعاد. أو وحوش السباغيتي الطائرة أو الجوارب قارئة الأفكار، أو شيئًا مختلفًا تمامًا، ولكن حدث أن آمن بالأشباح).

ثم لقن المؤمن بالأشباح أولاده ليؤمنوا بالأشباح، وهم بدورهم لقنوا أبناءهم أن يؤمنوا بالأشباح، وهلم جرا. ومع كل جيل جديد أصبح التلقين أسهل. وانتشر الاعتقاد حتى بات يعتبر اعتقادًا ثقافيًا. مع وجود هذا العدد الكبير من المؤمنين بالأشباح أصبح التلقين تثقيفًا enculturation. وآمن المزيد والمزيد من الناس في المجتمع بالأشباح، لذلك قد يساعد المزيد والمزيد من الناس في عملية التثقيف. وهذا هو سبب إيمان الكثير من الناس بالأشباح.

يبدو أن بعض الناس (ومنهم الأكاديميون) يرون هذه التفسيرات مقبولة، أنا لست من هؤلاء الناس، وأريد أن أعرف لماذا آمن الناس بهذه المعتقدات والممارسات بدلًا من أن يؤمنوا بغيرها. ولماذا نجحت هذه المعتقدات في الوصول إلى أشخاص آخرين في حين أن معتقدات أخرى لم تنجح كما نفترضُ. لماذا لم ينجح الاعتقاد بالجوارب قارئة الأفكار؟ لماذا لم يؤمن الناس بالأبقار متجاوزة الأبعاد؟ إن التلقين أو التثقيف البسيط لا يقدم أي تفسير لهذا.

وأخيرًا فإن ادعاءات غارلنغ و هيتشينز بأن بقاء الأديان مرتبط بتلقين الأطفال الصغار وإلا فإنها سوف تختفي، يرتبط هذا الادعاء بمعايير عرقية محلية. لأن العديد من الأديان في أنحاء العالم تستبعد الأطفال منهجيًا من الطقوس والمعتقدات المركزية. فعلى سبيل المثال، نجد أن الدراسة الأنثروبولوجية الشهيرة التي قام بها فردريك بارث Frederick Barth عن شعب الباكتمان Baktaman من غينيا الجديدة تصف بدقة مجموعة من الممارسات والمعتقدات المخصصة حصريًا للبالغين الذكور. ومع وصول الذكر إلى مستويات معينة من النضج يبدأ تلقينه أسرار التقاليد بطريقة تدريجية. وهكذا فإن كبار السن من الرجال يعرفون أكثر من الشباب الأصغر سنًا، ويعرف الشباب أكثر من الذكور المراهقين. ويمنع النساء والأطفال رسميًا من تعلّم هذه التقاليد. وقد بين العديد من علماء الإنسان أن هذا النمط مألوف في الممارسات الدينية ضمن المجتمعات التقليدية. وتقوض هذه الحالات بشدّة الادعاء بأن غسل دماغ الصغار أمر ضروري لبقاء الدّين. إن

الإدراج الديمقراطي الكامل تقريبًا للأطفال (والنساء) في معتقدات وممارسات المسيحيّة قد يكون في الواقع شذوذًا ثقافيًا وتاريخيًا.

والدليل الوحيد الذي سمعته مؤخّرًا يستشهد به كأمر يتعلق بفرضية التلقين هو ملاحظة أن الأطفال يميلون إلى (وراثة) دينهم من آبائهم. فالآباء الهندوس يكبر أطفالهم فيحملون معتقدات الهندوسيّة، والآباء المسلمون ينشأ أطفالهم مسلمين. وحتى على المستويات الأصغر نجد أن الآباء اللوثيريين، والمعمدانيين، والميثوديين يميلون لأن يكون أطفالهم لوثريين، ومعمدانيين، وميثوديين، على التوالي. إن ملاحظة وجود ميل عند الأطفال لتبنّي معتقدات والديهم الدينية تدعم الرأي القائل بأن الأطفال يتأثرون بآبائهم وبالمجتمعات الّتي كبروا فيها. إن نشأ الطفل مع والدين هندوسيين ولم يكن على اتّصال مع هندوسيين آخرين، سيكون من غير المحتمل أن يكبر الطفل ويصبح هندوسيًّا. ولكن هذا لا يعني بكل الأحوال أنّه في حالة نشأ الشّخص بعيدًا عن والدين هندوسيين ودون أي تواصل مع هندوسيين آخرين، فإنّ الطفل سوف ينشأ دون أي معتقدات وممارسات دينيّة على الإطلاق. في حين تحاول فرضيّة التلقين أن تفسّر لماذا يملك الناس أي نوع وكل نوع من المعتقدات الدينيّة، فإنّ ملاحظة وجود تنوعّات معيّنة من المعتقدات الدينيّة تتأثّر بالآباء والبيئة الاجتماعيّة لا علاقة له بالموضوع.[٥]

قارن (وراثة الدّين من الآباء) بوراثة التفضيلات الطّعامية من الآباء. لا شك أنّ النّاس الّذين ينشؤون في عائلة يكون فيها الفطور حبوبًا، وبيضًا، وخبزًا محمّصًا

سيكون من المألوف أن ينشؤوا غالبًا ليتناولوا فطورًا من الحبوب، والبيض، والخبز المحمص بدلًا من الفول والفاكهة والخبز الحلو. ومع ذلك، فإننا لا نستطيع أن نستنتج من هذه الحقيقة أنّه لا توجد ميول طبيعية لأكل بعض الأطعمة أكثر من الأخرى. سنكون سخيفين إن قلنا إنّ التّلقين من الوالدين يفسّر لماذا يفضّل النّاس الطعام الحلو على الطعام المرّ، أو لماذا يميل النّاس لأكل الحبوب (الرز، والقمح) أكثر من الحشرات المفصليّات (النمل والعناكب والخنافس). إن للتفضيلات الطعاميّة مكوّنًا طبيعيًا كبيرًا يتم ضبطه وتخصيصه نتيجة العيش في بيئات ثقافيّة محدّدة. وبالمثل فإنّ المعتقد والممارسة الدينيّة هي على الأغلب طبيعيّة ولكن يجري عليها الضبط والتخصيص.

***

## هل هي السذاجة المطورة؟

وللأسباب المذكورة أعلاه لست متأثرًا بإعادة الصياغة الأخيرة لفرضية التلقين الّتي عرضت من قِبَلِ عالم الأحياء ريتشارد دوكينز في كتابه وهم الإله.[٦] ولنكون منصفين مع دوكينز فقد لاحظ أكثر من مرة أنّ حجته حول سبب اعتقاد الأطفال بالآلهة قصد منها التوضيح، ربما ليكمل تفسيرات الآخرين فقط. ولكن رغم ذلك فبسبب أن بعض الناس تملك مشاعر التعاطف مع هذه القصص ولأن دوكينز يمتاز بأنه مُحاور مؤثّر، أخشى أن بعض القراء قد أخذوا ما عرضه بشكل أكثر جديّة من دوكينز نفسه.

وأضاف دوكينز إلى التفسيرات الّتي قدمها بشكل إيجابيّ من أعمال الآخرين مساهمتين من عنده. الأولى هي نسخة من فرضية التلقين يمكن أن نطلق عليها فرضية السّذاجة المطورّة. والثّانية ضخّم دوكينز من فرضيته للسّذاجة المطوّرة عبر نظريته الشهيرة عن الميمات MEME، والتي تتضاعف بموجبها المفاهيم الثقافية قياسًا على الجينات، نحو الأفضل أو الأسوأ بسبب صفات البقاء التي تخصها. إن اقتراح دوكينز عن فرضية السّذاجة المطوّرة يعني أن البشر قد تطوروا بحيث يكون أطفالهم متقبلين سذّجًا لكل ما يخبرهم به آباؤهم. فلو أخبرهم الآباء عن إله فسيؤمنون به تمامًا دون أي اعتراض. وقد أعطى دوكينز أسبابًا تطورية لكون التّلقين ناجحًا. فإن أضفت إلى هذه السّذاجة الادّعاء بأن الاعتقاد بالآلهة ناجح خصوصًا في نشر -(فيروس العقل)، أو الميمة MEME- بسبب العواقب الخطيرة

المزعومة لعدم الإيمان (أو حتى الاعتراض على فكرة الآلهة)، فيكون لديك أساس لتعليل سبب استمرار الاعتقاد بالآلهة. إن مكانة دوكينز باعتباره كاتب علوم شعبوي يجعل من مزاعمه في هذه الحالة مستحقة لتفحص دقيق، وخصوصًا لأن مواضيع مماثلة قد ظهرت في الكتب الجديدة المناهضة للدّين لكتّابٍ مثل دانيال دينيت وكريستوفر هيتشينز.[٧] كما أن مزاعمه قد لاقت قبولًا واسعًا. ويلخص دوكينز اقتراحه المزدوج بهذه الطريقة:

إذا بسطت لك الأمور كما ينبغي، فستكمل أنت حجتي عن أدمغة الأطفال والدين. يبني الانتقاء الطبيعي أدمغة للأطفال بحيث يكون فيها ميل إلى الاعتقاد بكل ما يقوله لهم آباؤهم وكبار قبائلهم. وتكون هذه الطاعة مع الثّقة نافعة من أجل البقاء: بدل توجّه الفراشة إلى القمر. ولكن الجانب المقابل من الطاعة مع الثّقة هو سذاجة مقلدة. والناتج الثانوي الحتمي هو إمكانيّة التعرض للعدوى بفيروسات العقل.[٨]

طوّر الأطفال أدمغة مسيّرة بسذاجة مما يجعلهم عرضة للتأثّر بـ(فيروسات العقل). وفي هذا السياق، فإنّ الأفكار الدينية هي (فيروسات العقل) التي تصيب أدمغة الصغار غير المحصنة. وسبب تطوير الأطفال للسذاجة المطوّرة هو حاجة نوعنا إلى نقل المعرفة التراكميّة بنجاح، وبالأخص إلى الأطفال الّذين لا يصلون إلى النّضج المكتفي ذاتيًا إلا بفترة زمنية طويلة مقارنةً مع باقي الأنواع الأخرى. كتب دوكينز، (إننا نبقى على قيد الحياة من خلال التجارب المتراكمة للأجيال السابقة،

أكثر من كل الأنواع الأخرى، وتحتاج تلك التجارب أن تنتقل إلى الأطفال لحمايتهم ورفاههم)[٩] ويفسر ذلك:

لأسباب ممتازة تتعلق بالبقاء الداروينى، تحتاج عقول الأطفال إلى أن تثق بالآباء وكبار السّن الذين يخبرهم آباؤهم بأن يثقوا بهم. والنتيجة التّلقائيّة هي أن الشّخص الّذي يثق بغيره لا سبيل لديه للتمييز بين النّصيحة الجيّدة من النّصيحة السيّئة. لا يستطيع الطفل أن يعرف أن نصيحة (لا تجدّف في نهر الليمبوب الملِيء بالتماسيح (نصيحة جيدة، في حين أن نصيحة يجب أن تضحي بعنزة في وقت اكتمال القمر، ودون ذلك لن تهطل الأمطار) هي في أحسن الأحوال مضيعة للوقت والماعز. كلتا النّصيحتان تبدوان للسّامع جديرتين بالثقة على حد سواء، وكلاهما جاء من مصدر محترم صدرتا بجديّة مهيبة تقتضي الاحترام وتتطلب الطّاعة. الأمر نفسه ينطبق على الفرضيّات عن العالم، وعن الكون، وعن الأخلاق، وحول طبيعة الإنسان. وعلى الأرجح أنّه عندما تكبر الطفلة ويصبح لديها أبناء من رحمها، فإنّها سوف تنقل طبيعيًا الحصّة كاملةً لأطفالها -النصيحة ذات المغزى مع الهراء غير المفيد- باستخدام طريقة الوقار المعدية نفسها.[١٠]

وفق وجهة النّظر هذه، فإنّ الأطفال مسيّرون بسذاجة بشكل كبير بخصوص بعض أكثر أمور الحياة خطورةً. فهل هذا الادّعاء دقيق؟[١١] باعتباري أمضيت قدرًا كبيرًا من الوقت مع الأطفال، لدي بعض التّعاطف مع فكرة أنّ الأطفال مسيّرون بسذاجة لافتة للنّظر؛ بل حتى المراهقون قد يقعون فريسة لاحتمالية التأثّر السهل

ليعتقدوا بهذه الأمور إن أتت ممن يتمتع بمرجعية. عملت مرة في منظمة الحياة الشّابة، وكانت تخبّئ مفاجآت في برامج التخييم الخاصّة بها، وهكذا عندما يسأل المراهقون، (ماذا سنفعل بعد ذلك؟) فغالبًا ما يلجأ قادة المخيم إلى الخداع السّاخر خصوصًا بعد أن أرهقوا من تكرار القول، (فقط انتظر وشاهد)، أو (إنها مفاجأة) أو (لا أريد أن أخبرك). وهكذا سمعت قادة يقولون أشياء مثل، (سنقوم بعدّ كل الحصوات الموجودة في موقف السيّارات) وصدق حوالي ربع المراهقين ذلك (وسجلوا شكوى لاحقًا) أو يخبرهم أن لا يمشوا على العشب لأنه قد خصص باعتباره (ملجأ للديدان) وصدقوا ذلك. وأعرف صبيًا يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا اعتقد أنّ معطر أنفاس خاص سوّق باسم (لهجة إيرلندية جاهزة) يمكن حقًا أن يعطيه لكنة إيرلندية!

ليس من الصعب العثور على أمثلة لما يبدو أنّه تسيير ساذج وواسع للأطفال، والمراهقين، وحتى البالغين (فكّر في بعض العناوين الرئيسية للمجلات). إن إحدى أهم أولويات التدريس لأساتذة المدارس الثانوية والجامعات هو مساعدة الطّلاب تحت رعايتهم ليتغلّبوا على ميل قبول الأفكار دون تفحص ناقد لها. إن النص التمهيدي لعلم النفس الأكثر مبيعًا لطلّاب الجامعة وهو ما استخدمته في دروسي يتضمن فصلًا في بداية الكتاب عن التشكيك السليم healthy skepticism، وهو مبدأ أساسي لتصبح عالمًا، ولكنه مبدأ يصعب تعلّمه.[١٢] إن الادّعاءات الفاضحة الّتي تدوي من نوافذ محلّات بيع الصحف، وكذلك الانتشار

الغزير للأساطير المدنية على شبكة الإنترنت تشهد على مدى احتماليّة التأثّر الواضح للبالغين بالادّعاءات الفارغة. إذا كان الكبار يسيرون بسذاجة، فمن المؤكّد أنّ الأطفال سذّج. أليس كذلك؟

يبدو من المنطقي إمكانيّة وجود ميزة للبقاء عند هؤلاء الّذين يؤمنون بسرعة بالشهادة المرجعية للآباء وغيرهم. لأنك لو أمضيت كل وقتك تطلب دومًا أدلّة مؤيّدة أو وجهة نظر ثانية، فلن تتعلم شيئًا. وقد يكون التمهل بالحكم حتى تتكشف جميع الحقائق أمرًا قاتلًا. عندما يصيح الراعي الصغير (ذئبًا!) فمن الأفضل لنا أن نعطيه فرصة للتصديق، على الأقل في المرة الأولى أو الثانية، أو أنّ أولادنا والماشية قد تعاني نتيجة ارتيابنا.

كما هو الحال مع كثير من الادِّعاءات الكثيرة الأخرى التي تبدو بدايةً قابلة للتصديق، يكشف التدقيق القريب وجود العديد من القيود والمشاكل المتعلّقة بفرضية السّذاجة المطوّرة. ونقول باختصار إن ما طرح من الأدلّة المأخوذة من مختصي علم النفس النمائي أنّه رغم امتلاك الأطفال (والبالغين) ميلًا ساذجًا نحو سرعة التّصديق، فإن هذا الاستعداد للتصديق ليس واحدًا بخصوص جميع أنواع الأفكار أو كل أنواع المصادر. وبدلًا من ذلك فإننا نكون متحيّزين لتصديق أنواع من الأمور دون أخرى، تصديق بعض النّاس دون آخرين.

استغرب دوكينز التصديق التام الأطفال للمرجعية الأبويّة أو المرجعية المفروضة أبويًا في (ما يقترحونه عن العالم، والكون، والأخلاق وطبيعة الإنسان.)[13]

ولكن العالم دوكينز يذكر في الكتاب نفسه أيضًا أن الادّعاءات بأنّ اكتساب الأطفال للمعتقدات منحاز طبيعيًا وأساسيًّا لبعض الاتّجاهات دون أخرى في مجالات العالم، والكون، والأخلاق، والطبيعة البشرية. لن يصدّق الأطفال ببساطة أيًّا من هذه الاقتراحات على قدم المساواة أو كلها بنفس القدر من الحماس.

على سبيل المثال، أورد تضمينًا صريحًا من كتاب العقل الأخلاقي لـ مارك هاوسر Marc Hauser عن تطور إدراك الأخلاق، وقد ذكرها دوكينز بحرارة وتقدير في الفصل الذي يلي تمامًا مناقشته للسّذاجة المطوّرة، وهو أنه لا يمكنك ببساطة تعليم الأطفال أي شيء تريده عن الأخلاق.[١٤]

وفقًا لهاوزر يملك الأطفال غريزة أخلاقية moral instinct (مشابهة لقواعد اللغة) التي تحدد وتقيد مجال القواعد الأخلاقية التي من المحتمل تلقّيها وفهمها كقواعد أخلاقية ثابتة. ويشكل شرح هاوزر إحدى تعليلات تكرار القواعد الأخلاقيّة الأساسيّة عبر الثقافات من مثل —لا تقتل أفرادًا من المجموعة الخاصّة بك، أو تسرق ممتلكاتهم، أو تسرق أزواجًا من أفراد مجموعتك الخاصّة، أو تؤذي الآخرين في مجموعتك دون سببٍ، وهلم جرا. إن البديهيات الأخلاقية ليست اعتباطيّة ولم تنجح بالانتشار فقط نتيجة للسّذاجة المطوّرة.

وتمتد المتابعة المثيرة للفضول بخصوص فرضيّة السّذاجة المطوّرة لدوكينز عندما تطبق على (العالم)، و(الكون)، و(الطبيعة البشرية). ففي الأبحاث التي أجريت من قِبَلِ العلماء أنفسهم في المنشورات التي يستشهد بها دوكينز نفسها

مستحسنًا لها في الفصل ذاته من كتابه الذي طرح فيه هذا الادّعاء، بيّن هؤلاء العلماء أنّه لا يمكن لفرضيّة السّذاجة المطوّرة أن يبالغ بتوسعة نطاقها لتشمل (العالم)، أو (الكون)، أو (الطبيعة البشرية). وفي الواقع فإنّ سكوت أتران Scott Atran، وباسكال بوير Pascal Boyer، وديبورا كيليمن Deborah Kelemen قد جادلوا على النقيض من ذلك؛ أي بأنّ الأطفال متحيّزون لتبنّي بعض المعتقدات مقابل أخرى، من خلال الطريقة الّتي تعمل بها عقولهم طبيعيًا. يذكر أتران الاعتقاد بالآلهة بعبارات قوية صادمة عندما يكتب: (إن الفاعلية الخارقة للطبيعة في الدين هي الأكثر تكررًا في الثقافات، والأكثر صلة معرفيًا، وهي المفهوم الأكثر بروزًا في التطور. إن مفهوم الخارق للطبيٰعة مُشتق ثقافيًّا من مخطط معرفيّ فطريّ)[15] فوجهة نظره هي أنّ بيولوجيتنا تجعلنا متحيزين نحو الإيمان بالآلهة. لا يقوم التسيير الساذج الأعمى بالمهمّات من تلقاء نفسه ولا يمكنه ذلك. وعلى نحو مماثل، شاركت في الفصل الثاني شيئًا من بحث كيلمن الذي يبين أن الأطفال الصغار منحازون لرؤية العالم الطبيعي كما لو تم تصميمه لغاية من قبل نوع من العوامل الفاعلة. ويبدو أن الاقتراح المقابل لذلك، مثل تفسير الانتقاء الطبيعي للتصميم الظاهر في الكائنات الحيّة، لا يجد عند الأطفال قبولًا كافيًا. لنجعل شخصًا يمثل مرجعية موثوقة يخبر أطفالًا بعمر ست سنوات أن الحيوانات قد تطوّرت من حيوانات مختلفة، ونجعل شخصًا آخر يمثل مرجعية موثوقة يخبر نفس الأطفال أنّ الحيوانات قد خلقها الله لغاية، ويدلنا العلم حتى اليوم بأنّ الغالبية العظمى من الأطفال سيؤمنون بفكرة

الخلق.[١٦] فإن عقول الأطفال بكل بساطة أكثر تقبّلًا لبعض الأفكار دون أفكار أخرى (كذلك عقول البالغين في هذا الشأن).

***

## يجب على الأطفال أن يفهموا وإلّا فلن يؤمنوا

على أقل تقدير فإن طريقة مباشرة نسبيًا ستجعل نسخة قوية من فرضية السّذاجة المطوّرة مضلّلة؛ وهي حقيقة أن تصديق أمر لا تفهمه أصعب من تصديق أمر تفهمه. عندما علّمت ابنتي في المنزل حاولت تدريسها الرياضيات، وكانت أحيانا لا تتمكن من فهم ما كنت أحاول أن أعلّمها إياه، كما لو أنّ كلامي يمر ببساطة فوق رأسها دون أن يدخل على الإطلاق. لم تكن المشكلة أنها لم تكن تميل إلى تصديقي؛ بل لم تكن بعض المعتقدات المعيّنة الّتي حاولت نقلها ذات معنى بالنّسبة لها. إن قلت لطفل إن معظم الأشياء في الكون هي مادة مظلمة غير مرئية لا يمكن مشاهدتها ولكن يمكنها أن تمارس قوة الجاذبية على النجوم والمجرات وهكذا دواليك، قد يومئ الطفل برأسه معي ويصدّقني ظاهريًّا. إذا كان ما أقوله يبدو للطفل كأنني أقول «معظم الأشياء في بلاه بلاه هو بلاه بلاه التي لا يمكن رؤيتها إلا بلاه بلاه بلاه على النجوم وبلاه بلاه بلاه» ومع ذلك، فإنه من المبالغة القول إن الطفل قد اكتسب الآن فكرة جديدة يؤمن أو تؤمن بها. وبالمثل، إذا حاولتُ إقناع طفلي بأن يعتقد بأن هناك بطاطا خاصّة موجودة في الأبعاد السّبعة للمكان والزمان، ويمكنها قراءة عقول النّاس قبل أن يكوّنوا الأفكار، وتختفي

في أي وقت ينظر إليها أحدهم، وأنها تدخل وتخرج من الوجود كل يوم ترتيبه رقم أولي من الشهر ويصادف يوم الأربعاء، وأنها مهمة جدًا لمعرفة إن بإمكان أثير كل شخص الانتقال إلى العالم السابق بعد التّقمص كأحد كائنات الأوالي، فعلى الأرجح سيقوم الطفل (أو الكبير) بالرّد بشيء من قبيل، «هممم، بطاطا، أنا أحبها مقليّة». إن قليلًا من الفهم عند الطفلة ضروري لتمكينها من الإيمان بمعتقد، ولتقيد قدراتها الإدراكية لما تفهمه. وبالتالي فما يؤمن به الأطفال مقيّد بقدراتهم الإدراكية بغض النظر عن مدى قوة تأييد الوالدين للفكرة وحماسهما لها. عندما يتعلق الأمر بالمعتقدات الدينية، وإذا كانت الأفكار بعيدة عن الحدس كثيرًا وتقع بالتالي بعيدًا جدًا خارج القدرات الإدراكية للأطفال، فهذه الأفكار لن تصدّق. وبالمقابل فإنّ المفاهيم التي تدرك بسهولة وتتماشى مع تحيّزاتهم التصوريّة التي تنشأ طبيعيًا ستكون أكثر احتمالًا لأن تصدّق.

وبأسلوب ذي صلة نجد أنه اعتمادًا على عمر الطفل، وعلى نوع المعلومات، قد لا يستطيع الأطفال ببساطة تقبل شهادة الآباء. وتذكّر تجربة جون فلافيل John Flavell مع الكأس الأزرق والأبيض المشروحة في الفصل الخامس. فإنّ البالغ على الجانب الآخر من الحاجز الّذي يفصله عن الطفل والكأس الأزرق يقول بوضوح، (لا أستطيع أن أرى الكأس. امـم. أعتقد أن عندك كأسًا أبيضَ. أعتقد أنك عندك كأسًا لونه أبيض.) لقد عبرت البالغة (إيلي) للطفل عن معتقداتها للتّو -وهو نوع من الأمور غير المشاهدة الّتي يجب أن يعتمد فيها الأطفال على شهادة

الآخرين ليتعلّموا عنها. ولكننا قد رأينا لتوّنا أنّ العديد من الأطفال بعمر ثلاث سنوات لا يقبلون ببساطة هذه الشّهادة. فعلى العكس مما قالته إيلي، يصرّون على أنّها تعتقد أن الكأس أزرق.

فرضية السّذاجة المطوّرة لم تتجاوز نقطتها الحرجة عندما يكون الأطفال في سن أربعة أو خمسة أعوام على حدٍ سواء. فعند هذا العمر، يمكن للعديد من الأطفال أن يستخدموا بنجاح شهادة إيلي وهم ميّالون ليعطوها فرصة للتصديق في الكثير من الأوقات، تمامًا كما يفعل الكبار. لقد تطوّر فهم الأطفال للعقول (نظرية العقل) بما يكفي لأن يفهموا أن إيلي قد تبنت اعتقادًا خاطئًا، وأن يصدقوا تصريحها عن اعتقادها. ولكن لنلاحظ مع ذلك أن هذا الفهم حول احتمال الخطأ في الاعتقاد تمكنهم في الوقت نفسه أن يشكوا بما يقوله الآخرون. على سبيل المثال، إذا كانت طفلة تبلغ من العمر خمس سنوات تعرف أنك كنت موجودًا خارج الغرفة عندما نُقلت الشوكولاتة من خزانة إلى أخرى، فهي تعرف أنّك لست مصدرًا موثوقًا به لتخبرها بمكان الشوكولاتة. فشهادتك، في هذا الصدد، لا تؤخذ على محمل الجد كثيرًا. (في هذا العمر أيضًا، يبدأ الأطفال بتجريب الكذب الحقيقي بأنفسهم.) لذلك فقبل أن يفهم الأطفال أن المعتقدات قد تكون خاطئة، لن يستطيعوا ببساطة استخدام كل شهادات الكبار. وبعد أن يفهموا أن المعتقدات قد تكون خاطئة، يتعلم الأطفال أن لا يعتمدوا دومًا كل شهادة للكبار. فالنسخة البسيطة جدًا من فرضية السّذاجة المطوّرة غير نافعة.

## بعض مصادر الشهادة أفضل من مصادر أخرى

من المضاعفات الأخرى للنسخة الشديدة من فرضية السّذاجة المطوّرة هي وجود أبحاث تشير إلى أنّ الناس (منذ الطفولة) حساسون جدًا لمن يشكلون نموذجًا جيدًا للمحاكاة. كما وضّح المختص بعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وعلم النفس جو هنريش Joe Henrich، وربما بسبب الانتقاء الطبيعي، لا يتبع الناس اتباعًا أعمى المثال (المحكي أو غيره) لأي والد أو راشد ذي مرجعية.[١٧] وبدلًا من ذلك يحدّدون قدواتهم الأنسب بحسب نوع المعلومات أو المهارات الّتي يريدون أن يتعلموها. ولهذا السبب يميل الأولاد في المجتمعات التقليدية إلى تقليد الذكور الناجحين من المستويات العالية بخصوص ما يتعلق بالممارسات التي يجب عليهم إتقانها، مثل الصيد والتنقل في الغابات والقتال. وسيكون ما تقوله أمهاتهم عن هذه الجوانب من العالم والطبيعة البشرية أقل أهمية مما يقوله بطل حرب في قرية أو صياد عظيم. هذا الانتباه الانتقائي مهم بشكل خاص خلال سنوات المراهقة. إذا أعطت زوجتي نصيحة متعلقة بكرة السلة لابني، سيلتفت إليَّ ويقول: (ما رأيك يا أبي؟) وإذا قدمت آرائي بعرض أزياء لابنتي، سترفرف بعينيها وتشاور والدتها. التسيير الساذج محدود بالمصدر. هذا النوع من (التسيير الساذج) لا يختلف كثيرًا عمّا يمارسه المتعلمون والراشدون المشكّكون بشكل سليم. إذا تحدّث خبير معروف عن شيء نهتم به، فسنستمع له.

اقترح دوكينز سهوًا (كما أتمنى) رؤية عن نمو عقل الطفل البشري بأن عقل الطفل صفحة بيضاء تنتظر فقط ليتم ملؤها. وكما قال نيكولاس هامفري

Nicholas Humphrey، (يصاغ الأطفال بالكلمات التي يسمعوها)[١٨] وتضمن وجهة نظر هذه في العديد من العلوم الاجتماعيّة، ولكنها ظاهرة جدًا في العلوم النفسيّة منذ مدّة لا تقلّ عن ثلاثة عقود. عندما بلغت ابنتي سبع سنوات من العمر، أخذتها مع ابني ووالدي في رحلة تجديف قوارب في مُنطقة بريّة، ومررنا بثعبان يتشمّس في منتصف طريقنا. ولاحظ جدّ الطفلين المحبوب والمحترم أنّه يوجد فقط نوعان من الثعابين في العالم: الأفعى الجرسيّة والكوبرا. وبما أنّ الأفعى الّتي أمامنا لم تكن أفعى جرسيّة بوضوح -لا تملك أجراسًا- فهي أفعى كوبرا. ومن المعروف أن الكوبرا أفعى خطيرة جدًا، فكيف تلّقت فتاة بعمر ست سنوات هذه المعلومة في هذا السّياق الذي لا بد أنه شكل ضغطًا انتقائيًّا على أسلافنا التطوريين؟ لقد التقطت الأفعى، إنَّ سذاجة الأطفال ليس بالبساطة التّي قد تظهر للعيان أول مرة.

ونقول مجددًا، إنصافًا لدوكينز إن اقتراحه حول مدى سذاجة الطفولة بالإضافة لأنواع التحيّزات التي حددها أتران، بوير، إيفانز، هاوزر، كيليمن، وآخرون قد يدفع إلى قبول نسخة ضعيفة نسبيًا من فرضية السّذاجة المطوّرة. إن السمات الطبيعية التي نمت مبكرًا في العقول البشريّة تدفع إلى تحيّز الأطفال (والكبار) نحو الاعتقاد في الآلهة واعتماد مواقف أخلاقيّة معيّنة ثم لوجود ميل عام (ولكن ليس مطلقًا) إلى الاعتقاد بأي شيء يتم تعليمه لهم مما يرسّخ أنواعًا معيّنة للتغيرات في تلك المعتقدات الدينيّة. إن البنية العقلية الطبيعية ترسّخ الأفكار

الدينيّة، ولكن تقبّل شهادة الكبار يساعد على انتشار، وتضخيم، وحتى على تنويع هذه المعتقدات الدينية. إن كان هذا ما يرمي إليه دوكينز، فإن موقفي لا يختلف كثيرًا (على الأقل في هذا الأمر). لكن دوكينز يطور هذه القصة بشكل مختلف عمّا كنت سأفعله. وعندي على وجه الخصوص تحفظات على مقارنة المعتقدات الدينيّة بفيروسات العقل.[١٩]

***

## الفصل التاسع

# هل الإلحاد غير طبيعي؟

عندما أحاضر وأشرح كيف تدلنا الدراسة العلمية للدين على طبيعية الاعتقاد الديني وتدلنا بالأخص على الاستعداد الجيد عند الأطفال للاعتقاد بالله يسألني ما نسبته واحد من خمسين من الحضور الجامعي شيئًا على غرار (إن كان الدين طبيعيًا إلى هذه الدرجة حقًا، فما مشكلتي؟ وبعد محاضرة ألقيتها مؤخرًا في جامعة كوبنهاغن، علقت إحدى الحاضرات بأنها لا تتذكر أبدًا أنها آمنت يومًا بالله. فما الذي يفسر عدم الإيمان هذا؟ ربما عرضتْ لقارئ هذا الكتاب أسئلة مشابهة وألحتْ عليه. فإن كان الدين طبيعيًا جدًا، فهل يعني ذلك أن الإلحاد غير طبيعي ويحتاج إلى تعليل خاص؟

هذا مجال يحتاج إلى مزيد من الاهتمام البحثي والعلمي، وما أقدمه لكم هنا أقرب إلى أن يكون طريقة لفهم الملاحظات العامة من أن يكون نظرية تامة ومختبرة علميًا. بعض الناس قد أصبحوا ملحدين وليس مجرد أشخاص غير مهتمين بالله أو غيره من الكائنات المتجاوزة للطبيعة؛ بل ينكرون وجود أي عوامل متجاوزة للطبيعة بما فيها الإله، والأرواح، والأشباح، والملائكة، والشياطين، والسحرة،

والجنيات. أنا لن أعرض أسبابًا تدعم الإلحاد، أو تدافع عنه، ولكن سأطرح أنواعًا من العوامل المؤثرة التي قد تساهم في جعل شخص ما ضد الفكر الديني.

***

## الإلحاد أكثر ندرة مما تظن

إن كنت أحد هؤلاء الناس الذين لم يتذكروا أنهم آمنوا يومًا بأي نوع من الإله - بما في ذلك الأشباح، والجنيات، والملائكة، وما يشبهها- فأول ما عليك إدراكه أنك غير عادي أبدًا. وقد يكون من الصعب أن تصدق أنك خاص في هذا الصدد. فلعلك تعرف على الأقل حفنة من الأشخاص الآخرين مثلك ممن يعتقدون أنهم لم يؤمنوا من قبل قط، ولكن إياك أن تقع ضحية ما يسميه علماء النفس الكشف وفق مجريات الأمور المتاحة، وهو الميل إلى الحكم على مدى الشيوع العام للأمور بناءً على درجة سهولة التفكير في أمثلة معينة.[1] إن استراتيجية التفكير المنطقي هذه فعالة في كثير من الأوقات، ولكنها تؤدي أيضًا إلى أخطاء كبيرة في التقدير، يدفع الكشف وفق مجريات الأمور المتاحة بشكل متكرر إلى مبالغة الناس في تقدير درجة تمثيلهم أو درجة تمثيل فئتهم الاجتماعية ضمن عموم الناس. وللأسف غالبًا ما نقع فريسة سهلة لمركزية الذات egocentrism وإن كان الأجدر بنا أن لا نكون كذلك.

ويجب أن نعتبر أيضًا ميلنا إلى التفاعل أكثر مع الأشخاص المشابهين لنا، وقد أثبتت أبحاث علماء النفس الاجتماعي مرارًا وتكرارًا بأننا نحب الناس الذين

يشبهوننا (فالطيور على أشكالها تقع)[٢]. وبما أن الملحدين ليسوا مختلفين في هذا الشأن فهم أكثر عرضة للتواصل مع الملحدين الآخرين، وهذا سيزيد في تضخيم الخطأ المحتمل للاعتماد على الاستنباط من مجريات الأمور المتاحة.

وقد يكون الملحدون الجامعيون ممن يعمل في المجال التدريسي الجامعي الأكثر تعرضًا إلى المبالغة في تقدير مدى شيوع الإلحاد على أرض الواقع. وذلك نتيجة أسباب اجتماعية وسياسية مختلفة، يعلن الملحدون إلحادهم بأريحية في اللقاءات العامة، بينما يتحرج المؤمنون بالآلهة، والأشباح، والأرواح من التصريح بالتزاماتهم. ولاحظت في مؤتمر عقد مؤخرًا (عن الدين) أن أكثر من نصف المتحدثين اللادينيين تمكنوا من إعلان إلحادهم ضمن عروضهم التي قدموها، في حين لم أسمع مؤمنًا واحدًا (وكان هنالك الكثير منهم في المؤتمر) ذكر اعتقاده/ اعتقادها الديني خلال العرض الذي قدموه (باستثناء عرض لمتكلم يبدو أنه طرح الإيمان بالله والإلحاد في نفس الوقت). وهكذا فالملحدون الذين لا يسمعون إلا زملاءهم وهم يؤكدون الإلحاد، سيكونون أكثر عرضة للاعتقاد بأن جميع من حولهم ملحدون.

إذًا كم هي نسبة الملحدين حقًا؟ من الصعب معرفة ذلك. لأنه من المؤكد أن الدراسات الاستقصائية عن المعتقدات المعاصرة مثل تلك الدراسة التي دلت على أن واحدًا من كل عشرين أميركي لا يعتقدون بوجود الله على الأرجح قد قللت من نسبة الناس الذين يعتقدون بوجود كائنات متجاوزة للطبيعة. كما أن

هذه الاستطلاعات تفشل في تحديد الناس الذين قد لا يعتقدون في (الله) (كما هو مفهوم عادة في اليهودية أو المسيحية [أو الإسلام]) ولكنهم يؤمنون بالأشباح، والأرواح، وروح الأرض الأم غايا، والوعي المطلق، والروح الكلي، أو أي آلهة أخرى (وفق تعريفي المعتمد على العلوم الإدراكية). يندرج ضمن هذه الفئة إحدى أفراد أسرتي. فلو سألتها ستقول لك إنها ملحدة ولكنها تعتقد بوجود الأشباح. وكذلك يندرج صديق آخر يرفض وجود إله، إلا أنه يعتقد أن الموتى يمكنهم التواصل مع الأحياء. لكن صديقة أخرى تدعي أنها لا تؤمن بالله لأنها غاضبة منه. (لست متأكدًا من إمكانية أن تكون غاضبًا من شخص وأنت تكفر بوجوده في نفس الوقت) في كثير من الأحيان يكون قياس من هو المؤمن بالمتجاوز للطبيعة، ومن هو ليس كذلك بالمعنى الإدراكي يشبه إلى حد كبير محاولة قياس من هو عنصري؛ فبعض الناس تنكر ذلك، ولكن سلوكياتهم تروي قصة مختلفة. وعلى سبيل المثال، في أحد الأبحاث التي أجريت مؤخرًا في الصين بيّنت أنه على الرغم من أقل من ١٠ في المئة من الصينيين يعتبرون أنفسهم بوذيين، فإن حوالي نصفهم صلوا إلى بوذا أو بوديساتفا في العام الماضي.[٣] حتى مع مشكلة القياسات قد تكون أوروبا القارة الوحيدة التي يقترب عدد البالغين الملحدين فيها من ثلث السكان (بعض التقديرات تعطي تقديرًا أقل من ذلك بكثير). ومن الصعب العثور على بالغين ملحدين في كل من أفريقيا، وأمريكا الشمالية، وأمريكا الجنوبية، ومعظم آسيا. وقبل أقل من مائة عام وحتى زمن يرجع إلى نقطة لا يمكننا إدراكها من

التاريخ، كان كل الناس عمليًا يؤمنون بنوع ما من الاله. وهكذا فلو أخذنا مجمل المدى الزمني لوجود الإنسان، عبر جنسنا البشري، فقد كان الإيمان بالله هو الأمر الاعتيادي، وكان عدم الإيمان أمرًا غير معتاد على الإطلاق.[٤]

فالناس الذين لا يؤمنون بأي آلهة (وفق تعريف واسع) نادرون إلى حد ما في المخطط الأساسي للأشياء، أما الذين لم يؤمنوا أبدًا بأي نوع من العوامل فوق البشرية فهم أندر من ذلك. فماذا عن المرأة التي قالت إنها لم تؤمن بالله في أي وقت من حياتها؟ بالتأكيد لا أنكر وجود مثل هؤلاء الأفراد، ولكن إن كنت تعتقد أنك قد تكون أحدهم، فاحذر من التسرع بالاستنتاج. لأن عدم تذكرك أنك في أي وقت مضى قد آمنت بنوع من الآلهة، والأشباح، وما يشبه ذلك، يختلف عن عدم الإيمان في أي وقت مضى حقًا. فالناس لا تذكر تمامًا مرحلة الطفولة المبكرة، وتوصف هذه الظاهرة بظاهرة فقدان الذاكرة الطفولي childhood amnesia. والأشياء التي نعتقد أننا نتذكرها -حتى مع الحيوية الكبيرة والثقة- تكون في كثير من الأحيان ذكريات غير حقيقية.[٥] وإني أراهن بأن نسبة كبيرة من الناس الذين يعتقدون أنهم لم يكن لديهم معتقدات متجاوزة للطبيعة، قد اعتقدوا في الواقع بها ولكنهم نسوا الأمر بعد ذلك.

بغض النظر عن هذه الملاحظات الأولية، فالذين لا يؤمنون بالله موجودون فعلًا في المجتمع. فهل افتقارهم إلى الاعتقاد أمر غير طبيعي؟ وإن كان غير طبيعي فهل يعني ذلك أنهم مرضى، أو مجانين، أو مضطربين نفسيًا، إن الجواب هو بالنفي.

أما إذا كان الوصف بالطبيعي يعني التعبير النموذجي عن الطبيعة البشرية، فنقول نعم. إن افتقارهم إلى الاعتقاد أمر غير طبيعي. إن كان وصف حالة أنها غير طبيعية يعني أنها غير مدعومة جيدًا من قبل الأنظمة المعرفية الطبيعية العادية للتمييز، فعند ذلك نقول، نعم، إن الإلحاد أمر غير طبيعي، ولكن كذلك سيكون عازف البيانو في الحفلات، أو العالم المرموق، أو اللاهوتي المعاصر.

نقص الإيمان بالعوامل المتجاوزة للطبيعة مع الإيمان بها هو ميل إنساني عام يمكن أن يعزى إلى مجموعة من العوامل الشخصية والاجتماعية أو البيئية. وأقصد بالعوامل الشخصية، مجموعة العوامل البيولوجية والنفسية التي يتباين بها الأفراد. أما العوامل الاجتماعية أو البيئية فأعني بها تلك الظروف التي تحيط بنا -مكان عيشنا، الناس الذين نتفاعل معهم، وهلم جرا- مما يؤثر على معتقداتنا وسلوكياتنا. وأعتبر أن هذه العوامل لها تأثير سببي يحدد ما هي الأفكار التي يرجح قبولها، والتي ستصبح معتقدات وتنتشر على نطاق واسع في السكان. إنني أميز بين العوامل من جهة، وبين الأسباب التي قد يطرحها شخص ما لتبرير معتقده. قد يكون لدى شخص ما أسباب وجيهة تمامًا لتبرير معتقداته، ويخضع في الوقت نفسه إلى عوامل ساهمت في ترجيح اعتقاده بأمر دون أمر آخر. وسأصف أدناه بعض العوامل التي قد تسهم في ترجيح جعل شخص ملحدًا، وسأغض الطرف عن الأسباب.

***

## العوامل الشخصية

إن أي قدرة تنشأ طبيعيًا في عدد كبير من السكان، ستكون متفاوتة بينهم. ولنضرب مثالًا بالمشي، فهو مثال رائع على قدرة طبيعية. رغم أن الغالبية العظمى من البشر البالغين يسيرون على الأقدام بشكل سوي وطبيعي تمامًا، يوجد بينهم بعض التباين. فبعض الناس تكون الساقان عندهم مختلفة الطول قليلًا، مما يصعّب عليهم المشي المريح. وتكون مفاصل الركبتين عند بعض الناس ضعيفة، فتحد من قدرتهم على تحمل المسير. وبعض الناس يعانون من مشاكل في المراكز الحركية في أدمغتهم وهي لازمة لتنسيق الحركة مما يجعل المشي مؤلمًا وأقل سلاسة. وقد رأينا كلنا أشخاصًا يسيرون بشيء من الصعوبة أو يحتاجون معونة من عصا أو أطراف صناعية لمساعدتهم على المشي. وفي الحالات القصوى كما عند الأشخاص الذين ولدوا بأرجل ناقصة البنية أو الذين يعانون من اضطرابات حادة في الجهاز العصبي قد يصبح المشي مستحيلًا. إن وجود مثل هؤلاء الناس في السكان أحيانًا لا يعني على الإطلاق أن المشي ليس طبيعيًا.

إن عدم الإيمان بأي نوع من الآلهة ربما يثبت أنه سمة تماثل عدم القدرة على المشي. قد يوجد لدى بعض الناس عوامل شخصية مثل الاستعداد البيولوجي والنفسي وهو الذي يجعل من هذا الاعتقاد صعبًا للغاية، وقد يتطلب الأمر تدخلًا بطوليًّا أو (اصطناعيًّا) لجعل الاعتقاد بما وراء الطبيعة ممكنًا. وقد بدأت الدراسة العلمية للإلحاد مؤخرًا، وفيها يمكنني تقديمه بالتالي مجرد طروحات تعتمد على

تخمين يخص أنواع العوامل الشخصية التي قد تمنع شخصًا ما من أن يصبح مؤمنًا بشكل طبيعي.

أحد العوامل التي أكدها عددٌ كبير من علماء الإدراك الديني هي نظرتنا للنظام الذهني والتفكير الاجتماعي ذي الصلة باعتبارهما محورًا للفكر والفعل والتجربة المرتبطة طبيعيًا بالدين. وباختصار يصعب دون قدرة جيدة على التفكير بالحالات الذهنية للعقول الأخرى (نظرية العقل) على الأخص التفكير بعقول غير بشرية خفية مثل عقول الأشباح، والأرواح، والآلهة. كما هو الحال مع أي قدرات طبيعية للتمييز، إن سهولة وسرعة عمل نظام الذهن يتباين بين السكان. وقد وضعت عالمة النفس سايمون بارون كوهين Simon Baron-Cohen خطة بحث للتحقيق في هذا النوع من التباين في نظام الذهن والإدراك الاجتماعي ذي الصلة. ووصفت بشكل مثير للجدل غياب القدرات والاهتمامات المعرفية الاجتماعية القوية بأنها عقلية ذكورية male-brainedness.[٦]

وقد سمي هذا الاستعداد الشخصي العقلية الذكورية وليس مجرد الذكورية maleness لأنه قد توجد في بعض النساء كما توجد عند الرجال، كما يختلف الرجال فيها اختلافًا كبيرًا من حالة قوية جدًا إلى غياب كلي أساسًا. يبدو أن وجود الصبغي واي Y ليس ضروريًا ليكون الإنسان ذا دماغ ذكوري، على الرغم من أن الرجال أكثر عرضة بعدة أضعاف لوجود حالة عقلية ذكورية حادة. فإن أحد العوامل البيولوجية التي تتنبأ بقوة بحالة ذكورية العقل (تظهر بوادره من المهد)

مستوى هرمون التستوستيرون في الرحم.[٧] وهو شكل سريري متطرف، وتجادل بارون كوهين بأن مرض ذكورية العقل في أشد صوره يتجلى بمرض التوحد Autism.

إن الشخص المتصف بحالة شديدة من ذكورية العقل، سيفضل في غضون ساعات من الولادة النظر إلى الهواتف النقالة بدلًا من النظر إلى الوجوه البشرية. وخلال سنتي الرضاعة يكون الفرد ذو العقلية الذكورية ميالًا لتفضيل اللعب مع المكعبات والألعاب الآلية بدلًا من اللعب بالدمى وألعاب المنزل. وفي سنوات المدرسة وحتى سن البلوغ، يُظهر دماغ الفرد ذي العقلية الذكورية مهارات قوية في تنظيم الأمور، ويبدي اهتمامًا كبيرًا وقدرة في إدراك كيفية عمل الأشياء، في رؤية الترتيب في الأنظمة المعقدة. وقد يميل إلى العلوم والرياضيات والهندسة والعمارة، أو قد يركز اهتمامه بالتنظيم على النظم البشرية مثل النظم السياسية والاقتصادية، ولكن هؤلاء ليسوا عمومًا ما يمكن أن تسميه (أفرادًا من البشر) إذ تترافق قوة أصحاب العقلية الذكورية في التنظيم مع ضعفهم في (التعاطف).

فيبدون على العموم تقديرًا أقل للحالات الذهنية والعاطفية للآخرين، وربما لا يدركون تمامًا وجود هذا الضعف النسبي. فالشخصية ذات العقلية الذكورية لا يتابع جيدًا مسار اعتقادات ورغبات ودوافع الآخرين. ومن المرجح لصاحب العقلية الذكورية أن يستريح أكثر لقراءة مجلة الميكانيك الشعبي والكتابة العلمية الشعبية على قراءة مجلة الناس وروايات جين أوستن. ولننتبه أن مجرد كون الدماغ

ذكوريًا فهذه ليست حالة مرضية، ولا يؤدي ذلك بالضرورة إلى أي مشاكل ملحوظة بالمعيشة. وفي الواقع قد يكون الأشخاص ذوو العقل الذكوري من المتفوقين في العديد من مجالات الحياة العامة، بما في ذلك المجال الأكاديمي.

إن كانت نظرية العقل وما يتصل بها من الإدراك الاجتماعي أمرًا حاسمًا جدًا للاعتقاد الإيماني، وإن كانت الحالات الشديدة من ذكورية العقل تضعف هذه القدرات الاجتماعية المعرفية أو تحرم منها، فربما نتوقع عندها ميل الناس الذين وجدوا من الصعب دومًا أو المستحيل عليهم أن يؤمنوا بأي آلهة إلى أن تكون عقولهم أكثر ذكورية. كما يبدو من وجود صفة ذكورية العقل منذ الولادة (رغم أنها قد تتضخم نتيجة القرارات والمصالح اللاحقة)، فقد توجد مقاومة للإيمان منذ الولادة عند أمثال هؤلاء الناس، وهذه مسائل بحثية مفتوحة للمتابعة. ومع ذلك توجد أدلة تشير إلى أن الغالب أن الإلحاد ينتشر في الذكور أكثر من الإناث (كانت نسبة الملحدين الذكور أعلى بخمسة أضعاف أو أكثر في عدة دراسات).[٨] كما أن هنالك نتيجة مثبتة ومتكررة عبر الثقافات وهي أن النساء تميل إلى أن تكون أكثر تدينًا والتزامًا من الرجال.[٩]

قد يكون من المغري بالنسبة لنا نحن الأكاديميين عند ملاحظة أن نسبة الملحدين في زملائنا المرموقين أكثر من نسبتهم في عامة الناس عمومًا أن نذهب إلى استنتاج مفاده أن الحصول على تعليم جيد أو امتلاك ثقافة أعلى هو ترياق ضد العدوى بالمعتقد الديني. وأظن أن هذا هو هدف زميلي في أكسفورد ريتشارد

دوكينز لجدولة ما يعتقد أنهم العلماء البارزون في أحد كتبه.[10] ولكن كما يعرف علماء الاجتماع يجب التعامل مع مثل هذه الارتباطات الظاهرية بعناية لأنها قد تحمل العديد من العوامل المسببة للتداخل ضمنها. وقد لاحظ عالم النفس ديفيد مايرز على سبيل المثال أن مجموعة الملحدين المؤيدين لدوكينز هُم بالأساس نادٍ من الذكور البيض.[11] فهل كون المرء أبيضَ، وذكرًا، وعلى درجة عالية من التعليم، يشكل عاملًا إضافيًا آخرَ يربط هذه الميزات معًا ليكون ملحدًا، وبالتالي لا يكون الذكاء هو محور التأثير؟ هذا ممكن بالتأكيد. إن هذه الارتباطات بين التحصيل العلمي والإلحاد، وبين الذكورة والإلحاد، تقدم أسسًا ضعيفة لاستنباط العلاقة السببية بين الذكاء والإلحاد، أو المعرفة العلمية والإلحاد. وما تقدمه لنا هو دافع إضافي لنستكشف إن كان شيئًا كذكورية العقل التي اقترحتها بارون كوهين مع الميل نحو النجاح العلمي للنخبة في برجها العاجي يحتمل أن يكون عنصرًا مؤثرًا في تحديد من سيكون ملحدًا تمامًا.

اقترح باحث الدين بنسون سلر Benson Saler وزميله تشارلز زيغلر Charles Zigler ارتباط عامل شخصي آخر من منشأ جيني قد يساهم بشكل غير مباشر بالوصول إلى الإلحاد.[12] فعبر مجموعة معينة من التغيرات في النواقل العصبية الكيميائية يصبح بعض الأفراد أكثر أقل اهتمامًا بالبحث عن نشاط العوامل الفاعلة ذات القصد في بيئته. وهذا يعني أن الوراثة الجينية الفردية قد تؤدي إلى تباينات في أفضلية الأفراد لمشاهدة الأحداث باعتبارها نشاطًا بشريًا أو نشاطًا فوق بشري، في

حين يراها الآخرون نتاج الصدفة أو العمليات الطبيعية.

يمكن حشد أدلة لدعم هذا الادعاء بخصوص الاعتقاد بالآلهة، ويقول هذا الافتراض إن الأفراد الذين لا يمكنهم فهم لماذا يعتقد معظم الناس بالآلهة، ربما ورثوا هذا الاستعداد المسبق مما يجعلهم أقل عرضة لكشف وجود الفاعلية ذات القصد حولهم. فهذا الموروث الجيني بالإضافة إلى العقلية الذكورية التي يبدو أنها (على الأقل جزئيًا) تنتج عن مستويات هرمون التستوستيرون قبل الولادة، قد تجعل الأفراد ينجذبون خصوصًا إلى الإلحاد و يلتبس عليهم الإيمان.

***

## العوامل البيئية الاجتماعية

إن العوامل الشخصية تفسر جزئيًا سبب وجود عدد قليل من الملحدين دومًا في الجماعات البشرية، ولكن من الحكمة أن نبحث عن العوامل البيئية التي تفسر الارتفاع الظاهري في نسب الإلحاد على مدى الخمسين سنة الماضية. ربما أصبحت العقلية الذكورية أكثر شيوعًا في الجماعات السكانية نفسها التي (على ما يبدو) تشهد ارتفاعًا في نسب الإلحاد. ربما كان ذلك، ولكن نظرًا إلى أن الإلحاد يتركز فيما يبدو في عدد صغير نسبيًا من البيئات البشرية، قد يكمن جزء من الجواب على الأرجح في تركيبة من العوامل الاجتماعية والبيئية.

***

## الشبكات الاجتماعية

اقترح ويليام بينبريدج William Bainbridge أن أحد العوامل قد تكون شبكة العلاقات الاجتماعية الحميمية وشبكة الاعتماد بين الناس. فقال إن الناس الذين يهتمون جيدًا بالآخرين (تقليديًا تهتم الإناث بالآخرين أكثر من الذكور) لا يمكنهم في كثير من الأحيان تلبية كامل احتياجات الآخرين لأن بعض الاحتياجات تقع خارج القدرة البشرية أو الموارد المتاحة. فأنت كمقدم للرعاية قد تعجز عن حماية أطفالك، وتغذيتهم جيدًا والحفاظ على صحتهم، وعلى سعادتهم. ولذلك كما يقول بينبريدج يلجأ مقدمو الرعاية إلى استراتيجيات تعويضية ومن بينها الممارسة الدينية. فكتب (إن الشخص الذي لا يعتمد عليه أحد، ويفتقر إلى روابط اجتماعية قوية تفرض مثل هذه الالتزامات، سيكون أكثر عرضة لاعتناق الإلحاد.[١٣] وبما يتفق مع هذا الادعاء قدم بينبريدج بيانات استقصائية تبين أن الشباب الذكور العزاب ممن ليس لديهم أطفال عندهم أعلى معدلات الإلحاد مقارنة بغيرهم، فإنجاب الأطفال يؤثر بقوة ضد الإلحاد. وقدم بيانات مثيرة تبين أن مستويات الإلحاد المجتمعية ترتبط بمعدلات الخصوبة الوطنية. فالدول التي يوجد فيها عدد أقل من الأطفال (بالأخص معظم أوروبا) تميل إلى معدلات إلحاد عالية.[١٤]

أقل إلحاحًا، حالات أقل للجهاز كشف الفاعلية فائق الحساسية HADD.

كما بينت في الفصل الأول فإنَّ إحدى العوامل التي قد تسهم في الاعتقاد بالآلهة هي النظام المعرفي البشري لكشف العوامل والفاعلية من حولنا. وأطلقت عليه اسم نظام كشف الفاعلية فائق الحساسية HADD، يخبر هذا النظام (في بعض الظروف) أن الجسم ذاتي الحركة هو عامل فاعل، أو أن صرير السلالم يسببه عامل فاعل، أو أن نموذج ترتيب الصخور تم من قبل فاعل. ويجادل عالم الأنثروبولوجيا ستيوارت غوثري Stewart Guthrie أن هذا الميل لكشف الفاعلية ذات القصد المشابهة للفاعلية البشرية حولنا قد تم ضبطها بالانتقاء الطبيعي لتسجيل (ولو عرضًا) وجود العوامل بحدوث أدنى تنبيه، وحتى بأدلة غير واضحة. لماذا؟

لأنه لو انتظر نظام كشف الفاعلية الحساس حتى يظهر دليل قاطع على وجود فاعل قريب، فربما سينتهي المطاف بأجدادنا في بطن نمر ذي أنياب. ولكن إن سببت الرياح صوتًا في الأدغال فارتاع أحد أجدادنا بغير ضرورة، فلا توجد خسارة كبيرة. وبالمحصلة إذًا كما يقول غوثري، سيكون من الأفضل في حالة الشك الرهان على وجود عامل فاعل. ثم يمضي في قوله ليقترح بأن الرهان على العوامل الغيبية كمسببات للعديد من الأحداث الطبيعية دفعنا إلى الاعتقاد بالآلهة.[١٥]

إن كان نظام كشف الفاعلية فائق الحساسية HADD قد ضبط للبقاء على قيد الحياة، فمن المرجح أن يكون أكثر حساسية في ظل ظروف أكثر ارتباطًا بالبقاء على قيد الحياة. وهذا يعني أنه كلما كان الأمر أكثر إلحاحًا لعدم إهمال وجود عامل فاعل سيترجح أن يسجل النظام وجود فاعل. فسنعتقد على الأرجح بوجود

شخص في الغابة بجوارنا عندما يكون الوقت ليلًا ونحن قد سبق أن سمعنا بوجود قاتل متسلسل حر في المنطقة، مقارنة بحالة نكون فيها في منتصف النهار ونحن نتمشى في منتزه مخصص للعائلات في أحد منتزهات المدينة، عندما تكون الحياة على المحك، فنتوقع من نظام كشف الفاعلية الحساس نشاطًا أكثر مِن المعتاد.

إذا كان نشاط نظام كشف الفاعلية الحساس يساهم في الاعتقاد بالآلهة، وكان إلحاح الواقع يؤثر في ميل (نظام كشف الفاعلية فائق الحساسية) لكشف الفاعلية لدرجة الوصول إلى الفاعلية من مصدر غيبي، فستتوقع أن يكون الإلحاد أكثر انتشارًا في البيئات التي يكون فيها إلحاح الوضع منخفضًا. إن انخفاض الإلحاح سيثمر وجود نظام كشف فاعلية حساس أقل كفاءة، ونظام كشف فاعلية حساس قليلة الكفاءة يعني حالات أقل للكشف عن الآلهة، والأشباح، وما شابه ذلك.

ويتسق مع هذا التحليل ما يظهر من أن الإلحاد أكثر انتشارًا حيث يكون إلحاح الوقائع منخفضًا نسبيًا. فهو ينتشر في مجتمعات ما بعد التصنيع، وهي مجتمعات غنية نسبيًا وآمنة. إن الإلحاد التام لا يشيع عند الصيادين والبحارة الذين يبحثون عن رزقهم، ولا عند المزارعين.[١٦] فالإلحاد التام أكثر شيوعًا بكثير حيث لا يوجد عند الناس ما يدعو للقلق من الحيوانات الضارية والمفترسة، أو من أعداء تطاردهم، أو عواصف قد تدمر محاصيلهم. عندما تنتشر الأطعمة على رفوف السوبر ماركت وتأتي الحماية من أجهزة الحكومة، سينخفض أداء نظام كشف الفاعلية الحساس.

***

## الإنسان العظيم

عانى جنوب شرق الولايات المتحدة في عام ٢٠٠٧ من جفاف حاد، وكان أشده في ولاية جورجيا. وسيطر شبح النضوب النهائي للمياه الذي لاح في الأفق، وتنازعت حكومة الولاية مع الولايات المجاورة، ومع حكومة الولايات المتحدة لإطلاق المياه من الخزانات المائية من أعلى جورجيا. وصدرت مراسيم الطوارئ من قبل الهيئات الحكومية للحد من استخدام المياه. وبعد شهر من المناشدات والمفاوضات مع الجهات ذات العلاقة، عقد حاكم جورجيا صلاة استسقاء متعددة الأديان ليطلب كل شخص من إلهه نزول المطر. ولم يعتبر الجميع أن ذلك النشاط نافع، ونوقش هذا الحدث وبحث على وسائل الإعلام الشعبية. وفي البرنامج التلفزيوني الصباحي المشهد The View جرى حوار شعبي صباحي على شاشة التلفزيون، وتلقت صلاة الاستسقاء التي دعا إليها حاكم الولاية رد فعل ناقد من امرأة معروفة هي جوي بيهار Joy Behar التي علقت في يوم ١٤ نوفمبر ٢٠٠٧ بما يلي: (حسنًا، يلزمهم أن يدعو الناس الذين سيحلون ظاهرة الاحتباس الحراري ويرعون البيئة، فهذا أكثر واقعية).

قبل جيل أو جيلين لم نكن لنسمع بمثل هذا الرأي، ليس للانتقاص من الإيمان بقدرة الله، ولكن أقصد غياب ذلك الإيمان غير المبرر بقدرة الإنسان. فقد أفادت تصريحات بيهار بأنها تعتبر البشر مسؤولين عن الكوارث الطبيعية مثل الجفاف

ومسؤولين عن معالجتها. فهذا الإيمان بقدرة الإنسان، سواء في الخير أو الشر يعد ظاهرة جديدة.

تزداد توقعاتنا من البشر الآخرين، أو على الأقل من المنظمات الإنسانية والحكومات، أن تشفينا من المرض وتمنع الفيضانات والجُفاف والمجاعة، والعواصف، والحرائق، والأوبئة. وقد جعل تقدم العلم والتكنولوجيا هذه الآراء واقعًا في بعض الحالات، فالبشر يمكنهم فعل أشياء مذهلة. وينتشر هذا التفاؤل في القوة البشرية خاصة في الدول ذات الحكومات القوية، حيث يشيع الخطاب بأن الحكومة قادرة على معالجة جميع المشاكل الاجتماعية، من الفقر إلى تحقيق السعادة (وخاصة في سنوات الانتخابات). وعند إضافة توجه شبه اجتماعي إلى الإنجازات التقنية فليس مستغربًا جدًا أن يزيد اعتبار الأحداث والمشاكل التي اعتبرت سابقًا من أفعال الله على أنها من أفعال البشر.

سافرت إلى بلفاست في إيرلندا الشمالية بعد وقت قصير من إعصار كاترينا الذي دمر أجزاء من منطقة البحر الكاريبي وساحل الخليج الأمريكي في عام ٢٠٠٥، وذلك لإلقاء محاضرة. وقد دهشت أنهم كتبوا في كل مكان على الجدران واللافتات حول جامعة (كوين) تذكيرات بحدث قادم لمناقشة كيفية تسبب الرئيس جورج دبليو بوش بإعصار كاترينا. ولم يكن لديَّ أي علم بأن الرئيس الأميركي يملك قوة إلهية خارقة!

إن نسبة هذه القوة إلى البشر والمؤسسات البشرية قد أعطيت مصداقية بسبب التقدم العلمي والتقني، وهكذا عندما نفقد السيطرة ويحدث شيء صادم يتطلب تفسيرًا، فبدلًا من الثناء على إله للنعمة أو شتم إله للشر توجد فاعلية أخرى يمكن أن تتلقى اللوم أو الثناء: إنها الإنسانية. عندما يسأل نظام تحري الفاعلية الحساس، من فعل ذلك؟ فيبدو على نطاق واسع متزايد أن (البشر) هم الجواب المعقول -ليس لأن العلم قد دحض وجود كل الكائنات المتجاوزة للطبيعة، ولكن لأن العلم والتقنية قد رفعا مجمل الإمكانات البشرية.

عندما أصابت مصر الطواعين العشر اقتنع فرعون أخيرًا أن الله يساند موسى وأنه يجب تحرير العبرانيين. لكن فرعون اليوم ربما يلقي المبيدات جوًا لقتل الجراد، والذباب، والبعوض. ويطالب بتحقيق بإشراف الأمم المتحدة لحالة رمي غير شرعي للحيوانات المذبوحة من دولة مجاورة في النيل بما يفسر بالتالي كمية الدم في الماء. ويصدر معايير انبعاثات أكثر تشددًا في محاولة لتنقية الأجواء من الظلمة. ويتهم موسى بشن حرب بيولوجية تسبب الدمامل وموت البشر والحيوانات. ويضغط من أجل وضع معاهدة دولية جديدة لمكافحة تغير المناخ بسبب كمية مدهشة من هطولات البَرَد. إن فرعونًا معاصرًا قد لا يرى على الإطلاق أن الأوبئة قد سببها الله، ولكن يراها مزيجًا من فعل الصدفة، والسياسة البيئية السيئة، ومؤامرة منسقة تنسيقًا جيدًا ومعقدة تكنولوجيًا من المعارضة.

***

## العوامل الكاذبة في كل مكان

إن ميلنا القوي لرؤية الأحداث على أنها مقصودة ولها غاية، سبّبها شخص ما في بعض الأحيان هو أمر لا يمكن تجاوزه ببساطة على أنه صدفة أو بإلقاء اللوم على إنسان أو مجموعة من البشر. تبدو بعض الأحداث أو المواقف متعمدة، وتقع بوضوح خارج قدرة الناس. ويميل الناس عمومًا لرؤية هذه الأحداث على أنها من فعل الآلهة. وأشد الأمثلة وضوحًا وجود الكون والتصميم الغائي الواضح للأشياء في العالم الطبيعي من الأدمغة، والعيون، واليدين، إلى حيوانات ونظم بيئية كاملة. وفي العقود الأخيرة ظهرت خصائص الضبط الفائق للكون ككل بحيث تتيح هذه الخصائص نشوء أشكال الحياة القائمة على الكربون، وقد أعطت انطباعات قوية بأن أسس كيفية عمل كل شيء لا بد أنها مقصودة.[١٧]

فكيف إذًا يُقنع الملحد العادي في الشارع نفسَه بأن كل هذا الضبط الفائق الواضح والتصميم لا يدل على فاعل له غاية؟ وهنا تدخل العوامل الكاذبة.

المصير، والقدر، والنعمة؛ أدرجت في أساطير نسبت للإلهة في الماضي. وبقيت اليوم تفسر الأحداث الصادمة وحسن الحظ وسوء الحظ كعوامل كاذبة بسهولة. (لقد جمعنا المصير) (أعتقد أنه القدر) (النعمة تبتسم لك)، وأسمي هذه الأشياء بالعوامل الكاذبة على خلاف العوامل الملائمة، ولا نعتقد عمومًا أن هذه العوامل الكاذبة لها عقول أو حالات ذهنية توجه أفعالها؛ بل تلقى كتفسيرات غامضة لسد

ثغرات الأحداث أو الحالات التي يبدو أنه يلزمها تفسير نتيجة ظهور الغاية فيها، في حين لا ينفع مجرد التفسير بالعوامل الطبيعية ذات القصد (أول خيار افتراضي للتفسير) ولا ينفع التفسير كذلك عبر الترسانة البديهية التقليدية للعلاقة السببية الفيزيائية والبيولوجية. افترض أنك قد فقدت يومًا ما وظيفتك فجأة، وفي اليوم التالي بالضبط التقيت صديقًا قديمًا وهو غير مدرك على الإطلاق أنك فقدت وظيفتك، وعرض عليك توفير فرصة عمل جديدة أفضل لك. وأتحدث هنا عن تجربة شخصية، هذا نوع من الحالات ذات الغاية، فيبحث عقلك عن تفسير لهذه الصدفة. هل يمكن تفسير ذلك ميكانيكيًا؟ لا، فهل يمكن تفسيرها بيولوجيًا؟ لا، هل يمكن تفسيرها بنسبتها إلى أي فاعلية طبيعية؟ من المؤكد أنها لا تبدو كذلك. وهكذا يصل الدافع لإيجاد تفسير سببي إلى نوع من الفاعلية فوق البشرية superhuman agency أي فردٌ علم بالوضع ثم نسق نتيجة إيجابية مدهشة. وفي سياق ديني يكون نوع من الإله الخيّر هو المرشح الطبيعي لهذه الفاعلية. ولكن إن كنت ترفض فكرة الآلهة، ستحتاج إلى تفسير مختلف. والتفسير بالنعمة هنا سيكون حسنًا. ومن العوامل الكاذبة الأخرى المنتشرة بين المثقفين بالرياضيات على الأخص بما فيهم العلماء، هو الصدفة chance. لو ألقيت قطعة نقود مائة مرة وسقطت خمسين مرة تقريبًا بوضع الصورة إلى الأعلى، يمكنني أن أقول إن عدد مرات ظهور الصورة يرجع للصدفة. فما تختصره كلمة (صدفة) في هذه الحالة هو القول بأنه لا يوجد شيء يستدعي تفسيرًا بالفعل، وأن ما حدث من المتوقع احتماليًا

probabilistically أن يحدث بناء على استمرار عمل القوانين الطبيعية العادية كما هي دومًا. لذلك فالقول في مثل هذه الحالة (بأنها صدفة) ليس تفسيرًا بالضبط ولكن يعادل القول بأنه لا يوجد شيء يستدعي التفسير. وتحديد ما يحدث بأنه (مجرد صدفة) يشكل جزءًا هامًا من العلوم (بما في ذلك العلوم الإنسانية والاجتماعية) ويستدعى هذا التعبير كثيرًا في التقارير، مما يؤدي أن تستعمل كلمة صدفة بتبجيل يوهم أحيانًا أنها تعتبر تفسيرًا (وهذا في مقابل ادعاء أن لا يوجد ما يفسر). إذًا قد يتعجب شخص ما بأنه قد فاز في اليانصيب في اليوم التالي مباشرة لفقده وظيفته ويطلب تفسيرًا. فإن كان لا يريد نسب الأمر إلى الآلهة أو النعمة، فقد يقول (آه، إنها صدفة) ربما لم يوجد هنا بالمحصلة شيء للتفسير حقًا، ولكن يبدو أن هناك حاجة للتفسير. تبدو الصدفة كنوع من التفسير الذي يقدمه المثقفون ولذلك فهي مقبولة، ولنأخذ شرحًا أكثر تطرفًا إن مات شخصٌ دماغيًا لمدة أربع وعشرين ساعة ثم تعافى بعد ذلك فسيقول الشخص الذي يتجنب التفسيرات الدينية إن الصدفة تفسير كافٍ لهذا الحدث؛ بل إن شيئًا كالصدفة يستطيع في الواقع أن يقدم تفسيرًا للضبط الدقيق للكون. فماذا لو وجد عدد هائل من الأكوان المتوازية؟ بالصدفة، سيكون فيها كون يصلح للحياة، وبطبيعة الحال يلزم أن نكون عليه وإلا لن نكون هنا ونتساءل عن الضبط الدقيق.

وعندما تعجز العوامل الكاذبة من المصير، والقدر، والنعمة، والصدفة عن تقديم تفسير مقبول، يوجد بديل معاصر هو الانتقاء الطبيعي. ففي منظور المذهب

الطبيعي العلمي يكون الانتقاء الطبيعي عملية غائية غير واعية، حدث أن أنتجت مجموعة متنوعة من الكائنات الحية بحيث مكنتها من البقاء على قيد الحياة والتكاثر بشكل جيد نسبيًا، ولكن لأن الانتقاء الطبيعي يعمل لتعليل التصميم الظاهري وتعليل الغاية في العالم الطبيعي (لماذا يبدو حيوان ما هكذا، أو لماذا تجري عملية بيولوجية معينة بتلك الطريقة) ونحن نعرف بالحدس أن العوامل ذات القصد هي التي تجلب النظام، فيلتبس علينا الانتقاء الطبيعي كفاعل ذي قصد، ونتحدث عن ما «يصممه» أو «يعطيه» أو «يعتني به» أو نلاحظ أنه «أعمى» أو «قاسي».[١٨] وكالمخطط الأولي الذي وضعته في الفصل الثالث، هناك دليل على أن الأطفال يجدون صعوبة نسبية في تقبل التطور بالانتقاء الطبيعي مقابل وضد تفسيرات الخلق للحيوانات. ومع ذلك قد يؤدي الانتقاء الطبيعي الوظيفة النفسية لمفهوم العامل ذي القصد عند محاولة شرح عناصر المنظومات الحية.

الانتقاء الطبيعي فكرة مجردة (عملية نظرية) تستعمل في بعض الأحيان كعامل ذي قصد يهدف إلى شرح حالات الأمور في العالم الطبيعي التي تبدو أنها تتطلب عقلًا لإنتاجها. كما توجد مفاهيم مجردة أخرى تحل محل استدعاءات الفاعلية الإلهية أو النظام الإلهي كذلك. فعلى سبيل المثال من الشائع أن نسمع (إنه خطأ الحكومة) عندما يوجد شيء غير مقبول أو عند حدوث شيء سيئ، كما في قولنا (إنه خطأ الحكومة الذي سبب حصول أطفالي على تعليم سيئ)، ففي هذه العبارة تكون الحكومة العامل المسؤول عن خطأ، وبالمثل يكون الاقتصاد أو السوق مسؤولًا عن

فقداني لوظيفتي. بدلًا من إلقاء اللوم بالمشكلة على أناس بأعيانهم أو على جهات إلهية (أو مدحها لفائدة)، فتم إدراج فكرة مجردة (هي السوق) باعتبارها السبب، على الرغم من أنه قد يكون صعبًا أن نحدد بالضبط كيف سبب السوق (أيا كان هذا) خسارتي لوظيفتي.

وعلى الجانب الإيجابي، قد نسمع كيف تتطلب الحرية مسار فعل معين أو أن العدالة انتصرت لتصحيح خطأ ما. إن الحرية والعدالة أفكار مجردة يتم الحديث عنها باعتبارها عوامل فاعلة. وليس من المستغرب أن الناس في كثير من الأحيان تجسد الحكومات والأسواق، والحرية، والعدالة، وأفكارًا مجردة أخرى كما في حالة العم سام لتجسيد حكومة الولايات المتحدة، أو اليد الخفية لرأسمالية السوق الحر، والسيدة حرية، وسيدة العدالة المعصوبة العينين.

ولا أجادل إن كانت هذه التفسيرات البديلة التي قد تستخدم بدل مفهوم الله تفسيرات جيدة أو سيئة، أو إن كانت ترقى حقًا إلى أن تكون بدائل شاملة مكافئة لنشاط الإله أو الآلهة (أظن أنها لا تصلح لذلك)؛ بل ذكرت بعض الأمثلة على أنواع من التفكير التي إن شجعت بمجملها قد تساعد في تعديل حرج الميول الاعتيادية نحو مذهب يؤمن بالمتجاوز للطبيعة. فيحدث نفسيًا وليس منطقيًا أن نملك تفسيرات مختلفة مستقرة (بما فيها العوامل الطبيعية والعوامل الكاذبة) ونحشرها عندما يطالب الإدراك الحدسي السببي بالتفسير ويميل نحو قبول عوامل خارقة للطبيعة بما يجعل المذهب المتجاوز للطبيعة أقل ارتباطًا بالأمر وبالتالي أقل مصداقية.

## وقت للتفكر

وهناك فئة أخيرة من العوامل الاجتماعية - البيئية التي قد تساعد الناس في مقاومة الانجذاب الطبيعي نحو التفكير بالمتجاوز للطبيعة وهي وقت التفكر. إذ نحتاج في كل نزعاتنا المعرفية الطبيعية مثل تلك التي تحكم تفكيرنا الحدسي بالأشياء المادية، والكائنات الحية، والحالات الذهنية، واللغات، والأخلاق، وغيرها، إلى مزيد من الوقت والانتباه، وبذل الجهد لتجاوز هذه النزعات بدلًا من الاستسلام لها ليتمكن التفكير العلمي من التحرر من قيود التفكير السببي الطبيعي، يتمهل ويفكك الأوضاع ليتفكر بروية مطلوبة، وغالبًا مع دعائم معرفية كأنظمة الكتابة والرموز الرياضية. وبالمثل ليضع اللاهوتيون نظمًا عقائدية أكثر تطورًا تحيد الدين الطبيعي المترسخ عن التحيزات المعرفية الاعتيادية، يحتاج الأمر إلى وقت للتفكر بتجرد (انظر الفصل السادس). وهذا العمل الفكري ليس سهلًا (ولكن قد يسهل مع الممارسة)، وهكذا يساعدنا الوقت والتركيز. إن الإلحاد بالمعنى الدقيق للكلمة قد لا يكون غير طبيعي معرفيًا كما هو العلم الحديث، لكنه أكثر مخالفة للطبيعة من التفكير الديني العام. وعلى هذا النحو فإن إعطاء وقت للتفكر وللثقافة التي تمكن من هذه المتابعات وتدعمها ستكون مفيدة في صيانة الإلحاد.

***

## التعليم المبكر

اصطدمت بزميلة لي في المتحف البريطاني، بالمعنى الحرفي تقريبًا. كانت تدفع عربة ابنها البالغ حينها من العمر ثلاث سنوات، واصطدمنا تقريبًا. وكما تفعل الأمهات الصالحات كانت تشير إلى المعروضات وتشرحها بحماس لطفلها الجميل. كنت محظوظًا بما فيه الكفاية لأن أسمعها صدفة تعزز ما كان واضحًا أنه مترسخ في بيتها عمومًا عن كيف جلب الانتقاء الطبيعي تنوع الحيوانات التي نراها اليوم. فمع التقنيات التربوية الصحيحة وبالأخص عند تطبيقها في وقت مبكر من نمو الطفل عندما تكون الأجهزة المعرفية للأطفال مرنة جدًا، قد يتعلم الأطفال التطور عبر الانتقاء الطبيعي على الرغم من أنه يمثل تحديًا معرفيًا، ورغم أنه غير طبيعي إلى حد ما. وربما إن تم تعليمه مبكرًا وبشكل متكرر في وقت تكون الأجهزة المعرفية للأطفال قيد التكوين، سيتوقف الأطفال عن نسبة التصميم المدرك في العالم الطبيعي إلى الآلهة.

لقد جادلت من قبل بأن نظامًا مستمرًا من التلقين الديني لا يكفي لتفسير الشيوع العالمي للفكر الديني على مدى التاريخ. فيبدو أن للناس ميولًا طبيعية نحو الفكر الديني والممارسة الدينية، ولكن هذا لا يعني أن جرعة مستمرة من التلقين المضاد للدين لن تؤثر في معاكسة هذه الميول الطبيعية كما تؤثر طريقة الممارسة المنتظمة للتفكير الإحصائي والعلمي على تحسين قدرتنا للتفكير إحصائيًا وعلميًا رغم أن هذا التفكير غير طبيعي نسبيًا.

قد يشمل هذا التلقين المضاد للتدين عرض طرق بديلة للأطفال تعلل إدراكهم للتصميم والغاية في العالم الطبيعي وتحريهم للفاعلية غير البشرية. من مثل الصدفة والحكومة والانتقاء الطبيعي (باعتبارها عاملًا موجهًا ذا قصد)، وتفلح العوامل الكاذبة الأخرى جيدًا في هذا الشأن.

***

## كيف تكون ملحدًا واثقًا؟

ينتشر المعتقد الديني على نطاق واسع نسبيًا بين الناس ويعزى ذلك جزئيًا نتيجة النزعات الإدراكية المبكرة التي تؤهل الأطفال لفهم وقبول الأفكار الدينية. وبالتأكيد ستساهم شهادة الغير والتأثيرات الاجتماعية والبيئية الأخرى في تحديد هل سيصبح الأطفال مؤمنين حقيقيين بتقليد ديني معين، أو يصبحون لا أدريين أو ملحدين؟ ولكن عندما يتنافس الإلحاد مع المذهب المتجاوز للطبيعة على قلوب وعقول الناس، فإن ميدان التنافس ليس متكافئًا بين الفريقين منذ البداية.

فلا بد من وجود عوامل إضافية شخصية أو اجتماعية - بيئية لتساعد الإلحاد على البقاء والانتشار، فلو رغبت أن تكون ملحدًا واثقًا وراضيًا عن نفسه فإن أفضل نصيحة أقدمها لك هي اتباع هذه الخطوات السبع:

ليكن لديك طلاقة أقل من المتوسط في التفكير حول العقول، أو ميلٌ لترك استخدام التفكير النفسي أو الاجتماعي.

وما يقلق بأي مما ذكرت أنه قد يستدعي تفسيرات تعتمد العامل أو الفاعل ذا القصد، وربما ينعش الفكر الديني.

لا تنجب أطفالًا. فالذين يعيشون بقدر قليل من علاقات اعتماد الغير عليهم قد يسهل عليهم الكفر.

كن آمنًا؛ فالبيئات التي يندر فيها وجود تهديدات لحياة المرء أو يندر وجود حاجة لاتخاذ قرارات مصيرية، قد ينخفض فيها التوجه نحو الكيانات الدينية. تجنب الاضطرار إلى الصيد للبقاء على قيد الحياة، أو السعي لإثبات وجودك في أرض وطقس لا يمكن التنبؤ بهما.

كن معتادًا على ثناء أو لوم البشر لأي شيء تستطيع نسبته لهم. إن اكتشفت فاعلية عوامل ذات قصد في المحيط مما يمكن للنشاط البشري أن يكون تفسيرًا مفيدًا لهذه العوامل، كما هو الحال غالبًا في المجتمعات الحضرية وخاصة التي تتمتع بحكومات قوية وتطور تقني، فالحاجة هنا محدودة للجوء إلى الآلهة لتعليل ما ندركه من فاعلية.

تعلم أن تحب العوامل الكاذبة. لتستخدمها في الحالات والمناسبات التي من الواضح أنها تقع خارج السيطرة العادية للإنسان، إن توفرت العوامل الكاذبة والأفكار المجردة مثل مصير، صدفة، عدالة، حكومة، وانتقاء طبيعي وذلك كتفسيرات معززة بالخطاب العام، عندها يفضل أن تزاح الآلهة جانبًا.

خذ وقتك للتفكر. إن عنصرًا أساسيًا لمقاومة طبيعية التفكير الديني هو الوقت المستهلك للتفكير المجرد. تمامًا مثل اللاهوتيات التي تحيد عن تحيزات التصورات الطبيعية فتحتاج إلى وقت تفكر لتفهمها، وكذلك تحتاج الفلسفات غير الدينية والرؤى الكونية إلى التفكر.

أضف إلى هذه العوامل تلقين الصغار ضد الدين. فسيكون للكفر فرصة للثبات في المنافسة.

لاحظ أن ما اقترحته من هذه العوامل التي تساهم في انتشار الإلحاد نادرة نسبيًا في تاريخ البشرية، ولكن يزداد شيوعها حاليًا ولا سيما في المجتمعات الأوروبية.

***

# الفصل العاشر

## هل علينا أن نُعَرِّفَ الأطفال على الله؟

كيف نُعَلِّم الأطفال عن الله؟ وماذا نُعَلِّمهم؟ ومتى نُعَلِّمهم؟ كلها تحديات يواجهها كثير من الآباء والأمهات وزعماء الأديان، والمربِّين. وبالتأكيد يجيب البحث العلمي الخاص بالقدرات المعرفية للأطفال المتعلقة بالفكر الديني عن هذه الأسئلة. وقد أوضحت في الفصل الختامي ما يبدو أن الأدلة تشير إليه من أن الأطفال يولدون مؤمنين، وقدَّمت بعض الاقتراحات المبدئية لما يعنيه كل ذلك في تعليم الأطفال عن الله. ولكن قبل أن أتطرَّق إلى هذه المسائل، تناولت في هذا الفصل بإيجاز سؤال إن كان يجب من حيث المبدأ أن يعلّم الناس أطفالهم عن الله، فالحاصل لقد أكَّد البعض أن تعليم الأطفال الإيمان بالله أمر خاطئ؛ بل واعتبروه اعتداء على الأطفال. ففي فصل بعنوان: (هل الدين إساءة للطفل؟) عبر كريستوفر هيتشينز عن احتقاره لرجال الدين بهذا الأسلوب: (ولقرون طويلة، كان كثير من الرجال الناضجين يدفع لهم الأجور ليخوِّفوا الأطفال بهذا الأسلوب (وليعذبوهم ويضربوهم ويعتدوا عليهم كذلك، كما فعلوا ذلك أيضًا مع جويس (جيمس)

وآخرين كثر)[١]؛ كما كتب هتشنز أيضًا في إشارة إلى مسألة أخرى حول إخبار الطفل عن الجحيم: (أولئك الذين يكذبون على الصغار بهذا الأسلوب، أشرار إلى أقصى حد)[٢]. ولا يتفرد هيتشينز، وليس أول من قال إن تعليم الأطفال الإيمان بالله مؤذ ويجب وقفه.

حتى العلماء المحترمون فكَّروا بتجريم من يلقِّن المعتقدات الدينية للأطفال. تأمَّل في الكلمات التالية التي قالها عالم النفس البريطاني (نيكولاس همفري Nicholas Humphrey) في محاضرة من محاضرات علم النفس في منظمة العفو الدولية (أمنيستي):

وأقول إن للأطفال لهم الحق في عدم تعطيل عقولهم نتيجة التعرض لأفكار الآخرين السيئة - بغض النظر من يكون هؤلاء الناس الآخرون. وكذلك الآباء، ليس لديهم ترخيص إلهي يبيح لهم تثقيف أطفالهم في أي طريق يختارونه شخصيًا: فليس لهم حق تقييد آفاق معرفة أطفالهم، ولا يجوز لهم أن يُنشؤوهم في جو من العقيدة والخرافة، أو إجبارهم على إتباع المسارات المستقيمة والضيقة من دينهم.

وباختصار، فإن للأطفال الحق في عدم تعريضهم لما يفسد عقولهم من الهراء. ونحن كمجتمع يجب علينا حمايتهم من هذه الأفكار، وعلينا أن لا نسمح للآباء أن يعلِّموا أبناءهم المعتقدات، على سبيل المثال، علينا أن نمنعهم من الاعتقاد بالحقيقة الحرفية للكتاب المقدس، أو أن الكواكب تتحكم في حياتهم، تمامًا كما نمنع الآباء والأمهات من خلع أسنان أطفالهم أو حبسهم في زنزانة.[٣]

ويعتقد (همفري ودوكينز وهيتشينز) وآخرون من أمثالهم اعتقادًا جازمًا أن تعليم الأطفال ليكونوا مؤمنين متدينين هو شكل من أشكال إساءة في معاملتهم. إن هؤلاء الرجال (وكل من أعرف ممن اتخذوا هذا المنحى رجال) ليسوا أغبياء ولا مجانين؛ بل يعملون بأمانة وإخلاص وفق مقتضيات رؤيتهم الكَونية.

وعلى الرغم من أنه لم يصل تمامًا إلى دعوة المجتمع للقيام بواجبه في حماية الأبناء من النظم العقائدية لآبائهم كما يجادل همفري، فإن دوكينز يرى أن تثقيف الآخرين بالمعتقدات الدينية ظلم واعتداء عليهم، ويماثل الاعتداء الجسدي أو الجنسي. وذكر دوكينز في كتاب أصدره مؤخرًا:

حدث مرة أن وجِّه لي سؤال في فترة الأسئلة بعد محاضرة في دبلن: ما رأيك بما انتشر مؤخرًا على نطاق واسع من أخبار عن حالات الاعتداء الجنسي للكهنة الكاثوليك على الأطفال في إيرلندا، فأجبت: (لقد كانت انتهاكات جنسية مخيفة دون أدنى شك، ولكن يمكن القول أن الضرر الناجم عنها أقل من الضرر النفسي الطويل الأمد الذي يلحق بالطفل بتنشئته كاثوليكيًّا من البداية).[٤]

وذهب (دوكينز) إلى أبعد من ذلك حيث قال إن تسمية طفل لأبوين مسيحيين بأنه (طفل مسيحي) وتسمية طفل لأبوين مسلمين بأنه (طفل مسلم) فيه إساءة له: (حتى دون اختطاف جسدي، أليس هذا شكلًا من أشكال الإساءة الدائمة للأطفال بأن يوصفوا بالانتماء إلى معتقدات هم أصغر سنًا من فهمها؟)[٥] إنها تسمية ربما لا تكون غير دقيقة، ولكن هل يمكن وصفها بالمسيئة؟ حتى لو وصف الطفل نفسه هكذا بمحض إرادته؟.

مرة أخرى، عندي شيء يدفعني لمنح (دوكينز) فرصة حسن النية، ونظن أنه يستخدم المبالغة في العبارة لتقوية وجهة نظره، لكن مقارنته بين التربية الدينية وإساءة معاملة الأطفال الجسدية والجنسية استفاضت وازدادت، ولذلك ليس من السهولة رفضها باعتبارها نتيجة فورة كلام خطابي. ويدَّعي (دوكينز) أن الاستجابة لتسمية الأطفال غير اللائقة كعضو منتسب لجماعة دينية معينة، كان هدفه الأساسي من كتابة فصل تحت عنوان (الطفولة، الاعتداء والهروب من الدين). وكان من الممكن أن أقتنع بأن هذا كان هدفه الأساسي حقًا لو أنه أمضى وقتًا في مناقشة المسائل ذات الصلة مثل: ما هو السن المناسب ليسمي الأطفال أنفسهم، وهل كانت مثل هذه التسميات مناسبة لهم أيضًا عندما يكون لها محددات ثقافية أو عرقية أيضًا، فعلى سبيل المثال، تسمية الهندوسي واليهودي تحمل معاني عرقية فضلًا عن الدينية فتؤدي دورًا مزدوجًا، وهذا موجود في جميع أنحاء العالم، حيث أن العضو في مجموعة ثقافية يكون عضوًا في جماعة دينية، والعكس بالعكس. وأتساءل أيضًا كيف لأم مقتنعة برأي دوكينز عن مسألة التسرع بتسمية الانتماء الديني أن تجيب طفلها، (أمي، إذا كنتِ أنتِ من المورمون، لماذا لا يمكنني أن أكون واحدًا منهم أيضًا؟) بدلًا من تناول هذه القضايا لتقوية موقفه أمضى دوكينز وقتًا طويلًا في المقارنة الاستفزازية ما بين تعليم الكتاب المقدس والاعتداء الجنسي.

بعد ذكره لحكاية عن فتاة اعتبرت مرارًا أن تدريسها عن الجحيم يسبب لها عذابًا نفسيًا أكثر من تحرش الكاهن بها، كتب دوكينز: أنا مقتنع بأن عبارة (الاعتداء

على الأطفال) ليس مبالغة عندما تستخدم لوصف ما يفعله المربُّون والكهنة بالأطفال الذين يشجعونهم على الاعتقاد بأشياء من قبيل أن عقاب الخطايا التي لم يتب منها خالد في نار أبدية)[٦]، تقدم هذه التعليقات فرضية قابلة للاختبار علميًا: هل يسبب تدريس وجود الجحيم الأبدي أذى نفسيًا خلال مرحلة الطفولة يوازي (أو أكثر) من الأذى النفسي الناجم عن التعرض للإيذاء الجسدي أو الجنسي؟ على حد علمي، لم تجر هذه المقارنة الخاصة بين الآثار النفسية الناجمة عن الاعتداء الجنسي على الأطفال وآثار تعليم الجحيم على الطفولة، ولكني لست متفائلًا بأن الأدلة ذات الصلة بهذا الأمر ستدعم موقف دوكينز.

ويوجد أبحاث كثيرة عن العلاقة بين الالتزام الديني والعافية الجسدية والنفسية، والنتائج العامة كانت أن المؤمنين بإله والملتزمين دينيًا، أكثر صحة نفسيًا وأكثر استعدادًا لتحمل المشاكل العاطفية والصحية من غير المؤمنين. وبما أن الغالبية العظمى من هذه الأبحاث أجريت في مناطق تقطنها أغلبية مسيحية حيث كان تعليمهم عن الجحيم جزءًا من تربيتهم، فهي تثبت على الأقل أن الاعتقاد بالجحيم وغيره من الاعتقادات (المسيئة) لا ترجح على الفوائد التي تثمرها المشاركة الدينية. كما أن الآثار السلبية للاعتداء الجنسي في مرحلة الطفولة موثقة كذلك توثيقًا جيدًا،[٧] وبالأخذ بالأمرين مجتمعين دون حاجة إلى مزيد من الأدلة المنهجية المباشرة، نجد أنه تصرف غير مسؤول من عاملٍ مطلع؛ أي مقارنته للتربية الدينية مع الاعتداء الجنسي.

ساق كلٌّ من دوكينز وهيتشينز النوع نفسه من الأدلة الظرفية على نحو غير علمي لدعم ادعائهما، أي حالة شخص يتذكر أنه تأذى بسبب تعلّمه عن نار الجحيم الأبدية. فإذا كنا نلقي حكايات تلائِمُنا، فيمكنني أن أقول إنني أنا أيضًا أحتفظ بذكريات غير سارة عن طفولتي تخص التعلم عن الخطيئة، والعقاب، والجحيم؛ فعندما سمعت فقرة من (العهد الجديد) تروي أن يسوع الرحيم والعطوف قالها: («[22]وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلاً يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ، وَمَنْ قَالَ لأَخِيهِ: رَقَا، [فارغ الرأس] يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْمَجْمَعِ، وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ، يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ؟»[8] فعلمت أنني قد وقعت في خطأ جسيم، فقد كنت أدعو أخي الأكبر مني: بـ «يا أحمق» في كل الأوقات، لهذا أحسست بالذنب وشعرت بالقلق والخوف. وأذكر مرة أنني كنت محبطًا جدًا لأن لعبتي علقت في شجرة فسحبتها فلم تتحرر، وفلتت مني عبارات سيئة الكلام أشتم بها الشجرة، ثم أدركت أنني قد «أسأت الأدب مع الرب وذكرت اسمه بلا احترام) وتذكرت أنني قرأت في الكتاب المقدس أنه (يجب أن لا تتخذ اسم إلهك الرب هزوًا بغير احترام، لأن الرب لن يترك من يتخذ اسمه عبثًا دون عقاب)[9] وتساءلت ما نوع هذا العقاب؟ ربما الإلقاء في نار جهنم؟ إنها أشياء مخيفة بالتأكيد، ولكننا لا نمتلك أي دليل على أنها تشكل حوادث مقلقة للغاية عند عدد معتبر في أقلية من الأطفال بما يبرر تعليق (هيتشينز): (هؤلاء الذين يكذبون على الصغار بوجود الجزاء الأخروي هم أشرار لأقصى حد) أما في حالتي فأعتقد أن مثل هذه

الحوادث حثتني لأكون أكثر لطفًا مع أخي، ولضبط ما ينطق به لساني، ولأعلم أنه على الرغم من كوني طفلًا جيدًا في الأساس، أنني أبقى مجرد إنسان مذنب مثل أي شخص آخر - وليس أفضل منه- وأحتاج إلى مغفرة الله، وأنا على استعداد لمبادلة القليل من الخوف في مرحلة الطفولة مقابل هذه النتائج مرة أخرى، وقد أزعجني مرة للغاية عندما رأيت صور المحرقة وأكوام الجثث الهزيلة المتعفنة، تغطيها الحشرات، وبقيت تلك الصور في مخيلتي الصغيرة وأنا فتى صغير فأرّقت منامي وأفكار يقظتي لبعض الوقت، في الواقع، تطاردني صور المحرقة حتى يومنا هذا أكثر من الصور التي تخيلتها عن الجحيم، فهل كان تعلمي عن المحرقة شرًا أو مسيئًا لي؟ قد يجيب «هيتشينز» عن هذا السؤال بقوله إن هذا يختلف لأن المحرقة كانت حقيقية وليست كذبة، ولكن مثل هذا الجواب يصلح أيضًا لدى الأصوليين الذين يمقتهم، أكاد أسمعهم يقولون «حسنًا، الجحيم هو حقيقي أيضًا، وليس كذبة،» فهذه الحجة تساوي تدريس الأكاذيب بالاعتداء على الأطفال، في حين أن تدريس الحقائق مهما كانت مزعجة للطفل هي أمر مسموح به، ويعيدنا هذا إلى نقطة الخلاف من جديد وهي مسألة ما هو حقيقي وما هو ليس كذلك، ولا يحل الخلاف بالاتهامات بأن التدريس مؤذ أو شرير إلى أقصى حد».

يقترح دوكينز بأسلوب ألطف من السابق ما الذي يجب أن يقدِّمه الآباء وأولياء الأمور الأخلاقيون لأبنائهم بدلًا من التلقين: (أشكر والديَّ لتبنيهم رأيًا بأنه لا ينبغي تعليم الأطفال ما يفكرون أكثر من تعليمهم كيف يفكرون.)[١٠] أؤيد وجهة النظر هذه: علِّم أطفالك كيف يفكرون جيدًا، وكيف يعلمون أنفسهم،

وجهزّهم ليتمكنوا بأنفسهم وبشكل مستقل من التعامل مع عالم دائم التغير.

لكن المصاعب تظهر عندما نحاول تعليم الصغار كيف يفكِّرون فقط دون تعليمهم ماذا يفكرون به، وخاصة الأطفال الصغار جدًا، وتساؤلاتهم الفضولية التي يوجِّهونها لآبائهم في عالم واقعي براغماتي، ولكن كيف تجيب الأمهات على استفسارات لأطفالهن مثل: (ماذا يحدث للناس بعد أن يموتوا؟) و(أين كنت قبل ولادتي؟) و(لماذا تصلين؟) دون أن تلمِّح لهم ولو بإشارة بسيطة إلى معتقداتهن الخاصة؟ في قاعة المحاضرات يمكننا أن نشرح للطلاب الجامعيين، أن بعض الناس يعتقدون هذا نتيجة كذا من الأسباب، ولكِنْ آخرون يعتقدون ذلك نتيجة كذا من الأسباب الأخرى، ونختم بالقول: (ولكن عليك أن تقرر لنفسك) ولكن الأطفال الذين لا يسألون مباشرة: (ولكن ما رأيكِ يا أمي؟) سيستنبطون جوابًا عن ما تعتقده الأم حقًا من لهجتها، أو من ردود أفعالها على أفكارهم الخاصة، ومن سلوكياتها اليومية، وما يسمعونه عرضًا من الكبار أثناء حديثهم مع بعضهم.

إن الفكرة المثالية للامتناع عن تعليم أطفالك أخلاقك وقيمك الغيبية وشعائرك الدينية بشكل مباشر أو غير مباشر هي عمليًا محض خيال، ومحاولة تنفيذها قد تنتج ضررًا على الصعيدين العاطفي والنفسي، فهل يمكن لطفلة أن تشعر بالحب أو الدعم إن رفض والداها أن يخبراها بما يؤمنان به جوابًا على أسئلتها النابعة من قلبها؟

ذات مرة تناقشت مع إحدى بناتي نقاشًا يسلط الضوء على هذه الصعوبات (كان عمرها آنذاك أحد عشر عامًا)، طرحت ابنتي الكبرى عليَّ سؤالًا عن عقائد مجموعات متعددة: المعمَّدانيين والكاثوليكيين واللوثريين... إلخ، حاولت أن أعطي تقييمًا واقعيًا ومنصفًا وحياديًا عن مجمل الرؤى الكونية لهؤلاء، ثم قاطعتني ابنتي ذات أحد عشر عامًا قائلةً: (وماذا أكون أنا؟) فشرحت لها أنها يجب أن تبحث عن جواب سؤالها بنفسها، أتصور أن البروفيسور (دوكينز) سيكون مسرورًا مني الآن، ولكن ابنتي كررت سؤالها ثانية: (ولكن ماذا أكون أنا؟) حاولت أن أشرح لها مجددًا أنه يجب عليها أن تبحث عن تلك الأمور بنفسها، وأن تتخذ القرار عندما تكبر إلى سن مناسبة، لقد غضبت مني بعض الشيء، ثم ألحّت قائلةً: (أنا فتاة ولكن ماذا نكون نحن؟) ومع استمرار حديثنا بات واضحًا أنه لا مفر من الإجابة على سؤالها، لقد أرادت ان تعرف نفسها بناءً على معرفتي بنفسي، فسألتها: (أتريدينني أن أخبرك ماذا نكون نحن؟ (مشيرًا إليَّ وإلى أمها)، لتكوني أنتِ وفق ما نحن عليه؟) أجابتني : (حسنًا.. نعم)، إن هذا النقاش يجسد ديناميكية نمطية، فعندما يتعلق الأمر بتقرير ما يفكر به الأطفال، ويعتقدونه، وما يقدرونه من قيم، وكيف يعرِّفون أنفسهم، قد تكون الاعتبارات الاجتماعية بأهمية الاعتبارات الفكرية، ويريد الأطفال (عمومًا) أن يكونوا مثل والديهم، في العديد من الأبعاد الدينية وغير الدينية، ويعتبر عدم السماح لهم بالانخراط مع الآباء في هذه الدائرة الاجتماعية شكلًا من أشكال الغربة العاطفية، فالأمر الطبيعي أن يعرّفوا أنفسهم بوالديهم.

وأخشى أن (خطة همفري ودوكينز) لإحجام الآباء عن تزويد أبنائهم بفكر يعتمد على نظام اعتقادي (ديني أو غير ذلك) تمثل واقعية فاشلة، وستخلق على الأرجح بونًا شاسعًا في العلاقات وقطيعة داخل الأُسر، وأظن أن الإقصاء المنهجي للطفل عن قيم والديه، ومعتقداتهما وممارساتهما، وعن أعرافهما المجتمعية- إن كان ذلك ممكن التطبيق- سيؤدي إلى شعور الطفل بالإساءة، أكثر بكثير من الطفل/ ـة الذي يعلّم حتى يؤمن بما يعتقده والداه/ ـا بصدق وإخلاص، وسيكون هذا الطفل أيضًا أكثر عرضة للانجذاب نحو تدين طبيعي غير مهذب.

أتفق مع دوكينز على أنه يتوجب على الآباء مساعدة أطفالهم، قدر استطاعة هؤلاء الأطفال، لتعليمهم كيفية التفكير بدلًا من مجرد إخبارهم ببساطة ماذا يفكرون، لكن للأسف فقد ضخم (دوكينز) موقفه بطريقة إشكالية، كتب دوكينز موافقًا رأي همفري فقال: (ويرى همفري أنه طالما الأطفال صغار السن، وضعفاء ومحتاجون للحماية، فإن الرعاية الأخلاقية الحقة تبدي ذاتها في المحاولة الأمينة لتخمين إضافي لما سيختارونه لأنفسهم لو كانوا في عمر يكفي للقيام بذلك)،[11] يجادل همفري بأن (الظروف الوحيدة التي يقبل فيها فرض طريقة تفكير واعتقاد معينة على الأطفال أخلاقيًا، عندما تكون النتيجة اللاحقة في حياة الأطفال هي نفسها التي كانوا سيختارونها بأنفسهم على أي حال، مهما تعرضوا من معتقدات بديلة)،[12] هذه الاستراتيجية المحيِّرة لمحاولة تخيل ما يمكن أن تختاره طفلة لنفسها إن كانت بسن يكفي لتختار، تتعطل بأسلوبين على الأقل:

أولا- تطلب هذه الاستراتيجية من الآباء وأولياء الأمور أن يتصوَّروا ما الذي سيختاره أطفالهم من اعتقاد، وماذا سيفعله الأطفال بأنفسهم لو كانوا في عمر يؤهِّلهم للاختيار بكفاءة، فيختارونه لهم، وهذه مهمة صعبة على المخيلة. ولتوضيح ذلك، إذا كنتُ أنا والدًا لابن يبلغ من العمر اثني عشرةْ سنة، فهل ينبغي عليَّ (فرض) العفة الجنسية على طفلي (أو على الأقل اتخاذ موقف ضد الزنا في سن الثانية عشرة)؟ لتقرير هذا يلزمني أن أتخيل زمنًا يكون عمر طفلي يكفي لاتخاذ قرار بخصوص هل يكون بعمر اثني عشرة سنة ناضجًا بما يكفي لاتخاذ هذا القرار، في أي سن يجب أن أتصوَّر طفلي؟ شاب عمره خمسة عشر عامًا قد لا يدرك أي شيء عن الصحة، أو السلامة، أو المخاطر الاجتماعية؟ أو ربما تسعة عشر عامًا فيدرك المخاطر، ولكنه يرى أن العواقب الاجتماعية في هذا المكان والزمان، أكثر أهمية من المخاطر الصحية المحتملة آجلًا؟ أو ربما بعمر ستة وعشرين عامًا ويدرك قيمة التحقيق المؤجل للرغبات؟ وليس من الواضح ما هو العمر اللازم ليتمكن الطفل من اتخاذ قرارات مستنيرة من مختلف الأنواع.

ترتبط هذه المشكلة بمشكلة أخرى تتعلق بالإجابة عن سؤال: كيف لنا أن نحدد ما الذي سيقرره طفلنا أو طفلتنا الافتراضية لنفسها، لأن اتخاذ القرارات السليمة يتعلق بالتجارب الحياتية أكثر من تعلقه بالسن، وتتضمن هذه التجارب تجاربها التراكمية التي نتجت عن القرارات الوالدية - قرارات كالتي نحاول اتخاذها بتخيل ما الذي سيتخذه الطفل، فأي الفرضيات المحتملة مما يمكن تصوُّرها

وتجعل طفلنا أو طفلتنا الأصغر سنًا يتخذ قرارًا له أو لها لوحدهما؟ فلو نظرنا في السلوك الجنسي لصبية بعمر اثني عشر، ويمكنني أن أتصورها صبية بلغت من العمر ستة وعشرين عامًا قد اختارت العفة وأصبحت سعيدة أو (تعيسة) لأنها اختارت العفة، أو نسخة من صبية بعمر سبعة وعشرين عامًا اختارت أن تجرب ما تحب بحرية، فأصيبت بالأمراض الجنسية، وحملت في عمر الأربعة عشر، ولم تكمل تعليمها، وتعيش في فقر، وندمت كثيرًا، أو بنت ستة وعشرين سنة اختارت الممارسة الحرة وتمكنت من تجنب الحمل والمرض، ويرضيها الرغبات الجنسية السابقة التي أشبعتها، فأي الفرضيات أختار؟ وبالمثل يشجعنا دوكينز على تخيل إن كان طفل من طائفة (الأميش) سيختار أن ينشأ ليكون من الأميش إن كان له من العمر ما يكفي للاختيار واتخاذ قراراته لنفسه أو نفسها بإرادته أو إرادتها، فأي النسختين من الطفل الذي كبر سنتخيل: الطفل الذي نشأ عند غير الأميش أو طفل نشأ عند الأميش؟ ويفترض دوكينز (وهمفري) ويريدان لنا أن نفترض اعتماد التنشئة الأولى، أي نشأ مع غير الأميش، فبالمحصلة من منا يريد أن ينشأ عند الأميش؟ حسنًا، إن مثل هذا التفكير مقرف لما فيه من حالة الخوف من الأجانب الغارقة بمركزية الذات والعصبية الإثنية، إن اتخاذ قرار بشأن ما سوف يختاره الأطفال لأنفسهم (إذا كانوا بعمر يكفي للاختيار) هو ممارسة لتخمينات خيالية وبالكاد يملك أساسًا قويًا كاستراتيجية أخلاقية للآباء.

وأعتقد أن الخطأ الذي يتحرى الملحدون الجدد وجوده بطريقة غير صحيحة لا يكمن في مشاركة الآباء الصادقة لأولادهم أعمق الالتزامات والقيم في قلوبهم؛ بل جعل محبتهم للأبناء مشروطة بقبول تلك الالتزامات والموافقة عليها، ولا شك أن الآباء الذين لا يمنحون الحب لأبنائهم أو ربما يهددونهم بالعقاب الجسدي عندما يخالفونهم في رؤاهم الكونية يعتبر شكلًا من أشكال الإساءة للأطفال ويمثلون حالة سقوط أخلاقي من جهتهم، ومع ذلك فلا أرى أي مبرر للاعتقاد بأن الآباء المتدينين الذين يتمنون لأطفالهم أن يكونوا متدينين مثلهم، ينزعون لارتكاب هذه الجناية بقدر إساءة الآباء الملحدين الذين يتمنون لأطفالهم أن يكون ملحدين مثلهم، وسواء أراد الآباء تحمل المسؤولية، أم أراد الغرباء تحميل بعض الآباء والأمهات المسؤولية، فإن الأمر متروك للوالدين ليقدما الأفضل لأبنائهما ويتخذا القرارات الصائبة التي يعتقدان أنها الأفضل لأطفالهما، وحتمًا ستكون هذه القرارات مستقاة من التصورات الثقافية للوالدين، بما في ذلك رؤاهما الكونية سواء كانت دينية أم غير دينية.

يهتم الملحدون الجدد أيضًا (محقين فيما أظن) بالانتشار المستمر للأفكار الزائفة باسم التعليم الديني الحر، إذ يعلّم الآباء دائمًا أطفالهم سفاسف الأمور ولأسباب هزيلة غالبًا، والأسوأ من ذلك عندما يعلم الآباء أطفالهم مفاهيم مغلوطة وبعد ذلك يثبطون عزيمتهم عن التفحص النقدي لتلك المفاهيم، وبعض هذه المفاهيم الخاطئة تكون دينية؛ والكثير منها تكون غير ذلك، ينبغي علينا تعظيم السعي وراء

الحقيقة، حيثما يرشدنا إليها العقل والدليل، وآمل أن لا يقوم الآباء والأمهات والمربون بنصب عراقيل غير ضرورية تمنع الأطفال من أن يكونوا قادرين على تمييز الحقيقة، سواء في المجال الديني أو غيره، فلماذا يجب علينا أن نجعل «فكرة ما» تتجاوز الطرق المناسبة لاكتشاف الحقيقة لمجرد أنها «فكرة دينية»؟[١٣] كما علق الفيلسوف «روجر تريج Roger Trigg»: (إن الحق في الحرية الدينية –مهما يكن ثمينًا– لا يصلح مطلقًا عندما تترك حياة الشباب تحت رحمة أولئك الذين يزدرون صوت العقل)،[١٤] فإذا كان الآباء يؤمنون بأن التزاماتهم الدينية معقولة وصحيحة، فإن تشجيع أبنائهم على اكتشاف الحقيقة لا ينبغي أن يقلقهم.

إذا كان الآباء يراعون معتقداتهم الدينية الخاصة ويعتبرونها صحيحة ومهمة، فلا أرى أي مبرر لإدانة الآباء الذين يشجعون أطفالهم على الإقرار بأن تلك المعتقدات الدينية (غير أخلاقية) أو (مسيئة) ما لم يفعلوا ذلك بطريقة غير محببة. ويكتب تريج مرة أخرى: «عندما لا يمكن نقل الدين إلى الجيل التالي، فلأنه لم يمارس بحرية»،[١٥] ويغريني الدفاع عن نقل الآباء الملحدين لمعتقداتهم الإلحادية بنفس الطريقة، ولكن لا بد من أن نذكر معلومة مفيدة: لقد أثبتت الأدلة العلمية أن القيمة الشخصية تكمن في ممارسة الشعائر الدينية الملتزمة.

رغم أن هناك العديد من الأمثلة القوية على العكس، فإن البحث يدل على أن الالتزام بنظام المعتقدات الدينية، والمشاركة في مجتمع ديني يقترن بالعديد من النتائج الإيجابية، وقد ثبت أن المتدينين الناشطين في التدين يتمتعون بصحة عقلية

وعاطفية أفضل، ويتعافون من الصدمة بسرعة أكبر، ويتمتعون بحياة أطول وأكثر سعادة، وهم أكثر سخاءً، ويتطوعون بدرجة أكبر، ويساهمون بنشاط في المجتمعات أكثر مما يقوم به المتدينون بالاسم أو غير المتدينين.[١٦]

إن سبب كون التدين له هذه النتائج الإيجابية فلا يزال مجالًا نشطًا للبحث، ولكن إحدى الطرق التي تستطيع بها المعتقدات الدينية - بالاستقلال عن كونها جزءًا من رعاية مجتمعية - هي أنها تعمل بطريقة تثمر الرفاه الشخصي لأنها تخدم كمبدأ ينظم أهدافنا ودوافعنا المختلفة ويجعلها ذات مغزى.

كلنا له العديد من الأهداف أو المساعي اليومية، ونسعى جاهدين لنكون محبوبين من أقراننا أو زملائنا في العمل، ولنبدو أذكياء، ونعمل بجدية، ولإسعاد أزواجنا، ولنكون آباء صالحين، ولنعيش حياة صحية، أو أي شيء آخر نطمح إليه، ولاكتشاف بعض طموحاتنا الخاصة، أكمل ببساطة هذه الجملة «أسعى عادة لأن...» إن الطموحات تختلف من شخص لآخر، وقد بيّنت الأبحاث التي قام بها عالم النفس «روبرت إيمونز Robert Emmons» ومعاونوه عن الطموح، أن الناس الذين لديهم طموح مرتفع يرتبط بالله أو بدينهم (مثل أن تسعى إلى أن تكون مسلمًا صالحًا أو لإرضاء الله) يميلون لامتلاك صحة جسدية وعقلية أفضل.[١٧] وقد تبيَّن أن طلاب الجامعات الذين لديهم قدر أكبر نسبيًا من الطموحات الدينية يتمتعون بحالات أقل من الاكتئاب، والقلق، وغيرها من الاضطراب النفسية والعاطفية الشائعة، فضلًا عن نوبات أقل من المرض وزيارات المركز الصحي

الجامعي، يبدو إذن أن الطموحات الدينية ترتبط بالصحة، ولكن لماذا؟

لقد طلب إيمونز وفريقه البحثي من طلاب الجامعة وضع قائمة من الطموحات الشخصية، ثم ترتيب تلك الطموحات مقابل بعضها البعض من حيث مقدار ما تساعد أو تعيق إشباع بعضها البعض، على سبيل المثال، إذا كان أحد الطموحات لديَّ هو أن أكون مقتصدًا في المال، والطموح الآخر أن أعيش كل يوم كما لو أنه سيكون يومي الأخير، فإن هذين المسعيينِ سيكونان متضادين، في حين أن هدف «العيش بحياة بسيطة» قد يكون منسجمًا مع السعي إلى أن أكون مقتصدًا في المال، وحساب مقدار التضارب بين كل زوجين من الطموحات سيعطينا نتائج إجمالية للتضاد، وقد تبين ربما بما لا يدعو إلى الدهشة، أن الأشخاص الذين لديهم درجة عالية من النزاع بين طموحاتهم يجدون الحياة مرهقة، ويكونون أكثر عرضة للقلق، والاكتئاب، والمرض الجسدي، وهكذا فالعدد الكبير من الطموحات الدينية له درجة تضاد منخفضة فيعطي حالة رفاه أفضل، فهل يوجد ارتباط لحالة درجة التضاد المنخفضة بين الطموحات مع نمط الطموحات الدينية؟

لقد بيّن بحث إيمونز أن الناس الذين لديهم كثير من المساعي الدينية يميلون لمقدار أقل من الصراع بين مساعيهم، وبدلًا من التمزق بين كل اتجاه للقيم والرغبات المتنافسة، فإن الناس المتمركزين حول الدين تميل مساعيهم للتناغم مع بعضها. فنجد ثلاثة طموحات منفصلة مثل «كون المرء مواطنًا صالحًا»، «وصديقًا جيدًا»، «ويتتبع رضا الله» ترتبط جميعها ببعض بطريقة متناغمة ذات مغزى، إن كون المرء

متدينًا بشكل فعال لدرجة أن المعتقدات الدينية تؤثر على أهدافه أو مساعيه اليومية، يعزز حالة السعادة لديه من خلال هيكلة وترتيب ما هو مهم في الحياة، وبالتالي يحد من النزاع، ومن ثم يحد من المرض العقلي والجسدي.

ومما لا شك فيه أن هناك عوامل إضافية تسهم في حقيقة إمكان التدين أن يؤثر تأثيرًا إيجابيًا وبناءً في حياة الأفراد، بما في ذلك محتوى المعتقدات الدينية والمشاركة المجتمعية، إنني أنقل بحوث إيمونز لأنها تقدم أحد المسارات التي قد تكون ذات أهمية خاصة في مرحلة الطفولة المتأخرة وسنوات المراهقة في تقوية مهارات التفكر للبدء بربط المعتقدات الدينية الأساسية مع الحياة اليومية، وإن حدث هذا، فإذا أمكن ربط الإيمان بأن «هناك إله» مع القول «أود أن أظهر النزاهة في كل ما أقوم به» أو «أود أن أضع احتياجات الآخرين قبل احتياجاتي» أو ما شابه ذلك، فقد تكون النتيجة عندئذ حياة مزدهرة.

فظهور أن بعض المعتقدات الدينية عند وضعها موضع التنفيذ يعزز الصحة النفسية والعاطفية والجسدية الإيجابية وكذلك ممارسة قوة الشخصية لا يعني بالضرورة صحة أو خطأ هذه المعتقدات الدينية، فنحن لا يمكن أن نساوي بين النافع أو المفيد مع الصحيح، لو أن نارًا اندلعت في مطبخك دون علمك (لسبب ما) واعتقدت أن دبًا جائعًا كان في داخل المطبخ، ربما ستفر إلى مكان آمن، إن الاعتقاد بأن دبًا كان في مطبخك كان مفيدًا ونافعًا لك في تلك الحالة، ولكنه يبقى اعتقادًا خاطئًا.

إذا كنت تؤمن بإله كريم خلق الدنيا والناس فيها، فإنك قد تجد من المستغرب أن التزامك بالإله ليس له أي فوائد في هذا المكان والوقت، وكذلك فإن مجرد وجود فوائد لا يعتبر مبررًا للاعتقاد بالله.

تبدو الالتزامات الدينية عمومًا معززة للسعادة النفسية والجسدية، وتوفر أدوات للتعامل مع تحديات الحياة، وتستطيع أن تقدم إطارًا ذا معنى لدمج الأهداف. ومع هذه الوقائع، هل من الأخلاقي أن يقوم أحد الوالدين بإبعاد الطفل بقوة عن معتقدات تحمل هذه الفوائد؟ ربما الأمر كذلك، شريطة أن يكون من المبرر في الرؤية الكونية للوالدين أن يرجح السعي للحقيقة على الازدهار الإنساني الفردي، ولكن هذا قرار يجب أن يتخذه الوالدان بروية، إن الآباء والأمهات الذين يعتبرون أن التزاماتهم الدينية صحيحة ومفيدة، يسوغ لهم تعليم أطفالهم طرق دينهم بشكل محبب وعميق.

وسأقدم في الفصل التالي بعض الاقتراحات عن كيفية القيام بذلك على نحو فعال.

***

# الفصل الحادي عشر

## تشجيع النمو الديني عند الأطفال

أرسلت لي أم مسيحية هذه القصة المبينة:

عندما كان بن في مرحلة روضة الأطفال كنا نقوم بتدريسه إضافيًا في المنزل وبينما كنا نؤدي درس الإنجيل الذي يتمحور حول دراسة حياة المسيح ومحاولة العيش مثله، وفي نهاية الدرس أطلقت تعميمًا أن تكون مسيحيًا يعني أن تكون ببساطة مثل عيسى، فقال لي بن «لا يتوجب عليَّ ذلك» فقلت له «إن كنت مسيحيًا فذلك ما يجب عليك أن تحاول فعله» فقال «لا، هذا لا يجب عليَّ» وبعد أخذ ورد ومخاوف الأم من أن يكون ابنها قد اتخذ قرارًا بأن يعيش إلى الأبد محجوبًا عن الله منذ سن السادسة، سألته «ما الذي يفترض عليك فعله؟» فأجاب بن: «كل ما عليَّ فعله أن أراقب ما الذي يفعله والدي- فهو عليه أن يعيش كالمسيح، وأنا عليَّ أن أعيش مثله».

تبين لنا هذه القصة عدة حقائق؛ أولها أنه حتى الأطفال بعمر ست سنوات يمكن أن يكونوا مؤمنين متدينين بعمق فكري، والثانية أن الأطفال الصغار لا

يتقبلون ببساطة شديدة كل شيء يقوله لهم الوالدان، والثالثة عندما يتعلق الأمر بتشجيع أو نقل معلومة فإن النموذج السلوكي للوالد أو المعلم أكثر جدوى من مجرد تعليم المذهب أو رواية القصص الدينية.

وخلال هذا الكتاب كله كنت أحاجج بأن الدليل الحالي يشير إلى أن الأطفال يتقبلون فطريًا الاعتقادات الدينية الأساسية مثل الاعتقاد بوجود الآلهة، ولعلك تظن أن هذه الفطرية تعني أنه لا يوجد سبب منطقي لتعليم الأولاد، ألن يجدوا الدين بأنفسهم؟ فما لم يعترض طريقَهم ظروفٌ خاصة بيئية أو شخصية، التي حددت معالمها في الفصل السابق، سيصبح الأطفال متدينين دون أي إرشاد أو تعليم مباشر، ولكن فطرية الدين لا تقتضي أن تكون أي اعتقادات دينية خيرة أو صحيحة كالاعتقادات الأخرى.

ونظرًا للأهمية النسبية للاعتقادات الدينية لتحفيز قرارات الحياة وتعزيز الصحة والعافية، فأرجح أن معظم البالغين يرغبون أن يحصل الأطفال تحت رعايتهم على أفضل ما يستطيعون تقديمه لهم، وكما ذكرت في الفصل السادس فإن نوع الاعتقادات الدينية التي يكتسبها الأطفال فطريًا دون إضافة مباشرة من البالغين ستخرج عن دائرة الأنظمة المضبوطة لاهوتيًا للتقاليد الدينية في العالم، إذ لو ترك الأطفال لإمكاناتهم الذاتية فسيتدينون بمعنى ما، ولكن على الأرجح بتدين أقرب إلى ما يسمى خرافة منه إلى نظام اعتقاد وممارسة واعٍ وعميق، فربما ينجرفون إلى عبادة الأرض الأم، أو إلى التنجيم، أو إلى الشغف المرضي بالأشباح، بالإضافة

إلى الاعتقادات والممارسات الظنية كارتداء ثيابهم الداخلية بالمقلوب استدعاءً لهطول الثلج، أو حمل التمائم للنجاح في الامتحانات المدرسية.

إن فشلنا أن نقدم للأطفال نظامًا من الاعتقادات والممارسات جرى تنقيته وإكماله عبر أجيال من الحوارات اللاهوتية والتمحيص الفلسفي والخبرات المجتمعة، فقد يعرضهم ذلك للتطرف الديني والشعارات الجذابة من الروحانيين ذوي الشخصيات القوية، أو الانتقاء المزاجي مما هو متاح واختيار الخيارات الأكثر جاذبية من عدة تقاليد متاحة، سواء كان الجمع بينها سائغًا أم لا فعليًا، فالنزوع الفطري للأطفال نحو الفكر الديني وتعطشهم للإشباع الروحي سيدفعهم نحو نوع ما من التعبير الديني، سواء قدم البالغون الموثوق بهم أهدافًا مناسبة أم لم يقدموا.

قارن لو شئت الفكر الديني بتفضيلات الطعام، لو ترك الأطفال لوحدهم قد ينجذبون إلى أطعمة تبقيهم أحياء ولكنها ليست أفضل الأطعمة لحياة صحية.

فالبيولوجيا البشرية والنفس البشرية تحد من أنواع الأشياء التي تغرينا بأكلها ونجدها طيبة المذاق وقابلة للهضم، قد يلزم الأطفال حدوث بعض اضطرابات المعدة والنجاة من نوبات تسمم حتى يكتشفوا ما يمكنهم وما لا يمكنهم أكله، كما سيكتشفون طعام السوق الرديء، وقد يكون قوتهم مشبعًا إلى الحد الأقصى بالسكريات والدهون، وقد يأكلون مثل أبطال أفلام الكرتون الشرهين أكثر من أبطال أفلام الأطفال النحيلين، ستساعد الطبيعة الأطفال على إيجاد الأطعمة التي

تكفي للبقاء على قيد الحياة، ولكن يلزم وجود التوجيه من الوالدين وغيرهم لمساعدة الأطفال في تمييز ميزان الأطعمة الأفضل لهم غذائيًا وكيف يحضرون ويأكلون الطعام بحيث لا يكون مجرد مصدر للسعرات الحرارية، ولكن طعامًا أكثر تغذية، تنوعًا ومتعة.

وبالمثل يميل الأطفال بأنفسهم ليكونوا متدينين، ولكن ليس بالضرورة نحو النوع الأمثل، والأكثر منطقية أو الأكثر نفعًا من التدين.

وقد عرضت في الفصل التاسع بعض المقترحات للذين يأملون في المحافظة على الإلحاد في وجه الميول الطبيعية للاعتقاد بالغيبيات، وهنا سأعرض بعض الاقتراحات لمن يرغب في تشجيع الاعتقادات الدينية للأطفال، وأبدأ بتحذير: لأن المشاركة في دين ما قد يصوغ بقوة اعتقادات وقيم المرء، ويمكن أن يدفع الناس إلى أفعال في ذروة الخير أو حضيض الشر، فأقترح على الوالدين أن يتفحصا مبررات اعتقاداتهم والتزاماتهم الدينية الخاصة قبل أن يشجعا أولادهما على اعتناق هذه المعتقدات، على الوالدين أن ينظرا في مبررات المعتقدات عندهما وخاصة التي قد تؤدي دورًا قويًا في حياة أطفالها إن نقلت إليهم، وما أدعو إليه ليس المبالغة بالانتقاد؛ بل انتقاد معتدل، فقد نكون مخطئين بخصوص التزاماتنا الدينية، ويجب أن نتقبل ما تقدمه التقاليد الثقافية (بما فيها الدينية) وممارسة المنطق والدليل العلمي من حيث المعارضة والتصحيح أو التأكيد لمعتقداتنا، وعندها يلتفت الوالدان لعرض رؤاهما على أطفالها وهما يشعران بالثقة بأنهما قد مارسا ضبط الجودة على اعتقاداتهما

الخاصة وأنهما يعرضان لأطفالهما أفضل ما يمكنهما عرضه، أحاول باعتباري والدًا أن أقدم لأولادي مهارات تمييز الخير والحق أملًا أنهم سيتبنون اعتقاداتي الحقة وأن يرفضوا أخطائي أيضًا، وبناءً على هذا التحذير أعرض بعض الأفكار المختصرة عن كيفية تشجيع نمو الأطفال الديني.

**١ـ ابدأ مبكرًا، يمكن أن يتأقلم الأطفال بسهولة مع التفكير بالإله والأفكار الدينية الأخرى من مراحل مبكرة جدًا،** لا حاجة أن تحول صورة الإله القدير إلى صورة كرتونية لرجل بلحية من أجل الشرح لأطفال بعمر ثلاثة أعوام، ولكن يمكنك تدريسهم الصفات الإلهية مثل العلم المطلق والإدراك المطلق والأبدية والخيرية الشاملة، وواقعيًا إن البدء مع الأطفال بعمر ثلاث سنوات قد يكون أكثر فاعلية من الانتظار حتى يكونوا بعمر ثمانية أو أكبر من ذلك، حاول فقط أن تتجنب اللغة المجردة والمعقدة، وأعط الأطفال مسائل فكرية ملموسة يمكنهم أن يمارسوا فهمهم من خلالها، كثير من هذه المسائل يمكن أن تصاغ وفق نماذج التجارب المذكورة في الفصول السابقة، على سبيل المثال بدلًا من الإخبار المجرد للأطفال عن قدرة الله على رؤية وسماع كل شيء، أعطهم ألعابًا تجعلهم يخمنون مقارنة بين ما يراه ويسمعه الله بمقابل ما يراه ويسمعه الإنسان والحيوانات المختلفة، «هل يمكن لله أن يرى داخل هذا الصندوق الأسود» «نعم هذا صحيح، إن الله قادر على ذلك، ولكن هل يستطيع أخوك؟ أو هل يستطيع الكلب ذلك؟» بدلًا من مجرد إخبارهم بأن الله أبدي، اسأل الأطفال مثلًا كيف كان الله قبل أن يولدوا هم، وكيف سيكون

الله بعد سنوات كثيرة جدًا من الآن، وهل وجد وقت ما لم يوجد فيه الإله؟ هل احتاج الإله أن يولد؟ هل سيموت الإله على الإطلاق؟

لدى الأطفال الصغار استعداد مباشر لاستيعاب فكرة الإله الخالق للعالم الطبيعي، ويمكنك لفت انتباه الأطفال إلى ما يميلون إلى رؤيته بالفعل: الوظيفة والغاية الظاهرة في العالم الطبيعي، ثم أجب عن هذا السؤال: ولكن من أين أتى النظام؟ ولا تنسَ أن الأطفال يرون أن الشمس والقمر والجبال والبحيرات والأنهار وتشكلات الصخور أشياءَ وظيفية ذات غاية، وعند الوصول إلى الحديث عن الكائنات الحية قد ترغب كبعض المؤمنين بالإله «المؤلهين» Theists المعاصرين أن يفهم الأطفال أن الكون خلقه الإله، ولكن تريد أن يفهم الأطفال أن التطور عبر الانتقاء الطبيعي على أنه العملية التي استخدمها الله لإحداث التنوع في الحياة، رغم أن الأبحاث تدل على أن الأطفال يجدون صعوبة في قبول التطور، قد يكون من الأسهل أن يرى الأطفال قوة إلهية تفسر ما يبدو أنه توجيه للتطور.

٢ـ **علم الأطفال ما تعتقد أنه صحيح بمحبة وتواضع**، سواء رغبت بذلك أم لم ترغب ستعلم أولادك ما تعتبره حقًا في العالم والحياة والعلاقات والقيم والأخلاق وغيرها من الأمور، وبدلًا من الابتعاد عن هذه المسؤولية، استعمل وظيفتك كمعلم ونموذج للاقتداء قوةً دافعة لتفحص دقيق لاعتقاداتك الخاصة أولًا ثم لتشارك مع الأطفال الذين ترعاهم ما تعتبره خيرًا وحقًا، ولكن افعل ذلك دومًا بروح المحبة والتواضع الواثق، واختبر دوافعك للتعليم؛ فهل تنطلق من

المحبة، وتسعى لتساعد أولادك لينموا فيكونوا راشدين مكتملين وفعالين، أم أنك تتصرف من منطلق أناني، لجعل أولادك يفكرون ويتصرفون مثلك تمامًا؟[1] إن كان ما يدفعك المحبة، وقد تفحصت التزاماتك كن واثقًا في تعليمك لأنك قد قيمت اعتقاداتك بدقة، ومع كل هذا مارس التعليم بتواضع لأنك قد تكون لا زلت مخطئًا ولو في تفاصيل بسيطة فقط.

إن جزءًا من التعليم الديني هو اكتشاف الذات، ولكنه مجرد أمر جزئي، كما بيّن الفيلسوف روجر تريغ Roger Trigg مرارًا في كتابه الدين في الحياة العامة Religion in The Public Life، ما ينسى عادة في النقاشات حول التعليم الديني للأطفال بأن الدين ليس مجرد تدريب لاكتشاف الذات أو لإيجاد معنى للفرد،[2] فالتعليم الديني يهتم أيضًا بالادعاءات عن حقيقة العالم والبشر والأخلاق والواقع، وعلى الأقل فأحد أبعاد الدين هو ادعاءات عن ما هو حق وخير، وليست كل الأفكار الدينية تملك الخيرية نفسها، فأحد العناصر المعقولة للتعليم الديني إذًا هي أن نوضح للأطفال (أو البالغين) كيفية التفكير الأمثل، وكيف يميزون الادعاءات الأكثر والأقل صحة على الأرجح، واقتراحي الثالث إذًا هو أن نعلم كيفية التفكير.

٣- **علمهم كيف يفكرون ويتعلمون ويميزون الحقيقة**، لأن الأديان غالبًا ما تؤكد على تعالي وغيرية الآلهة وما يشبه ذلك، فإنها تدعي غالبًا أن الفهم البشري للأمور الإلهية قاصر بالضرورة، ولكن ذلك لا يقتضي أنه لا يوجد شيء لنعرفه

أو أن كل الطرق المعرفية متكافئة بالصحة أو ذات مسلك صحيح، إن تمييز الخير والأفكار المثبتة بالدليل جيدًا من الأفكار غير الخيرة (أو الأفكار السخيفة تمامًا) ليس أمرًا سهلًا على الدوام، ولكن تجهيز نفسك وأطفالك ببعض أدوات التفكير والتعلم قد يكون أكثر قيمةً من أي محتوى قد تعلمه.

شجّع الأطفال أن ينظروا في مصدر ادعاءات معينة، إن كانت من النصوص الدينية فما الذي يجعلها قيمة؟ ما الذي يمكن تعلمه منطقيًا منها؟ وإن كان المصدر إنسانًا، فهل هذا الإنسان ثقة؟ وما هي مؤهلات الإنسان هذا؟ وهل تتطابق سلوكيات هذا الشخص مع تعليماته؟

شجع الأطفال على اعتبار الاتساق الداخلي لأنظمة الاعتقاد، فإن كانت فكرة ما غير متسقة مع اعتقادات قوية الإثبات فيجب أن ننظر إليها بريبة، وإن كانت فكرة دينية ما تتناقض بوضوح مع فكرة من ذلك النظام الديني أو مع أفكار أخرى نعلم صحتها، فتكون الفكرة الدينية التي ننظر فيها هنا محل شك - لا يعني ذلك بالضرورة أنها باطلة، ولكنها تحتاج إلى مزيد من النظر[٣].

ولعل الأهم أن تشرح للأطفال كيفية البحث عن الأجوبة، فلا نتوقع من أحد أن يملك كل الإجابات جاهزة ليعطيها في أي لحظة، سواء أكان الموضوع علميًا أو تاريخيًا أو فلسفيًا أو دينيًا، فمجرد أن يعجز رجل دين ما عن تقديم تفسير جيد عن سؤال لماذا يسمح الإله الخيّر بالمعاناة، لا يعني بالضرورة أنه لا يوجد جواب للتساؤل، ومجرد عجز الملحد الجديد فلان عن تفسير لماذا يبدو الكون قابلًا للفهم

لا يعني بالضرورة أنه منظم من قبل الإله حقًا، يجب أن يعلم الأطفال (والكبار) أن معظم الأسئلة التي قد تواجههم، حتى أصعب هذه الأسئلة، يوجد أحدٌ ما على الأرجح في وقت ما قد فكر وبحث الموضوع جديًا، وعنده اقتراحات قد تكون معينة لنا، ومعظم هذه الأفكار مسجلة في كتاب أو مقال نجدهُ في مكانٍ ما، وعندما يكون لدى أولادي سؤال عن فقرة صعبة من الإنجيل على سبيل المثال يمكنني محاولة الإجابة بأحسن ما أستطيعه، ولكن ربما من الأفضل أن استغل الفرصة لأقول، «حسنًا، لست متأكدًا تمامًا، دعونا نبحث سويًا» ثم أنتقل بعدها إلى تفاسير الإنجيل أو إلى الموسوعات للحصول على وجهات نظر أخرى.

إن اقتراحاتي الثلاثة التالية قد ألهمها بحث عالم النفس باول هاريس[٤] وهو خبير في كيفية تعلم الأطفال عن طريق الشهادة، وقد بدأ بحثه بدراسة منهجية لكيفية تعلم الأطفال عن الكيانات العلمية الغيبية «غير المرئية» مثل الجراثيم أو الأوكسجين، وكذلك عن الكائنات غير المرئية مثل الأرواح والإله، وقد أكد على التشابهات في كيفية تعلم الأطفال لهذه الفئات من الكيانات في مقابل الشخصيات الخيالية التي لا يؤمن بها الأطفال الكبار، مثل الغيلان والجينات، وفي دراسته عن كيفية تعلم الأطفال عبر الشهادة، طرح هو وزملاؤه عددًا من الاستراتيجيات التي يظنون أنها تساهم في اعتقادِ الأطفالِ القويِّ بكيان معين، وبإعادة صياغة بحثه وتطبيق هذه الاستراتيجيات على التعليم عن الإله بالضبط، إليكم مقترحاته الثلاثة.

**٤- لا تقل إنك تؤمن به أو تعتقد به؛ تحدث وكأنه لا يوجد شك فيه**، لاحظ باول هاريس أن الناس عندما تتحدث عن الجراثيم أو الأوكسجين لا تقول عادة «أعتقد بالأوكسجين وأعتقد أن الأوكسجين موجود حولنا» وبالمثل لا يدعي الناس أنهم يعتقدون بالكراسي والقطط والأحذية والشمس، وبالمقابل يتحدث الناس عن إيمانهم بالله، والأرواح والملائكة وغير ذلك، وقد يكون الأولاد حساسين لأسلوب «أعتقد بـ» المستخدم عادة لكيانات يمكن أن يتطرق الشك إلى وجودها. وبالمثل لا نقول عادة «أنا أؤمن بـ» بالكرسي الذي نجلس عليه أو السيارة التي نقودها، حتى وإن كان ذلك صحيحًا، وبالتالي فإن هذا النوع من الحديث سيعزل الإله والأرواح والملائكة كأمور غير مؤكدة أكثر من الجراثيم والأوكسجين، ومن المناسب من حين لآخر حين نطرح قضية التنبيه أن الآخرين لديهم رؤى مختلفة. وهذا ما يفعله العلماء والدارسون الآخرون يخصصون المجالات المستحدثة من البحث عندما يكون الإجماع لا زال قيد التشكل، فبدلًا من قول «أنا أؤمن بـ س» يقول الدارس بثقة «البعض يؤمن بـ ع ولكن س هو القضية الصحيحة وهذا هو السبب».

عندما يتحدث البالغون عن «الإيمان بالله» أو «الاعتقاد بالله» لا يقصد الكبار مجرد أن الله موجود؛ بل إنهم قد يقصدون أيضًا أنهم يثقون بالله بنفس الطريقة التي نثق بأصدقائنا وأزواجنا أو عندما نخبر أولادنا «أنا نثق بك» **(أؤمن بك)** إن كانت هذه الثقة بالعلاقة هي ما نعنيه عند قولنا «أعتقد بالله» «أؤمن بالله»، فاستعمل لغة أقل غموضًا وقل «أثق بالله».

٥- **تحدث عن الله في سياقات حقيقية يمكن تحري فعل الله فيها**، مثلًا لشرح جلسة دينية عائلية بدأ كاهن الكنيسة بفتح علب هدايا والادعاء بأنها شيء مختلف عن الشيء الموجود فيها، على سبيل المثال يفتح علبة فيها مقلاة ويقول «إن هذه قيثارة، ولطالما تمنيت أن أعزف على قيثارة!» ثم يبدأ بالنقر عُلى المقلاة ويغني، ومع دهشة الكبار يصرخ طفل في مقدمة الحضور مكررًا قوله «لا، إنها مقلاة!» فالأطفال حتى بعمر ثلاث أو أربع سنوات يفرقون بدقة بين الواقع والخيال، لكن بعض الناس يغريهم الحديث عن الله والأمور الدينية في سياقات خاصة متقطعة فقط قد تشجع على التفكير في الله أو الأرواح وكأنه ضرب من الخيال، بخلاف الحديث عن الجنيات الحارسة والغيلان يكون الحديث عادة عن الأوكسجين والجراثيم ضمن سياقات تفسيرية، أي يفسر لماذا شيء ما بهذه الحالة، تشعر بشعور غريب تحت الماء لأنه لا يمكنك الحصول على الأوكسجين، وتمرض بسبب الجراثيم، وبالمثل لو جمعت الإله مع هذه القوى غير المرئية يمكنك القول إن الشخص تتحسن صحته لأن الله شفاه، قد يكون الحديث عن الجنيات الحارسة سببيًا ولكن ليس في سياقات العالم الحقيقي، فهن يحولن اليقطين إلى عربة وثيرة «في قديم الأزمان» وليس البارحة في حديقة الخلفية لمنزلي.

ويقول هاريس إن تضمين قوى وعوامل فاعلة في علاقات سبب ونتيجة -من أنواع التفكير المنطقي التي تلفت انتباه الأطفال تمامًا- قد يكون أكثر فعالية في تقوية الالتزام من افتراض وجود شيء مجرد، وهذا الدرس ينطبق على معلمي

العلوم كما ينطبق على تعليم الدين، استعمل الأفكار في سياقات السبب والنتيجة إن كنت ترغب بإظهارها مستحقة للاعتقاد أو قابلة للتصديق، وتخيل درس علوم في مدرسة ابتدائية يذكر فيه المعلم فقط وجود جسيمات دون ذرية خفية اسمها الكواركات وتأتي بستة نكهات، قد يجد أكثر الطلاب شغفًا بالعلوم هذا الادعاء لافتًا للاهتمام، ولكن معظم التلاميذ لن تصلهم الفكرة بوضوح لأنهم لن يعرفوا ما الذي ينتج عن وجود الكواركات، ما الذي تصنعه الكواركات؟ وكيف تكون الأشياء مختلفة بغيابها أو كيف تكون إن كانت مختلفة؟ تنجذب عقول الأطفال إلى محاولة معرفة كيف تعمل الأشياء، وكيف تتشكل في العلاقات السببية، وخصوصًا تلك التي قد يهتم بها الأطفال كالدراجات والألعاب والأحذية والبيتزا، أكثر من اهتمامهم بالنيوترونات والثقوب السوداء وثلاثية الفصوص.

مع تذكر هذا المبدأ فإن الحديث عن أفعال الله ضمن سياقات السبب والنتيجة الآن وهنا، سيكون أكثر فعالية من الحديث عن الله بالصيغة المجردة أو حتى الحديث عما صنعه الله في بداية خلق العالم، أو عن نوح والطوفان أو عن موسى وتجاوزه للبحر، فأنواع هذه القصص لوحدها قد تعطي الأطفال انطباعًا بأن الله يشبه شخصية في القصص الخيالية عن الجنيّات والغيلان أكثر منه عاملًا فاعلًا حقيقيًا في العالم، إن كنت تعتقد أن الله يصلح العلاقات ويشفي الأجساد، ويساعد في تغيير عقول الناس أو يساعدك في إيجاد مكان لتركن سيارتك، فقل ذلك مباشرة في آذان أطفالك.

يلزم أن يكون جهاز تحري الفاعلية فائق الحساسية قادرًا على ربط الأحداث في العالم دومًا بالأفعال الإلهية (انظر الفصل الأول)، وإلا ستكون الآلهة لا صلة لها بالواقع، إن تم الحديث عن الله فقط بالأمور التي فعلها الله في الماضي في زمنٍ أسطوري، فعلى الأرجح لن تلاحظ أفعال الله هنا والآن، إن الصلاة وبالأخص دعاء الله وشكره على الأمور الاعتيادية مثل أفراد الأسرة والصحة والثروة، وكذلك الأحداث الدنيوية مثل الوصول إلى صفقة جيدة للطماطم في السوق، أو الخروج في نزهة جميلة مع الأصدقاء، يمكن أن تدفع الإنسان الذي يصلي ليلاحظ أفعال الله، وبالطبع فإن ملاحظة أفعال الله أو التساؤل لماذا لم يستجب الله كما دعوناه (هل كان هنالك خيرٌ أعظم؟ هل كان الدعاء غير مناسب؟) يشجع على استدعاء التفكير في الله ضمن ارتباط سببي مع العالم الحقيقي.

**قد يقلقك أن يوجد لله تنافسٌ في هذه الأدوار التفسيرية:** كأن يقال إن الطب -وليس الله- يشفينا، الطقس السيئ لم يكن عقوبة بل نتيجة مرور العاصفة، ومكان ركن السيارة فتح بسبب الحظ الأعمى، إنَّ العلم والتفكير الاحتمالي الأكثر عمقًا قد دفع بأفعال الله بعيدًا إلى هوامش الأنشطة اليومية، ليس من شأني هنا وضع شرحٍ لاهوتي عن الفعل الإلهي، ولكن دعوني أشير إلى أن نوعًا ما من التفسير لحادث لا يتنافس بالضرورة مع نوع آخر من التفسير، فقد أقع إلى الأرض بسبب الجاذبية أو بسبب فشل الدماغ والقشرة المحركة عندي للتفاعل مع الإشارات التي جاءت من نظام التوازن في الأذن في وقت ملائم لاستعادة توازني، أو لأن أحدًا ما ترك

لعبة سيارة أسفل الدَّرَجِ، كل هذه التفسيرات الثلاثة قد تكون لها صلة بوقوعي في الوقت نفسه، وبالمِثْلِ من الممكن أن أكون مريضًا بسبب الجراثيم، وفي نفس الوقت بسبب روح شريرة استعملت الجراثيم لتضعفني، إن التفسيرات العلمية أو الطبيعية للأحداث لا تتنافس بالضرورة مع التفسيرات الدينية أو تلغيها، والتفسيرات المتعددة الأطراف قد تكون صحيحة ومعينة في الوقت نفسه، وبالتالي فلا أقول إن الله أو القوى الدينية الأخرى تستبدل التفسيرات العلمية؛ بل إنها تضيف أسبابًا جوهرية وراء الأسباب المباشرة.[٥]

**٦- استخدم الأفكار الدينية في ظروف دنيوية وليس فقط في ظروف خاصة،** وكتوسيع للمقترح السابق فإن ربط الكيانات الدينية مع الدنيوية والأحداث اليومية وليس فقط مع ظروف الطقوس أو الظروف الاستثنائية، فجنية السن تناسب الذكر العابر عندما يفقد الطفل سنًا، وكذلك بابا نويل يأتي في وقت رأس السنة فقط، أما الجراثيم فتأتي في أي وقت؛ أي وقت من اليوم وأي يوم من الأسبوع وأي شهر من السنة، فالجراثيم بالتالي أكثر صلة بحياتنا وتستحق منا التفكير بها أكثر، ولا توضع جانبًا باعتبارها استثنائية، يطرح هاريس بأن استثنائية جنية السن وبابا نويل قد تدفع الأطفال على التفكير بهما كحالة استثنائية مختلفة عن الأوكسجين والجراثيم وما يشبهها، وبالمثل إن تحدثتَ عن الآلهة والأسلاف وأي كيانات دينية أخرى تعتبرها حقيقة فقط خلال الطقوس أو في أماكن العبادة أو الأماكن المقدسة

أو في أيام مخصصة مثل أيام الأحد أو العطل الدينية، فإنك ترسل رسالة ضمنية بأن هذه الكائنات الدينية صلتها بنا مقصورة على هذه الظروف الخاصة، ونقول مرة أخرى إن هذا يصبغ الحديث الديني بأنه تقريبًا نوع مختلف ويسهل إخراجه من الحياة مقارنة بالحديث عن الجاذبية والأمواج المكروية.

ويعلق علماء الإنسان كثيرًا بأنه على المقياس الصغير للمجتمعات التقليدية لا يتحدث أحد عن إيمانه بالآلهة، لأن الجميع يؤمن بها، ويسلّم بوجود الآلهة لأنها جزء لا ينفصل عن الحياة والأحاديث الاجتماعية كأي شيء آخر، وبتطبيق هذه الملاحظات على الله فإن الوالدين أو المعلمين الذين يريدون للأطفال أن يروا الله حقيقةً أو يروه أكثر أهمية من الجراثيم، قد ينصحون بذكر مسألة أن قدرة الله مرتبطةٌ بالأحداث في أشياء كثيرة من أمور الحياة اليومية والحقيقية، ولا يحصر الحديث عن الله في يوم محدد من الأسبوع أو في العطل الدينية خلال السنة.

وبمثل هذا الروح كتب باسكال بوير «ولذلك أنصح مدرسي الدين الذين يتوجهون لإغراق الناس بحجج ذات منطق قوي تؤيد ادعاءات ميتافيزيقية خاصة أن يقدموا لهم بدلًا عنها كثيرًا من المواقف حيث يمكن استخدام الادعاءات المطروحة لإعطاء تفسيرات ذات صلة بالأوضاع المحددة، لكن الأديان لا تحتاج إلى مستشارين خبراء لأننا جميعًا نفعل ذلك بكل الأحوال»[٦]، إن نصيحة بوير تخص أي شخص يحاول تحسين الطلاقة الدينية أو تقوية الإيمان - إيمانهم أو إيمان أطفالهم أو

إيمان الآخرين - فبدلًا من الحديث عن الاعتقادات، تستعمل الاعتقادات لإنشاء استنباطات ومواقف ومشاعر ضمن كثير من السياقات المختلفة، فهذا يساعد على تعميق الاعتقاد المفيد.

قارن تعلم الدين بتعلم اللغة، فعندما يتعلم الناس لغتهم الأم ويستخدمونها بطلاقة، لا يكون ذلك عبر نقاشات لقواعد نحوية؛ بل يتعلمون ذلك عبر سماع اللغة واستعمالها، مع بعض التصحيح من حين إلى آخر، يتعلمون كيف تحمل كلمات مختلفة معانيَ مختلفة وتحض استجابات عاطفية مختلفة وتساعد مختلف المواقف الاجتماعية، وليس عبر تعلم مجموعة من القواعد الصارمة والتعميمات ولكن عبر التدريب والتقليد، وبالمثل فإن الاعتقادات الدينية الواسعة والعميقة -مثل التي تعطي الالتزام طويل الأمد- قد يحصل الاعتقاد بها عبر عملية مماثلة لرؤيتها مستخدمة واستخدامها مرة تلو الأخرى لحل المشاكل، واستلهام الأفعال، وتحريك المشاعر، وأوافق على ملاحظة بوير ولكني أعتقد أن المتدينين غالبًا يحتاجون هذا التذكير.

**٧- اجعل الأفكار الدينية مرتبطة بالسلوك مستلهمًا فكرة هاريس عن تعليم الدين في ظروف دنيوية**، أقترح ربط الأفكار الدينية والالتزامات الدينية مع سلوكيات يومية مهمة، فالأفكار التي تحرض السلوك وتكون مرتبطة بصنع قرارات تخص كيفية التصرف يكون امتلاكها والشعور بالالتزام نحوها أسهل من الشروح العامة.

ولشرح ذلك بالنسبة للمنتسبين لتقاليد دينهم تشمل سفر التكوين كنص ديني فإن التعليم العام بناءً على الإصحاح الثاني والثالث من سفر التكوين هو أن الكائنات البشرية لها مسؤولية خاصة تجاه العالم، يقال إن البشر قد خُلِقُوا بميزات خاصة والتزامات خاصة باعتبارهم خُلِقُوا على صورة الله، ادخلوا إلى جنة عدن مع تعليمات لرعاية الجنة، يمكنك الأخذ من هذه النصوص الدينية أن البشر ملزمون برعاية البيئة، لكن لو توقفت حصة التعليم هنا فإن رسوخ المعلومة في ذهن الشاب سيكون أقل مما لو كانت الخطوة التالية هي الذهاب وتنظيف جانب الطريق من الأوراق أو تنظيف بقايا النباتات التي قد تسبب خطر حدوث الحرائق أو حتى بذل بعض الجهد في حديقة خضار خلف المنزل، وبالمثل فإن الأوامر الدينية لرعاية الفقراء ستكون أكثر معنى إن تبع تقديمها القيام بخدمة محل طعام مخصص للفقراء أو مطعم حساء ومحاشي أو العمل ليوم مع مشروع بناء مساكن خيري مثل هابتات هيومانتي، إن نماء الأطفال الديني سينتفع من فرصة التعرف على أفراد حقيقيين يكافحون الفقر والتعاطف معهم، وقد تكون التطبيقات المرتبطة بالسلوك شيئًا بسيطًا مثل إنهاء حصة التعليم بتحديات سلوكية بسيطة، على سبيل المثال عند تعليم التوجيه الديني للرضوخ للمؤسسات الحكومية قد يكون التحدي ذو الصلة للأطفال هو التعرف على المعلم الأقل تفضيلًا بالنسبة لهم، والتفكير بكيفية محاولة أن يكونوا أكثر احترامًا لذلك الأستاذ ولماذا.

**٨- تصرف وفق اعتقاداتك الدينية الخاصة،** إن المقترح السابق سيكون أسهل تنفيذًا وأكثر إقناعًا إن تصرفت فعليًا سواء كنت والدًا أو معلمًا بالطرف التي تدفع إليها اعتقاداتك الدينية، فإن لم يرَ الأطفال أن ما تعتقده عن الله أو أرواح الأسلاف أو أي شيء آخر؛ يمكن أن يحدث فرقًا ملموسًا في حياتك، فعلى الأرجح بالكاد سيعتبرون هذه الاعتقادات مهمة، بالإضافة إلى أن الأطفال قد يشكون بالتزامك بها، وإن لم تكن تؤمن بها حقًا فلماذا عليهم أن يأخذوا تعليماتك لهم جديًا؟

كان والدا حماتي يبعثانها بانتظام مع إخوتها الثمانية إلى الكنسية كل أحد، ورغم أن والدها كان كاثوليكيًا فقد أرسل أولاده إلى كنيسة لوثرية لأنها كانت أقرب إلى المنزل ويمكنهم الذهاب إليها مشيًا دونه أن يذهب معهم، ولم يذهب الوالدان إلى الكنيسة أو يظهرا أي إشارة إلى التزامهما بأي جزء من التقاليد المسيحية سواءً بالكلام أو الفعل، فلم يكن مستغربًا أن قلة من الأولاد وصلوا سن النضج بالتزام وفضيلة مسيحية، فقد أوصل إليهم والداهم عبر سلبيتهما أن المسيحية ليست مهمة للحياة، فالأفعال تتحدث بصوت أعلى من الكلمات.

**٩- اربط الالتزامات الدينية مع مجال متكامل من العواطف** فكما يقول عالم النفس النمائي كريس بوتيزس Chris Boyatzis وهو محق في ذلك، فإن الاعتقاد الديني عند الأطفال ليس مجرد إدراكهم البارد ولا يتعلق فقط بما يفكر به الأولاد، بل بماذا يشعرون[٧].

إن الحالات العاطفية تعطي علامات قوية للذاكرة والأفكار، هل كنت مرة في مزاج حزين وكل ما استطعت التفكير به هو مشاكل أو أوقات صعبة أخرى؟ أو كنت مرة تشعر بالرضا والإنجاز فسارع ذهنك لتذكر مناسبات أخرى كنت تشعر فيها بشعور مماثل؟ فانظر ماذا لو ربط الأطفال فكرة الإله فقط مع المشاعر السلبية أو فقط مع المشاعر الإيجابية، سيكون الإله صامتًا من حيث المشاعر ويحركها في أجزاء فقط من حياتهم وليس في كلها، فلو ارتبط الإله فقط مع المعاناة والحزن لأن الإله اعتُبِرَ كمصدر دعم أساسي في أوقات الشدة، فلن يُذْكَرَ اللهُ كثيرًا في أوقات الفرح، لو أن الإله ارتبط فقط بالأغاني السعيدة المرحة فسيكون إله الأوقات الجيدة فقط ويغيب ذكره بشكل مريب عندما تظهر الصعاب.

وبالمثل فإن الآباء والمعلمين ومقدمي الرعاية قد يعتبرون المغزى العاطفي لكيفية تقديم التعليم الديني، فهل يقدم بأسلوب فيه ترهيب أم ترغيب؟ هل يربط أطفالك الحديث عن الإله بالملل الشديد؟ إن مزاوجة الأفكار الدينية مع العواطف السلبية حتى لو كانت بشكل غير مقصود سينتج عنها ارتباطات سلبية تؤثر على الأفكار الدينية ولا تحتاج إلى تحريض استرجاع هذه الذكريات إلى الذهن في مستقبل الحياة.

تدرك الكثير من الكنائس والمؤسسات الدينية الحاجة لربط نظام الاعتقاد بالمشاعر الإيجابية، ولذلك تنظم مناسبات خاصة للمرح مع الأطفال والشباب مثل المعسكرات وعطلة التدريس الديني، ويكمن التحدي المنهاجي في التأكد من

أنَّ المرح يشكل امتدادًا أصيلًا للمحتوى الديني وليس إضافة ملفقة، هذه البرامج الخاصة قد تكون بداية جيدة في ربط الدين مع العواطف الإيجابية، ولكن إن كانت الأحاديث والتعليم الديني كل يوم يرتبط فقط مع الوحشة والسوداوية والشعور بالذنب فإن مناسبات المرح التي تحدث أحيانًا لن تكون على الأرجح كافية، فإن نزعت للاستدلال أمام الأولاد بأن جمال غروب الشمس دليل على عظمة الله فلا تهمل ملاحظة أن البطات تبدي حس المرح عند الإله، إن الذين يستخدمون قصة إنزال الله للنيران لإليجا ألتر (سفر الملوك ١٨) لإظهار قدرة الله وسلطانه لا يجب أن يهملوا قصصًا مثل جعل الله حمار بلعام يقول «ماذا صنعتُ لك لتضربني ثلاث مرات» (سفر العدد ٢٢:٢٨) كحالة من ضحك الرب.

١٠ - **اجعل رابط علاقتك مع أولادك قويًا وآمنًا**، دل البحث في علم النفس الديني على مدى عقود على أهمية علاقات الأطفال مع والديهم في التأثير على كيفية تصورهم لعلاقتهم مع الله، فإن كان والداهم قساةً وغير عاطفيين، سيُنْظَرُ إلى الله على الأرجح باعتباره بعيدًا وقاسيًا، فإن لم يشعر الأطفال بالأمن في ارتباطهم مع والديهم فمن غير المرجح أن يشعروا بارتباط آمن مع الله[٨]، إن الأطفال الذين (١) يثقون بوالديهم للدعم المادي والمعنوي، (٢) يمكنهم الاعتماد على والديهم ليضمنوا أمنهم عبر إرشادات ملزمة ولكن غير سلطوية (٣) يسمح الوالدان لهم باستكشاف الحياة ضمن حدود معقولة ومتوقعة سيميلون لتشكيل ارتباطات آمنة مع والديهم، إن هذه الارتباطات الآمنة ستثمر أولادًا يرغبون بتبني

المعتقدات الدينية لوالديهم ويميلون لاعتبار الإله شخصًا يرغبون بوجود علاقة معه، وبالمقابل إن كان الوالدان غير متسقين في بنية الحياة والدعم التي يقدمانها لأولادهما وكانا متغيرين أو شديدي السيطرة أو يعاقبان بقسوة أو متقلبين فسيقل احتمال أن يميل الأولاد نحو إله والديهم باعتباره شخصًا يوفر ارتباطًا جيدًا وآمنًا، والواقع أنه من المحتمل أن يرفض هؤلاء الأولاد آباءهم ويرفضون ارتباطاتهم الدينية، وبالأخص إن كان الوالدان يستخدمان دينهما لتبرير هذا النمط من الأبوة.

إن جزءًا كبيرًا من تشكل الاعتقاد الديني هو عملية تعرف اجتماعية، كما ذكرت في الفصل العاشر أرادت ابنتي في سن الحادية عشرة أن تعرف ما هي اعتقاداتي الدينية لأنها أرادت أن تشاركني هذه الاعتقادات، لقد أرادت أن تكون ما أنا عليه، فإن كان لطفلتك علاقة آمنة معك كوالد، فَعَلَى الأرجحِ سترغب أن تتبنى اعتقاداتك وممارستك الدينية سواءً أحببت ذلك أم لم تحبه، ستصبح نموذجًا في هذا السياق، وبالتالي فإن وضع خطة جيدة لاعتقاداتك وممارستك الدينية، والتصرف دائمًا وفق ما يمليه اعتقادك الديني سيكون أكثر أهمية عندما يتطلع أطفالك إليك كنموذج يسعون أن يكونوا مثله.

والخلاصة إن كنت ترغب أن يبني أطفالك على إمكاناتهم الفطرية ليكونوا ملتزمين بتقليد ديني محدد عند النضج فإنني أوصي بهذه الإرشادات العشرة :

ابدأ بالتعليم مبكرًا، إن الاستثمار القليل في السنوات الأولى – عمر ثلاث إلى أربع سنوات– قد يكون أكثر قيمة من استثمار أكبر في مراحل الطفولة المتأخرة.

يمكن للأطفال التعامل مع قدر أكبر من اللاهوت مما يظنه الوالدان، إن قدم لهم بطرق مشروحة بدلًا من تقديمه بأنواع التجريد.

عَلِّمْ بحب وتواضع، فلا تدفع الأطفال دفعًا إلى الإيمان، وبدلًا من ذلك ادعُهم ليشاركوا الالتزامات الأهم في حياتك، لا تخشَ أن تقول لا أعلم أو لست متأكدًا، استكشف مع أولادك.

علمهم كيف يفكرون ويتعلمون ويميزون بأنفسهم، لن تملك كل الحقائق، ولذلك فإن وضع نموذج لكيفية التعلم وكيفية التمييز بين الأفكار السيئة والجيدة قد يكون أكثر أهمية بكثير من المحتوى المعين الذي تريد أن تبلغه.

لا تستعمل لغة ضعيفة، إن كنت تؤمن بأن الله موجود تحدث وكأن الله موجود، ولا تستعمل أسلوب «أنا أعتقد...» إن كنت تثق بأن الله صادق لا تقل «لدي اعتقاد بالله» ولكن قل «أنا أثق بالله».

تحدث عن الله في سياقات يُحْدِثُ وجودُ الله وفعله فرقًا مشاهدًا، هل يحدث إلهك فرقًا في العالم الحقيقي؟ استدل على ذلك، إن شاهد الأطفال من حين إلى آخر الفعل الإلهي فإن إيمانهم سيقوى.

استعمل الأفكار الدينية في الحياة الاعتيادية، إن كان الإله حقيقيًا ويرتبط بحياة الأولاد، فسيكون من المساعد أن لا نحصر ذكر الإله بالأيام الدينية وأماكن الطقوس.

اجعل الدين حافزًا للفعل، هل يغير الإيمان بالأرواح أو بالآلهة طريقة عملك أو يحفز قيمًا محددة؟ أظهر هذه الارتباطات عبر الأفعال.

تصرف وفق اعتقاداتك، يحتاج الأطفال إلى دليل سلوكي لكونك تؤمن بما تقول، فالأطفال متحرون جيدون لعدم الاتساق والنفاق.

اربط الالتزامات الدينية بمجال واسع من العواطف، إن كنت تريد أن يكون الإله مرتبطًا بكل مشاعر وخبرات الأطفال، فلا يمكن أن يرتبط الإله فقط بالألعاب والمرح، أو يرتبط فقط بالرهبة والهيمنة.

أنشئ علاقة آمنة مع أطفالك، فالأطفال يرغبون بأن يكونوا مثل من يحبون، فإنهم يحبون من يثقون بهم، وأن يكونوا حول من يشعرون بالأمان والدعم معهم.

إن تعليقي الختامي للكبار الراغبين بتشجيع الاعتقادات الدينية عند الأطفال هو التالي: يعود الأمر في نهاية المطاف للأطفال أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا، قد يولد الأطفال مؤمنين مع توجه فطري قوي نحو الدين فكرًا وممارسة، ومع ذلك قد تغيب كل العوامل التي حددتها من موانع الاعتقاد الديني، وتتوفر أفضل استراتيجيات التعليم، وقد تبذل أفضل الجهود من قِبَلِكَ بأعلى درجة من الإخلاص والرعاية والحب ومع ذلك ينمو الطفل ليكون غير مؤمن، فالناس بالنهاية أحرار في اتخاذ قراراتهم الخاصة، إن العوامل الشخصية والاجتماعية والبيئية الأخرى قد تدفع أو تحد ما سيميل الناس لاعتقاده، ولكن عندما يعود الأمر إلى فرد محدد، يملك الناس

سيطرة تامة على ماذا يعتقدون ويفعلون ذلك، على الآباء والمعلمين ومقدمي الرعاية أن يعلموا أنه لا يمكن لهم أن يدَّعوا الفضل أو اللوم إن أصبح أحدهم مؤمنًا حقًا أم لا، أرجو أن تعطي هذه الملاحظة الراحة: فإن كنت متيقظًا تمامًا كمعلم فلتهدأ. فرغم أن الأولاد قد يولدون مؤمنين، فإن موتهم مؤمنين هو أمر بينهم وبين الله.

***

# الملاحظات

## المقدمة: في القطار إلى جابور

## Introduction: On the Train to Jaipur

1-Paul L. Harris Emma Brown Crispin Marriott Semantha Whittall and Sarah Harmer (الوحوش والأشباح والساحرات: اختبار حدود التمييز بين الواقع والخيال عند الأطفال الصغار Monsters Ghosts and Witches: Testing the Limits of the Fantasy-Reality Distinction in Youth Children) British Journal of Developmental Psychology 9 (1991): 105 -123; Henry M. Wellman and David Estes (الفهم المبكر للكيانات العقلية: إعادة فحص الواقعية في الطفولة Early Understanding of Mental Entities: A Reexamination of Childhood Realism) Child Development 57 (1986): 910 -923.

2-See Paul L. Harris عمل المخيلة The Work of the Imagination (Oxford: Blackwell 2000) especially chap.4.

3-David Ian Miller (Finding My Religion: Julia Sweeney Talks about How She Became an Atheist) San

Francisco Chronicle August 15.2005 accessed January 14.2011http: / /articles.sfgate.corn12005 -08- 15/ news /17384089_1_religious-los-angeles-dear-god.

وبالمصادفة لا يميل الأطفال أكثر للاعتقاد بالأشياء إن كانت تشبه الشخصيات الكرتونية، بل العكس غالبًا هو الصحيح.

4- For more on why thinking of minds as infinitely malleable or feature-less see Steven Pinker :الصفحة البيضاء والإنكار الحديث للطبيعة البشرية The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature (New York: Viking 2002).

5- AndrewN. MeltzoffandN. Keith Moore (تقليد الوليد للتعابير الوجهية عند البالغين) Child Development 54 (1983): 702 -709.

٦- أنا أول من يقر بأن البيانات المقابلة البديلة حتى اليوم قد تكون معقولة وربما تغير بيانات جديدة ما قدمته هنا، ولكن لغاية الوضوح ولتبيين أين تكمن القضايا البحثية الهامة للمستقبل، قدمت نسخة قوية من أطروحة أن الأطفال يولدون مؤمنين.

***

## الفصل الأول

## العوامل الفاعلة الخفية في كل مكان

## One: Secret Agents Everywhere

١-خلال الكتاب استعملت الدين بمعنى الاعتقادات والممارساتُ المشتركة التي يدفع إليها الاعتقاد بوجود نوع ما من الآلهة، والآلهة قد تكون الأرواح والأشباح والشياطين، أو خالق قدير، وللعرض في هذا النقاش اعتبرت من آلهة الأرواح التي لا جسد لها أو الكائنات ذات القصد التي لها أجساد روحية أو أجساد غير بيولوجية بدل الأجساد البيولوجية العادية، وبالتالي فهي دينية.

2- Robert N. McCauley Why Religion Is Natural and Science h Not (New York: Oxford University Press 2011).

3- Elizabeth S. Spelke and Katherine D. Kinzler 'Core Knowledge) Developmental Science 10 (2007): 89 -96.

4- Renee Baillargeon Laura Kotovsky and Amy Needham (The Acquisition of Physical Knowledge in Infancy' in Causal Cognition: A Multidisciplinary Debate. ed. Dan Sperber David Premack and Ann James Premack (Oxford: Oxford University Press 1995).

5- Elizabeth S. Spence Ann Phillips and Amanda L. Woodward (معرفة الوالدين لحركة الشيء والفعل البشري) in Causal Cognition: A Multidisciplinary Debate ed. Dan Sperber David Premack and Ann James Premack (Oxford: Oxford University Press. 1995): see also W. A. Ball (إدراك السببية عند الولدان ) (paper presented at the meeting of the Society for Research in Child Development Philadelphia. April 1973).

6- Elizabeth S. Spelke and Katherine D. Kindler (المعرفة الأساسية Core Knowledge.) Developmental Science 10 (2007): 89-96.

٧- قد يعترض المرء على فكرة أن القطط أو الحواسيب عوامل فاعلة حقيقية، يمكننا التعامل معها كعوامل، ولكن ربما أنها فعلًا آلات غير عاقلة تستجيب فقط لبيئتها، مثلما تفعل كرة البلياردو، فنقول مجددًا إنها قد تكون عوامل ذات قصد كالبشر، قلت مرة في محاضرة عندما تحبطنا حواسيبنا ونصرخ عليها فهذا يدل على أننا نعتبرها خطأ عوامل، فردّ أحد الطلاب بأننا لا نحددها خطأ كعوامل لأن الحواسيب عوامل تقوم بإرادتها بخبث بإحباط المستخدمين من البشر، لكن كون شيء ما عاملًا فاعلًا أم لا لا يتصل بحديثنا هنا، وما يهم أن الأطفال (والبالغين)

يقسمون العالم إلى ما هو عوامل فاعلة وما ليس كذلك، ويفكرون بطريقة مختلفة في كل من هذين الفئتين، أما بخصوص نسبة الفاعلية للحواسيب فراجع ما كتبته باتيا فريدمان Batya Friedman (إنه خطأ الحاسوب: التفكير في الحواسيب باعتبارها عوامل بشرية)

Proceedings of the 2004 Conference on Human Factors in Computing Systems (AMC Press 1995); and Youngme Moon and Clifford Nass (هل الحواسيب كبش ضحية؟ نسبة المسؤولية) في تفاعل الحاسوب-إنسان) International Journal of Human-Computer Studies 49(1998): 78- 94.

8- Christine P. Ellsworth Darwin W. Muir and Sylvia M.J. Rains (Social Competence and Person-Object Differentiation: An Analysis of she Still-Face Effect) Developing Psychology29 (1993):63- 73.

9- Michele Molina et al. (The Animate-Inanimate Distinction in Infancy: Developing Sensitivity to Constraints on Human Actions) Journal of Cognition and Development 5 (2004):399 -426.

10- Elizabeth S. Spelke Ann Phillips and Amanda L. Woodward Infant's Knowledge of Object Motion and Human Action) in Causal Cognition: A Multidisciplinary Debate ed. Dan Sperber David Premack and Ann James Premack (Oxford: Oxford University Press 1995).

11- Michael Tomasello The Cultural Origins of Human Cognition (Cambridge MA: Harvard University Press 1999).

12- Gyorgy Gergely et at. (Taking the Intentional Stance at 12 Months of Age) Cognition 56 (1995):165- 193.

13- Gergely Csibra (Goal Attribution to Inanimate Agents by 6.5-Month-Old Infants) Cognition 107 (2008): 705- 717. See also Gyorgy Gergely and Gergely Gsibra (Teleological Reasoning in Infancy: The Naive Theory of Rational Action) Trends in Cognitive Sciences? (2003):287- 292.

14- Susan Johnson Virginia Slaughter and Susan Carey 'Whose Gaze Will Infants Follow? The Elicitation of Gaze-Following in 12-Month-Olds)Dettiopmernal Science 1 (1998): 233 -238.

15- Valerie Corkum and Chris Moore) Origins of Joint Visual Attention in Infants) Developmental Psychology 34 (1998):28- 38.

16- Marjorie Taylor Imaginary Companions and the Children Who Create Them (New York: Oxford University Press 1999).

١٧- بالصدفة لم تكن هذه العائلة متدينة، فكانت تسمية الابن لأحد الكلاب الخفية (خطيئة) ينظر إليه بمزيج من الدهشة والحيرة.

18- J. Bradley Wigger 'Imaginary Companions. Theory of Mind. and God) (paper presented at the Cognition Religion and Theology Conference Merton College. Oxford University. June (29- 2010) and See-through Knowing: Learning from Children and Their Invisible Friends. Journal of Childhood end Religion 2 (2011).

١٩- لا أقول إن الله عند هؤلاء الأطفال لا يختلف عن صديق خيالي، ولكن كما شرح (ويغر) ينسب الأطفال معرفة إلهية أكثر إلى الله ويفرقون بين الله والصديق الخيالي بشكل واضح.

20- Philippe Rocha Rachel Morgan and Malinda Carpenter (Young Infants' Sensitivity to Movement Information Specifying Social Causality.) Comities. Development 12 (1997):537- 561.

21- Philippe Rochat. Tricia Soriano and Rachel Morgan 'Who Is Doing What to Whom? Young Infants' Developing Sense of Social Causality in Animated Displays' Perception 33 (2004): 355- 369.

22- Fritz Heider and Marianne Simmel (An Experimental Study of Apparent Behavior; "American Journal Psychology 57 (1944): 243- 249.

23- Ibip. p. 247.

24- Brian J. Scholl and Patrice D. Tremoulet 'Perceptual Causality and Animacy) Trends in Coring.. Sciences 4 (2000): 299- 308.

25- Justin L. Barrett and Amanda Hank' Johnson. -The Role of Control in Attributing Intentional Agency to Inanimate Objects) Journal of Cognition and Culture 3 (2003): 208- 314.

26- Stewart E. Guthrie. Fans in the Clouds A New Theory of Ration (New York Oxford University Press 1993).

***

## الفصل الثاني

## أطفال يبحثون عن غاية

## Two: Children in Search of a Purpose

1- Deborah Kelemen. The Scope of Teleological Thinking in Preschool Children: Gram 70 (1999): 241 -273.

2- Ibid.. p. 256.

3- Deborah Kelemen (Why Are Rocks Pointy? Children's Preference for Teleological Explanations of the Natural World.) Developmental Psychology 35 (1999): 1440-1453.

أُعطيَ الأطفالُ تفسيراتٍ فيزيائيةً مماثلةً لأجزاء من أمور تتراكم لتكون تفسيرات جيدة وشرعية، ولكن تثبيت هذه التفسيرات الفيزيائية عندهم لم يغير من تفضيلهم للتفسيرات الغائية.

4- Deborah Kelemen and Cara DiYanni. 'Intuitions about Origins: Purpose and Intelligent Design in Children's Reasoning about Nature; Journal of Cognition and Development 6 (2005): 3- 31.

5- Ibid.. pp. 29- 31.

٦- تم موازنة ترتيب هذه الخيارات بحيث لا يمكن تفضيل أحدها على الآخر.

7- George E. Newman et al.. 'Early Understandings of the Link between Agents and Order; Proceeding of the National Academy of Sciences of the United Star of America 107 (2010): 17140 -17145.

٨- شاهد الأطفال الرضع في هذه التجربة كلا من اختبار الترتيب واختبار الفوضى، لكن شاهد نصفهم اختبار الفوضى أولًا وشاهد النصف الآخر اختبار الترتيب أولًا، وكما توقعنا نظريًا؛ نظر الأطفال الصغار بالمتوسط لفترة أطول إلى اختبار الترتيب، وفي تجربة لاحقة تم نفي احتمال أنهم نظروا أطول لمجرد أنهم يحبون مشاهدة الترتيب أكثر من الفوضى.

9- Newman et al. (Early Understandings.) p. 17141.

١٠- لازال سؤال لماذا ترى أدمغتنا فطريًا التصميم والغاية في العالم مسألة جدلية، وأحد الاحتمالات هو أن هذا التفكير بالغائية استراتيجية تأقلمية لمعرفة كيف يعمل العالم، ولتعلم كيف يمكن الاستفادة من النباتات والحيوانات المختلفة وأجزائها.

11-'Lightning Hits Preacher after Call to God' BBC News July 4.2003. accessed January 14 .2011. http: / /news.bbc.co.uk / 1 /hi /world /americas / 3044178.stm.

12- Jesse M. Bering and Becky D. Parker 'Children's Attributions of Intentions to an Invisible Agent' Developmental Psychology 42 (2006): 253- 262.

13- Deborah Kelemen and Evelyn Rosset. (The Human Function Compunction: Teleological Explanation in Adults.' Cognition 111 (2009): 138 -143.

14- Krista Cadet and Deborah Kelemen (Development Continuity in Teleo-Functional Explanation: Reasoning about Nature among Romanian Romani Adults' Journal of Cognition and Development 9 (2008): 340- 362.

١٥- التصميم الذكي هو فكرة أن كائنًا ذكيًا مثل إله احتيج إليه لتعليل بعض جوانب البنى البيولوجية، أي أنه في مراحل معينة من التطور تدخل كائن ذكي بطريقة خارقة للطبيعة ليساعد التطور بالمضي.

***

## الفصل الثالث

## معرفة الخالق

## Three: Identifying the Maker

1- Jean Piaget The Child's Conception of the World. trans. Andrew Tomlinson (Paterson NJ: Littlefield Adams 1960). p.273.

2- Ibid. p. 269.

3- Ibid. p. 352.

4- Ibid. p.354.

5- Ibid. p.381.

6- Ibid.

7- Ibid. p. 354.

8- George E. Newman et at 'Early Understandings of the Link between Agents and Order.) Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of Arnaud 107 (2010):17140- 17145.

9- Susan A. Gelman The Development of Induction within Natural Kind and Artifact Categories "Cognitive Psychology 20 (1988): 87 -90.

10- Susan A. Gelman and Kathleen E. Kremer. 'Understanding Natural Cause: Children's Explanations of How Objects and Their Properties Originate Child Development 62 (1991):396- 414.

11- One difficulty in comparing Gelman's findings directly with Piaget's is that Piaget did not provide answer rates or any relevant statistics.

12- OliveraPetrovich(PreschoolChildren'sUnderstanding of the Dichotomy Between the Natural and the Artificial) Psychology Reports 84 (1999): 3 -27.

13- Olivera Petrovich (Understanding of Non-Natural Causality in Children and Mules: A Case Against Artificialism. "Psyche en Geloof 8 (1997): 151- 165.

14- Deborah Kelemen and Cara DiYanni. 'Intuitions about Origins: Purpose and Intelligent Design in Children's Reasoning about Nature" Journal( of Cognitive and Development 6 (2005): 3- 31.

15- E. Margaret Even 'Cognitive and Contextual Factors in the Emergence of Diverse Belief Systems: Creation versus Evolution "Cognitive Psychology 42 (2001): 217- 266.

16- Ibid. pp. 226- 227.

17- Ibid. p.227.

١٨ - للاطلاع على دليل أن افتراضات الأطفال الصغار بأن الحيوانات لها أسس خفية لا تتبدل وبالتالي تلد ذرية من نفس النوع انظر.

Frank C. Keil. Concepts Kinds end Cognitive Development (Cambridge. MA: MIT Press. 1989).

19- Piaget Child's Conception of the world pp. 3713- 379.

20- Ibid.. p.379.

21- For instance see Freud's Ton and Taboo (London: Ark Paperback. 1983). Likewise Piaget The Child' Conception of the World offered a form of the anthropomorphism hypothesis. noting that greater conceptual tools to think nonanthropomorphically arrive in late childhood and adolescence.

22- For instance some threads of Hindu thought include a notion of a supergod (Brahma in classical Hinduism) construed in many of the same terms as the Abrahamic God: superknowing supetperceiving super-powerful. and so forth.

23- Justin L. Barrett and Rebekah A. Richert (Anthropomorphism or Preparedness? Exploring Children's God Concepts: Review of Religious Research 44(2003): 300- 312.

***

## الفصل الرابع

## عقل الإله

## Four: The Mind of God

1- Douglas Adams The Hitchhiker's Guide to the Galaxy (London: Pan Books 1979) pp. 108- 109.

١ - للاطلاع على التباس الحقيقة والخيال عند الأطفال انظر

Deborah Zaitchik (when Representations Conflict with Reality: The Preschooler's Problem with False Beliefs and 'False' Photographs' Cognition 35 (1990): 41- 68.

ولرؤية عامة للأبحاث في هذا المجال انظر

Henry M. Wellman. David Cross. and Julanne Watson (Meta-Analysis of Theory of Mind Development:

The Truth about False Belief) Child Development 72 (2001):655- 684.

٣- يبدو أن الأطفال يدركون أن الأم لا تستطيع التأثير على الأشياء المخبأة وذلك قبل أن يدركوا أن الأم لن تعلم عن الأشياء المخبأة، وهكذا فإنَّ طفلًا بعمر سنتين قد (يخفي) شيئًا عن والديه، ولكن هذا الإخفاء يبدو أنه استراتيجية لإبقاء الوالدين بعيدًا عن التصرف، وليس لإبعاد الشيء عن معرفتهما، وهذا التمييز صعب على معظم البالغين لأننا تلقائيًا نجمع بين معرفة المعلومة والقدرة على التصرف بالمعلومة.

4- Jean Piaget The Child's Conception of the World. trans. Andrew Tomlinson (Paterson NJ: Littlefield. Adams 1960): Ronald G. Goldman Religious Thinking from Childhood so Adolescence (London: Routledge and Kegan Paul. 1964).

5- For a review of several experiments see Justin L Barrett and Rebekah A. Richert 'Anthropomorphism or Preparedness? Exploring Children's God Concepts.' Review of Religious Research 44 (2003):300 -312.

6- Justin L Barrett Roxanne Moore Newman and Rebekah A Richert 'When Seeing Is Not Believing: Children's Understanding of Humans' and Non-Humans' the of Background Knowledge in Interpreting Visual Displays) Journal of Cognition and Culture 3 (2003):91- 208.

7- Ibid. pp. 91- 108.

8- Michael J. Chandler and David Helm (Developmental Changes in the Contribution of Shared Experience to Social Role-Taking Competence' International Journal of Behavioral Development 7 (1984):145- 156.

9- Though treating the dog as more knowledgeable than they ought the younger children did regard God as more knowing than the dog.

10- J. Bradley Wigger. (Imaginary Companions 'theory of Mind and God) (paper presented at the Cognition Religion and Theology Conference Merton College. Oxford University. June 29.2010) and 'See-Through Knowing:

Learning from Children and Their Invisible Friends: Journal of Childhood and Religion 2 (2011).

11- Emily Reed Burden and Justin L Barren 'Children's Intuitions of Memory in Divine Human and Non-Human Minds) (in preparation).

12- Nicola Knight et al. 'Children's Attributions of Beliefs to Humans and God: Cross-Cultural Evidence; Cognitive Science 28 (2004): 235 -243.

13- Nicola Knight 'yukatek Maya Children's Attributions of Belief to Natural and Non-Natural Entities: Varna! of Cognition and Canny 8 (2008):235 -243.

14- Nikon Makris and Dimitris Pnevmatikos (Children's Understanding of Human and Super-Natural Mind Cognitive Development 22 (2007): 365- 375.

15- Marta Gimenez-Dash Silvia Guerrero. and Paul L Hants (Intimations of Immorality and Omniscience in Early Childhood: European Journal of Developmental Psychology 2 (2005):255 -297.

16- Perhaps then the Greek children in Makris and Pnevmatikos's study were unfamiliar with God's omniscience or otherwise were confused about who God was. It is not uncommon for young children to confuse (God) with Jesus or even with the parish priest if parents and educators aren't careful. In a place in which people use icons of a very human-like God. it would not be surprising if children were confused.

***

## الفصل الخامس

## طبيعة الإله

## Five: The Nature of God

1-HarveyWhitehouseInsidetheCult: Religious innovation and Transmission in Papua New Guinea (Oxford: Oxford University Puss 1995).

2- I thank anthropologist Richard Stasis for this example. He writes: 'It is likely that the celebration of Rosh Chodesh did not mix well with the ominous feeling of Rosh Hashana

and the 10 days of repentance (or Days of Awe as they are known) which follow leading up to Yom Kippur hence the delay in blessing the moon. That's the pragmatic explanation. A more folksy explanation is that we delay from blessing the new moon in Tishrei to fool the Satan so that he does not know the exact date of Yom Kippur (this explanation is found in Rabbi Mordecai Jaffe's 'Levush' [literally 'garment') written in Poland in the 16th century. Levush is a fairly obscure rabbinic code but this explanation is not uncommon') (personal communication. March 2008).

3- I do not mean this observation as a sleight. Many ideas make little sense to people but may be true nevertheless. The sciences are full of examples.

4- John H. Flavell et al. 'Young Children's Understanding of Fact Beliefs versus Value Beliefs') Child Development 61(1990): 915-928.

5- Justin L. Battett Rebekah A. Richert. and Amanda Driesenga (God's Beliefs versus Mother's: The Development of Nonhuman Agent Concepts.) Child Development 72 (2001):58- 60.

6- Nikos Makris and Dimittis Pnevmatikos. (Children's Understanding of Human and Super-Natural Mind' Cognitive Development 22 (2007): 365- 375.

7- Rebekah A. Richert and Justin L. Barren (Do You See What I See? Young Children's Assumptions about God's Perceptual Abilities.' International Journal for the Psychology of Religion 15 (2005):283- 295.

8- Marta Gimenez-Dast. Salvia Guerrero and Paul L Hann. (Intimations of Immortality and Omniscience In Early Childhood "European Journal of Developmental Psychology 2 (2005): 288. The questions were: "Right now there aren't any dinosaurs in the world. But a long time ago there were lots of dinosaurs in the world. like this (show picture). Now what about__?

When there were dinosaurs in the world did__exist?'"
(Right now—you're a little boy /girl but a long time ago you were a little baby right? How about—? Was s /he a little baby a long time ago?"
( What's going to happen to__next year and the year after that? Will he get older and older or will he stay just the same?"
"What will happen to--__ a long long time from now?"
Will _die or will s /he go on living for ever and ever?)

9- Statistical analyses and comments from parents showed that the question about the dinosaur created some confusion and was measuring something different from the other three items so we dropped it from our analyses.

١٠- التفسير الشائع لسبب إيمان الناس في كل العالم وعبر التاريخ بوجود نوع من الحياة الآخرة هو تحقيق الأماني، فالناس تخشى الموت بطبيعتها (لأن الخوف من الموت مفيد للبقاء) ويدفع هذا الخوف من الموت إلى البحث عن بديل أكثر طمأنينة لتلطيف قلقنا، وبالتالي اخترع الناس فكرة الحياة الآخرة فجعلتهم أقل خشية للموت، ولكن هذا التفسير واضح القصور، لأنه لو وفرت لنا طبيعتنا البشرية الخشية من الموت لتساعدنا على البقاء والتكاثر، فالقدرة على تمني الخلاص

من الموت سيكون إعاقة شديدة للبقاء، إذ نتوقع ممن تعلم رفض الموت أن يقتحم المخاطر بجسارة وينتهوا من مجموع الجينات البشرية، ولن يطول الأمر كثيرًا حتى يكون من بقي هو من يشكك بالحياة الأخرى، وبالمثل فإن كثيرًا من المفاهيم المرتبطة بالحياة الأخرى ليست مريحة ولا جذابة، كان لدى الإغريق مكان كئيب للموتى على جانب نهر ستيكس، أما العبرانيون القدماء فكان عندهم شيول وهو وجود مظلم وهامشي كان الملك داوود يدعو الله أن ينجيه منه، أما المصريون القدماء فقد تصوروا وزن القلب - مكان الشخصية الحقيقية للإنسان- ثم يكون إما التجاوز إلى حياة أخرى تشبه هذه الحالية، (إن كان المرء صالحًا بما يكفي) أو يقوم الوحش أميت ذو رأس التمساح بأكل القلب، إن كل هذه الأوصاف وغيرها كثير لا تمثل مكانًا مريحًا بعد الموت، وعلى العكس فإن الدارسين المعاصرين يرون أن توقف الوجود أقل مخافة إن تأملته بهدوء، فلو كان الجواب عن سبب الاعتقاد بما سيفعلونه بعد الموت هو تحقيق الأماني، فإن نوعًا من الفناء الكلي والقطعي للنفس سيكون مرشحًا أقوى من كثير من الأفكار الدينية، ولكن مع هذا تستمر أفكار الحياة الأخروية.

11- For instance see Jesse M. bering. 'Intuitive Conceptions of Dead Agents' Minds: The Natural Foundations of Afterlife Beliefs as Phenomenological Boundary.' journal of Gognition and Culture 2 (2002): 263 -308:

Paul Bloom. Descartes' Baby: How the Science of Child bevelopmen Explains What Make Us Human (London: Heinemann2004); Jesse M. Bering. "The Folk Psychology of Souls "Behavioral and Brain Sciences 29 (2006): 453-462: Rita Astuti and Paul L. Harris. "Understanding Mortality and the Life of the Ancestors in Rural Madagascar "Cognitive Science 32 (2008): 713- 740.

12- The afterlife beliefs of Christians in these cases are instances of what D. Jason Slone Theological Incorrectness: Why Religious People Believe What They Shouldn't (New York: Oxford University Press. 2004). Termed theological incorrectness—a tendency to believe (often unknowingly) distorted versions of theological positions because they are more natural a theme I develop more in Chapter 6.

13- H. Clark Barrett (Human Cognitive Adaptations to Predators and Prey) (Ph.D. diss. University of California Santa Barbara. 1999): Jesse M. Bering and David F. Bjorklund 'The Natural Emergence of Reasoning about the

Afterlife as a Developmental Regularity) Developmental Psychology 40 (2004): 217- 233: H. Clark Barrett and Tanya behne (Children's Understanding of Death as the Cessation of Agency: A Test Using Sleep versus Death) Cognition 96 (2005): 93- 108; Paul L.. Harris and Mara Gimenez (Children's Acceptance of Conflicting Testimony: The Case of Death.' Journal of Cognition and Culture 5 (2005): 143- 164: Astuti and Harris. (Understanding Mortality.)

14- Jesse M. Bering Carlos Hernandez-Blsai and David F. Bjorklund 'The Development of Afterlife Beliefs in Religiously and Secularly Schooled Children.' Developmental Psychology 23 (2005). 587.607S

١٥- يقدم كل من جيسي بيرنغ وباول بلوم وباسكال بوير تعليلات متشابهة من هذا النمط، ويركزون على نقاط مختلفة وآليات محتملة، منظور بيرنغ يقر بانفصال العقول عن الأجساد ولكنه يرى الفرق الرئيسي في كيفية تصورنا بدقة لإنهاء الأنشطة العقلية مقابل الأنشطة البيولوجية، ويجادل بيرنغ بأن أحد أسباب أننا نجد الإيمان بالآخرة بديهيًا هو عجزنا عن تصور نهاية كاملة لحالاتنا العقلية، أي لا

يمكننا تصور حالة لا ندرك ولا نفكر ولا نعلم بها، ولاحظ روبرت هيند أنه من الصعوبة تخيل عدم الوجود، لأن المرء يتخيل نفسه غير قادر على التخيل، ويجادل بيرنغ (لأننا لا يمكننا تخيل كيف سيكون التوقف عن الوجود بالموت، نجد اقتراحات باستمرار الأرواح بالعيش مرضيًا لنا حدسيًا) ولا يبدُو لي أن تعليلات بيرنغ وبلوم وبوير غير قابلة للتوافق مع بعضها تمامًا.

Robert A. Hinde Why Gods Persist: A Scientific Approarh to Religion (London: Routledge 1999); Pascal Boyer Religion Explained: The Evolutionary Origins of Religious Thought (New York: Basic Books 2001); Bloom Damien' Baby: Jesse M. Bering The Folk Psychology of Souls) Behavioral and Brain &town 29 (2006): 453 -462

16- Leonard D. Katz ed. Evolutionary Digits of Morality: Cross-Disciplinary Perspectives (Thoverton UK Imprint Academic 2000); Marc D. f hisser. Moral Mind: How Nature Designed Our Universal Sense of Right and Wrong (New York: Ecco /HarperCollins 2006); Jonathan Haidt The New Synthesis in Moral Psychology' Science 316 (2007):998- 1002.

17- Hauser Moral Minds.

18- For instance see Richard Dawkins The God Delusion (London: Bantam Press. 2006); Daniel C. Denies Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon (London: Allen Lane 2006).

19- The metaphysical concept of the Tao originates in Taoism and features in Buddhism. Confucianism and other religious and philosophical systems.

20- C. S. Lewis Mere Christianity (New York: Macmillan 1960) p. 17.

21- Boyer Religion Explained p. 189 (emphasis in original).

22- Ibid.

23- Philosopher Richard Swinburne offers a more developed but related argument in Is There a God? (Oxford. Oxford University Press 1996) and briefly synopsized in Was Jesus God? (Oxford: Oxford University Press. 2008). He argues that if God is perfectly free to actualize any

circumstances (a component of being all-powerful). and God is all-knowing then God knows the best way to act and hence. is perfectly good

24- John H. Flavell Patricia H. Miller. and Scott A. Miller. Cognitive Development (Englewood Cliffs NJ: Prentice Hall 1893).

25- For more on language acquisition see ibid.; Steven Pinker. The Language Instinct How the Mind Creates Language (New York: Harper Perennial 1995).

26- Peter K. Gregersen et al-Early Childhood MUSK Education and Predisposition to Absolute Pitch: Teasing Apart Genes and Environment' American Journal of Medical Genetics 98 (2001): 280 -282.

27- Jean Piaget The Child's Conception of the World Trans. Andrew Tomlinson (Paterson. NJ: Littlefield Adams. 1960) p. 378.

٢٨- أشكر إيما بورديت لعرضها لي هذا التعليل، وألاحظ أيضًا أنه في هذه الحالة فإن الطفل بعمر خمس سنوات كان محقًا، ليس بالضرورة عن وجود الله بل أقصد إجاباته الصحيحة، فقد لا يؤمن باليونيكورن ولكن لو سألتني هل له قرون فالجواب الصحيح بالتأكيد (نعم) وليس (لا) بحجة أنه غير موجود.

***

## الفصل السادس

## دين الفطرة

## Six: Natural Religion

١- هذا الاختلاف يكشف لنا بشكل غير مباشر وجهًا آخر لتشابه اللاهوت (وليس الدين) مع العلم، فالعلم يكتشف أمورًا في بعض الأحيان عن الطبيعة تبدو متناقضة مع بعضها ولكنها صحيحة في الوقت نفسه، ويدين النقاد المؤسسة العلمية في مسألة باعتبارها خاطئة، ولكن بالنهاية تكتشف حل التناقض الغامض، وأحيانًا يكون حلًا يبقى فهمه التام مستحيلًا ولكنه صحيح بكل الأحوال.

2- In my book Why Would Anyone Believe in God? (Walnut Creek CA: AltaMira Press. 2004) I argued that some properties of God from the great monotheisms enjoy a cognitive advantage over lesser gods. I did not mean to imply there or here that strict monotheism (believing in

the existence of only one God and no saints ghosts spirits devils or any other supernatural agents) was the most cognitively natural position.

3- In Religion Explained: The Evolutionary Origins of Regarded Thought (New York Basic Books 2001). anthropologist Pascal Boyer has suggested that across religious traditions gods generally are regarded only as paying attention to those sorts of things that humans really are about especially the topics of gossip: who does what with or to whom. He even suggests that with all-knowing gods (as in Christianity. Islam and Judaism) people think of them as all-knowing only in an abstract sense. but in real time they represent these gods as knowing things like whether I have been naughty or nice and not trivia such as the number of bacteria living in my intestines.

4- Other devotional religions have similar notions about throwing oneself on the mercy of the divine but I focus on Christianity here because I know it best.

5- Donald McCullough If Grace Is So Amazing Why Don't We Like it? (San Francisco: Jossey-Bass 2005).4- 5 (emphasis in original).

6- Leda Cosmides and John Tooby (Evolutionary Psychology and the Generation of Culture Part II: Case Study. A Computational Theory of Social Exchange: Ethology and Sociobiology 10 (1989): 51 -97.

7- For a skillful and helpful discussion of gratitude see Robert A. Emmons Thanks! How Practicing Gratitude Can Make You Happier (New York: Houghton Mifflin 2008). See also Robert A. Emmons and Michael E. McCullough eds. The Psychology of Gratitude (New York Ox-ford University Press. 2004).

8- I thank Nick Gibson for his perspectives on how cognitively natural or unnatural grace might be.

9- Matthew 19:14 NIV.

10- For evidence of early developing distinctions between animate things and inanimate things see Elizabeth S. Spelke Ann Phillips. and Amanda L Woodward 'Infants Knowledge of Object Motion and Human Action' in Casual Cognition: A Multidisciplinary Debate ed. Dan Sperber David Premack and Ann James Premack (New York Oxford University Press 1995) 44- 78; and other essays in Dan Sperber David Premack and Ann James Premack eds.. Causal Cognition: A Multidisciplinary Debate (New York: Oxford University PECS. 1995).

11-Ontransforminganimalsfromonekindintoanothersee Frank C. Keil Concepts kinds and Cognitive Development (Cambridge MA: MIT Press 1989); on insides of animals see Daniel J. Simons and Frank C. Keil. 'An Abstract to Concrete Shift in the Development of Biological Thought The Insides Story 'Cognition 56 (1995): 129- 163. For a more recent general review of the cross-cultural scientific evidence see Kayoko Inagaki and Giyoo Hatano Young

Children's Naive Thinking about the Biological World (New York: Psychology Press. 2002).

12- For a discussion of the evidence see Henry M. Wellman and Susan A. Gelman 'Knowledge Acquisition in Foundational Domains: in vol. 2 of Handbook of Child Psychology ed. William Damon (Hoboken NJ: Wiley 1998) 523- 573.

١٣- وبسبب هذه الفروقات بين العلم مقابل المعرفة الشعبية واللاهوت مقابل الدين لاحظ فيلسوف العلم روبيز ماكولي أن كثيرًا من النقاش بخصوص طبيعة وعلاقة الدين والعلم غالبًا ما تقوم بالمقارنات غير الصحيحة، فالعلم بالنسبة للاهوت مثل المعرفة الشعبية بالنسبة للدين، انظر McCauley Why Religion Is Natural and Science Is Not. (New York: Oxford University Press 2011).

14- Harvey Whitehouse 'Apparitions Orations. and Rings: Experience of Spirits in Dadul" in Spirits in Culture History and Mind ed. Jeannette Mageo and Alan Howard (New York: Routledge 1996) p. 175.

15- Ibid. p. 176.

16- Mohammad Zia Ullah Islamic Concept of Cod (London: Regan Paul. 1984) p. 19.

17- Gordon Spykman Reformational Theology: A New Paradigm for Doing Dogmatics (Grand Rapids MI: Wm. B. Eerdmans 1992) pp. 64-65.

18- Emma Cohen The Mind Possessed: The Cognition of Spirit Possession in an Afro-Brazilian Religious Tradition (New York: Oxford University Press 2007) p. 107.

19- Ibid. p. 111.

20- For details of these experiments and more thorough discussion of the rationale and implications see Justin L Barrett and Frank C. Keil 'Conceptualizing a Nonnatural Entity: Anthropomorphism in God Concepts) Cognitive Psychology 31 (1996): 219- 247; Justin L Barrett and Brant VanOrman (The Effects of Image-Use on God Concepts journal of Psychology and Christianity 15 (1996: 38- 45)

;Justin L. Barrett (Theological Correctness: Cognitive Constraint and the Study of Religion) Method and Theory in the Study of Religion 11 (1999): 325- 339.

21- Frederic C. Bartlett. Remembering: A Study in Experimental Social Psychology (Cambridge: Cambridge University Press 1995).

22- Justin L. Barrett and Meanie A. Nyhof; (Spreading Non-Natural Concepts: The Role of Intuitive Conceptual Structures in Memory and Transmission of Cultural Materials. "Journal of Cognition and Culture 1 (2001): 69- 100.

23- Marcia K. Johnson. John D. Bransford. and Susan K. Solomon 'Memory for Tacit Implications of Sentences.' Journal of Experimental Psychology 98 (1973): 203- 205. For explanation and elaboration. see Daniel Reisberg. Cognition: Exploring the Science of mind (New York Norton. 1997).

24- Barrett and Keil (Conceptualizing a Nonnatural Entity Anthropomorphism in God Concepts' Cognitive Psychology 31 (1996): Barrett and VanOrman 'The Effects of Image-Use on God Concepts).

25- Barrett and Keil -Conceptualizing a Nonnatural Entity) p. 224.

26- For details see Justin L. Barrett. 'Cognitive Constraints on Hindu Concepts of the Divine. Journal In the Scientific Study of Religion 37 (1998):608 -619.

27- Travis Chilcott and Raymond F. Paloutzian. 'The Cultivation of divine Intimacy and Its Relation to Anthropomorphic Attribution: An Expel mental Ethnographic Study on the Cognitive Effects of Gaudiya Vaishnava Religion Practices and Beliefs' (paper presented at the Cognition. Religion. and Theology Conference Oxford University June 28-July 1 .2010).

***

## الفصل السابع

# لا بأس أن يكون إيمانًا طفوليا

# Seven: It's Okay to Be Childish


1- Sigmund Freud The Future of an Illusion trans. James B. Strachey (London: Norton 1989) 42.

2- Ibid. p.32

3- Ibid. p.30.

4- Adrienne Burke (The God Delusion: Richard Dawkins) New York Academy of Science Science and the City Podcasts. October 6.2006 accessed January 13.2011. http:www.nyas.org /Publications /Media /Podcast DetaiL. aspx?cid=a4bb550a-82624-a958-ce8-a495c35acOc0.

5- Alister McGrath Dawkins' God: Genes Memes and the Meaning of Lie (Oxford: Blackwell 2005).

6- Matthew 19:14 NIV.

7- Matthew 183 -4 NIV.

8- Gilbert K. Chesterton TV Everlasting Man (New York: Image Books. 1955) p. 16 (see abo pp. 29 -35).

***

## الفصل الثامن

## حمقى لدرجة أنهم سيؤمنون بأي شيء

## Eight: So Stupid They'll Believe Anything

1- Anthony C. Grayling (Onward Christian Teachers?) Guardian November 12.2007 accessed January 13. 2010.http: / /commentisfree.guardian.co.uk /ac_ grayling /200711 / /onward_christian_teachers.html.

2- For a classic example see Edward E. Evans-Pritchard's description of the Azande in Witchcraft Oracles and Magic among the Azande (Oxford: Clarendon Press 1976).

3- Christopher Hitchens God Is Not Great: How Religion Poisons Everything (New York: Twelve 2007) pp. 219-220.

٤- وهذا بافتراض أن الناس المتدينين وغير المتدينين يتزوجون من بعضهم دون تمييز، بحيث يكون لكل زوجين ولدان، فجمهرة سكانية من ١٠٠٠٠٠ شخص متدين دون أي فرد غير متدين سيكون نسبة المتدينين في الجيل التالي تقريبًا ٩٠٪، وبعد جيلين سيكون نسبة المتدينين في هذه الجمهرة ٧٣ بالمائة تقريبًا، ثم ستكون حوالي ٤٨ بالمائة بعد الجيل الثالث، و٢١ بعد الجيل الرابع، و٤ بالمائة بعد الخامس، فلو كان تلقين الدين من والدين متدينين نسبة نجاحه ٩٠٪ فلن يطول الأمر حتى يقل عدد الأطفال الذين كلا والديهما متدين، وستموت الأفكار الدينية عما قريب.

٥- لقد سمعت هذا النوع من الملاحظات المستخدمة للجدل ضد الاعتقاد الديني، وتُبنى الحجة كالتالي: أنت تعتقد بالله لأن قد نشّئت كذلك، ولكن لو نشأت في وقت آخر ومكان آخر ستؤمن بنوع مختلف من الإله، ولذلك فلا يجب أن تؤمن بالله، وهذه حجة ضعيفة من عدة وجوه، وأحد الأساليب البسيطة لرؤية مكمن المشكلة فيها هي أن نقلب الحجة: أنت لا تعتقد بالله لأنك قد نشّئت هكذا، ولكن لو نشأت في زمان آخر ومكان آخر ستؤمن بإله ما، ولذلك فلا يجب أن تؤمن أنه لا يوجد إله، وهذا النمط من الحجج يخلط بين سبب الإيمان وعلة الإيمان، ويمكن بطريقة أخرى توضيح مشكلة هذه الحجة بإعادة صياغتها، قرر أحد سكان مدينة حديثة من أوكسفورد في بريطانيا أن يتمشى في الأمازون، وقد رافقه صائد قبلي من إفريقيا، وصائد وجامع نباتات من آسيا، ورجل من منطقة نائية في شمال أمريكا، وخلال سيرهم داخل أعماق الغابة المطرية في الأمازون، وجدوا بقايا طازجة

لحيوان ورأوا آثار خدوش على بعض الأشجار وسمعوا بعض الدمدمة في الجوار، فقال الأفريقي (هنالك أسد قريب فعلينا أن نغادر المكان)، وقال الآسيوي (هنالك نمر قريب فعلينا مغادرة المكان) وقال الرجل من شمال أمريكا (هنالك دب قريب فعلينا مغادرة المكان) فردَّ الرجل من أوكسفورد على زملائه في المسير (يبدو أنكم أنتم الثلاثة غير متفقين، من الواضح يا صديقي الأفريقي لو أنك ولدت في آسيا لاعتقدت أن نمرًا بالقرب منا، ولو أنك يا صديقي الآسيوي ولدت في شمال أمريكا لاعتقدت أن دبًا بالقرب منا، والواضح أن الأمر المنطقي أن لا أصدق أيًا منكم، لا يوجد شيء بالقرب منا ورغبتكم بالهرب مجرد نتيجة تنشئة معينة ربيتم عليها). واحزر من الذي أُكل لاحقًا في ذلك اليوم؟

6- Richard Dawkins The God Delusion (London: Bantam Press 2006).

7- Daniel C. Dennett Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon (London: Allen Lane 2006); Hitchens God Is Not Great.

يتقبل دينيت الفكرة بأن الاعتقادات المؤلهة هي (ميمات) متأقلمة جيدًا تخفي نفسها بعيدًا عن التمحيص العقلاني والعلمي - (السحر) الذي يريد أن يكسره، ولكنه لا يقول بأن الأطفال عرضة لأي ولكل فكرة قد يقدمها والداهم، فدينيت مطلع على علم الإدراك بما يمنعه من القيام بهذا الخطأ.

8- Dawkins God Delusion p. 176.

9- Ibid. p. 174.

10- Ibid. p. 176.

١١- فكرة أن الأطفال أغبياء جدًا ويصدقون أي كلام ليست جديدة، كتب فيلسوف القرن الثامن عشر توماس ريد ما سماه (موقف الغفلة) وأنه لا حدود له عند الأطفال، واعتبر ريد أن الغفلة هي الميل لتصديق أي شهادة من الآخرين باعتبارها معقولة جدًا ضمن الظروف الطبيعية. انظر

Thomas Reid Inquiry and Essays ed. Ronald E. Beanblossom and Keith Lehrer (Indianapolis IN: Hackett 1983) p.95. See also Thomas Reid's Inquiry into the Human Mind on the Principles of Common Sense ed. Derek R. Brookes (Edinburgh: Edinburgh University Press 1997).

12- I have in mind David G. Myers's excellent Psychology (New York: Freeman 2009).

13- Dawkins. God Delusion p. 176.

14- Marc D. Hauser Moral Minds: How Nature Designed Our Universal Sense of Right and Wrong (New York: Ecco /HarperCollins 2006).

15- Scott Atran In Gods We Trust The Evolutionary Landscape of Religion (New York: Oxford University Press 2002) p. 57.

16- E. Margaret Evans (Cognitive and Contextual Factors in the Emergence of Diverse Belief Systems: Creation versus Evolution) Cognitive Psychology 42 (2001).

17- Joseph Henrich and Robert Boyd The Evolution of Conformist Transmission and Between Group Differences) Evolution and Human Behavior 19 (1998): 215 -241; Joseph Henrich and Francisco Gil-White The Evolution of Prestige: Freely Conferred Status as a Mechanism for Enhancing the Benefits of Cultural Transmission.) Evolution and Human Behavior 22 (2001): 165 -196.

18- Nicholas Humphrey The Mind Made Flesh: Frontiers of Psychology and Evolution (Oxford: Oxford University Press 2002) 317.

19- See Dawkins God Delusion I91- 20I where he discusses religious ideas in terms of memes and memeplexes. One concern I have about meme theory and memetics at least as presented with regard to beliefs in gods by Dawkins and also by philosopher Dan Dennett in Breaking the Spell: Religion as a Natural phenomenon (London: Allen Lane 2006) is that readers will come away with the idea that being a catchy idea is all about an idea protecting itself from scrutiny as if ideas are intentional beings that can protect themselves. I trust that Dawkins and Dennett would not want their readers to misunderstand them in this way. The real action in terms of what people believe or not is not on the idea side of things (as the idea-as-virus metaphor might imply) but on the mind side of things. What is it about how human minds an put together and the biases they have that make them likely to generate and communicate some ideas more readily than others? After all ideas do not Just float around out there waiting

to attack unsuspecting human heads. The idea-as-virus metaphor makes it seem as though ideas reproduce themselves—indeed (good memes) are often talked about as good self-replicators. The reality is that ideas cannot do anything let alone self-replicate. Human minds do the work. Minds construct certain thoughts ideas and beliefs. In Explaining Culture: A Naturalistic Approach (Oxford: Blackwell 1996) anthropologist Dan Sperber has offered a more fruitful approach for explaining why some ideas spread better than others. Unfortunately he does not have a catchy term like memetics to Label his approach which is more cumbersomely termed epidemiology of representations.

***

## هل الإلحاد غير طبيعي؟

## Nine: Is Atheism Unnatural?

1- Amos Tversky and Daniel Kahneman (Judgments under Uncertainty: Heuristics and Biases) in Judgment and Decision making: An Interdisciplinary Reader ed. Terry Connoly H. R. Arkes and K. R. Hammond (Cambridge: Cambridge University Press 2000) pp. 35- 52.

2- Donn E. Byrne The Attraction Paradigm (New York: Academic Press. 1971).

3- Yao Xinzhong and Paul Badham Religion Experience in Contemporary China (Cardiff: University of Wales Press 2007).

4- See William S. Bainbridge (Atheism) Interdisciplinary journal of Research on Religion 1 (2005): art. 2 for a discussion of atheism and figures from one nonrandom

international sample and another more representative American sample.

5- Eugene Winograd and Ulric Neisser eds. Affect and Accuracy in Recall: Studies of (Flashbulb) Memories (Cambridge: Cambridge University Press 1992).

6- Simon Baron-Cohen The Extreme Male Brain Theory of Autism) Trends in Cognitive sciences 6 (2002): 248-254.

7- Simon Baron-Cohen and Sally Wheelwright (The Empathy Quotient (EQ): An Investigation of Adults with Asperger Syndrome or High Functioning Autism and Normal Sex Differences) Journal of Autism and Developmental Disorders 34 (2004): 163-175; Rebecca C. Knickmeyer and Simon Baron-Cohen 'Foetal Testosterone and Sex Differences in Typical Social Development and in Autism?) Journal of Child Neurology 48 (2006): 825-845.

8- See Bainbridge (Atheism); Benjamin Beit-Hallahmi (Atheists: A Psychological Profile? in The Cambridge Companion to Atheism ed. Michael Martin (Cambridge: Cambridge University Press 2007) pp. 303- 317.

9- Raymond F. Paloutzian invitation to the Psychology of Religion (Needham Heights MA: Allyn & Bacon 1996).

10- Richard Dawkins The God Delusion (London: Bantam Press. 2006).

11- David G. Myers A Friendly Letter to Skeptics and Atheists: Musings on Why God Is Good and Faith Isn't Evil (San Francisco: Jossey-Bass 2008) 22-25.

12- Benson Saler and Charles A. Ziegler. (Atheism and the Apotheosis of Agency? Temenos 42 (2006): 7- 41.

13- William S. Bainbridge. (Atheism) Interdisciplinary Journal of Research on Religion 1(2005): 7.

14- Bainbridge interprets this as both a difficulty maintaining atheism while being a parent but of course

it may be that atheists are less interested in having kids in the first place.

15- Stewart E. Guthrie Faces in the Clouds: A New Theory of Religion (Oxford: Oxford University Press 1993).

16- On how existential security in contemporary western and northern Europe may prove fertile ground for nonbelief in gods we Jonathan A. Lanman (A Secular Mind: Towards a Cognitive Anthropology of Atheism (Ph.D. diss. University of Oxford 2009).

17- John D. Barrow Frank J. Tipler and John A. Wheeler The Anthropic Cosmological Principle (Oxford: Oxford University Press 1988); Simon Conway Morris. Life's Solution: Inevitable Humans in a Lonely Universe (Cambridge: Cambridge University Press 2003); Antony Flew. There is a Cod: How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind (New York: Harper 2007).

18- In The Blind Watchmaker: Why the Evidence of Evolution Reveals a Universe Without Design (New York: Norton 1986). Richard Dawkins candidly confesses how difficult it is even for experts on evolution and natural selection to avoid this kind of anthropomorphic language.

***

## الفصل العاشر

### هل علينا أن نُعَرِّفَ الأطفال على الله؟

?God to Children Introduce You Should :Ten

1- Christopher Hitchens God Is Not Great: How Religion Poisons everything (New York: Twelve 2007) p. 218.

2- Ibid. p. 220.

3- Nicholas Humphrey The Mind Made Flesh: Frontiers of Psychology and Evolution (Oxford: Oxford University Press 2002) p. 291.

4- Richard Dawkins. The God Delusion (London: Bantam Press 2006) p. 317.

5- Ibid. p.315.

6- Ibid. p.318.

7- Kathleen A. Kendall-Tackett Linda Meyer Williams and David Finkelhor (Impact of Sexual Abuse on Children: A Review and Synthesis of Recent Empirical Studies) in Children and the Law: The Essential Readings. ed. Ray Bull (Oxford: Blackwell 2001) pp. 31- 70

8- Matthew 5:22 NAS.

9- Exodus 20:7 NAS.

10- Dawkins. God Delusion p. 327 (emphasis in original).

11- Ibid. (emphasis in original).

12- Nicholas Humphrey The Mind Made Flesh: Frontiers of Psychology and Evolution (Oxford: Oxford University Press. 2002) 313.

١٣- أحد الأجوبة التي أتعاطف معها لهذه المسألة هي أن الأفكار الدينية جزء من تقليد المعرفة الذي يجب أن يعطى حقه من التميز على الرغبات الفردية، وبالفعل فمن الغرور الثقافي البالغ أن نهمل نظام اعتقاد كامل (ديني أو غير ديني) بني على

جهود فكرية جمعية لآلاف أو ملايين الآخرين دون أن نعطيه حقه من الاعتبار، فالتواضع والمنطق يقتضيان أن نعطي التقاليد الفكرية بعض الوزن، على الأقل لأن الدليل يشير أن الجهود الفكرية لآلاف الناس قد نقحت بعضها البعض بما يجعلها تعلو على إنجازات أي فرد، ولاحظوا أن مجرد كون المرء متدينًا لا يعني أن المنطق لا علاقة له به، ولا أن مجرد كون المرء متدينًا يعطي ميزة مبدئية، عرفت في الثانوية فتاة تدعي أنها اعتقادها (الديني) أنه بعد الموت ستتحول إلى نجم إن عاشت حياة أخلاقية، رغم أن هذا (تدين) من أحد الاعتبارات ولكن هذا الاعتقاد لم يكن ثمرة تفكر وتمحيص أجيال ولكنه كان رغبة مراهقة فردية، وبالمثل فإن التفكير بازدراء لنظام اعتقادي لا يقد فرصة لنظام الاعتقاد.

14- Roger Trigg Religion in Public Life: Must Faith Be Privatized? (Oxford: Oxford University Press 2007) pp. 66- 67.

15- Ibid. p. 58.

16- For reviews of scientific research in this area. see Kenneth I. Pargament The Psychology of Religion and Coping: Theory Research Practice (London: Guilford Press 1997); Robert A. Emmons The Psychology of Ultimate Concerns: Motivation and Spirituality in

Personality (London: Guilford Press 1999). A limitation on this research is that the bulk concerns religious believers in western Europe and North America. and consequently primarily considered Christians of various sorts.

17- Robert k Emmons The Psychology of Ultimate Concerns: Motivation and Spirituality in Personality (London: Guilford Press. 1999).

***

## الفصل الحادي عشر

## تشجيع النمو الديني عند الأطفال

## Eleven: Encouraging Children's Religious Development

١- قال لي أحد المشرفين في ختام علاقتي الرسمية معه، وهو أستاذ سابق كنت أرغب أن أكون مثله في أكثر من وجه، إنه لا يشجعني مطلقًا على أن أكون أستاذًا جامعيًا مثله، لأنه لم يكن مرتاحًا لجعل الآخرين صورة عنه، فهذا عمل مخصوص بالله.

2- Roger Trigg Religion in Public Life: Must Faith Be Privatized? (Oxford: Oxford University Press 2007).

٣- التناقضات الظاهرية هي علامات تحذير وليست نهاية المسألة في أي مجموعة من الأفكار، فقد تبدو فكرتان في حالة تناقض (لنقل مثلًا، العلم الإلهي التام للمستقبل مع الإرادة الإنسانية الحرة) ولكنهما قد لا تكونان متناقضتين في الواقع، وغالبًا ما يكون الفشل برؤية كيف تتوافق فكرتان أو أكثر يرجع إلى نقص الجهد المبذول أو الفقر في الإبداع أكثر من أن يكون عدم اتساق في مجموعة من الأفكار.

4- Paul L. Harris and Melissa A. Koenig (Trust in Testimony: How Children Learn about Science and Religion) Child Development 77 (2006): 505- 524.

٥- أدرك أني أتطرق إلى بعض القضايا المعقدة لفلسفة العلم هنا، وأنه يظهر في بعض الحالات تفسيرات علمية جيدة تصطدم بالتفسيرات الدينية، ولكن هذه الحالات نادرة وأقل مما يظنه الناس المثقفون علميًا، وقد عالجت بعض قضايا عدم التوافق هذه في كتابي علم الإدراك، والدين واللاهوت

Cognitive Science Religion and Theology (West Conshohocken PA: Templeton Press 2011). See also Malcolm Jeeves and Warren S. Brown Neuroscience Psychology and Religion: Illusions Delusions and Realities about Human Nature. (West Conshohocken. PA: Templeton Press. 2009).

وقد يعترض بعض القراء بأن التفسير المتعدد من هذا النوع يخالف قاعدة (موسى أوكام) بأنه لا يلزمنا مضاعفة التفسيرات دون ضرورة، لكن هذا المبدأ لا ينطبق على الحالات التي أذكرها هنا؛ بل ينطبق على التفسيرات المتعددة من نفس النوع التي تفسر الشيء نفسه بالضبط، كما أن المناصرين لهذه القاعدة العلمية مثل إسحاق نيوتن ووليام أوكام نفسه لم يروا التفسيرات العلمية مناقضة للتفسيرات الدينية فكلاهما كان مسيحيًا متدينًا.

6- Pascal Boyer Religion Explained: The Evolutionary Origins of Religious Thought (New York: Basic Books 2001) p.317.

7- Chris J. Boyatzis (Religious and Spiritual Development in Childhood) in Handbook of the Psychology of Religion and Spirituality ed. Raymond F. Paloutzian and Crystal L. Park (New York: Guilford Press 2005). pp. 123 -143.

8- Pehr Granqvist and Lee A. Kirkpatrick (Religious Conversion and Perceived Childhood Attachment: A Meta-Analysis (International Journal for the Psychology of Religion 14 (2004):223- 250; Pehr Granqvist (Building

a Bridge between Attachment and Religious Coping: Tests of Moderators and Mediators) Mental Health Religion and culture 8 (2005): 35 -47: Lee A. Kirkpatrick Attachment Evolution and the Psychology of Religion (New York: Guilford Press 2005).

***

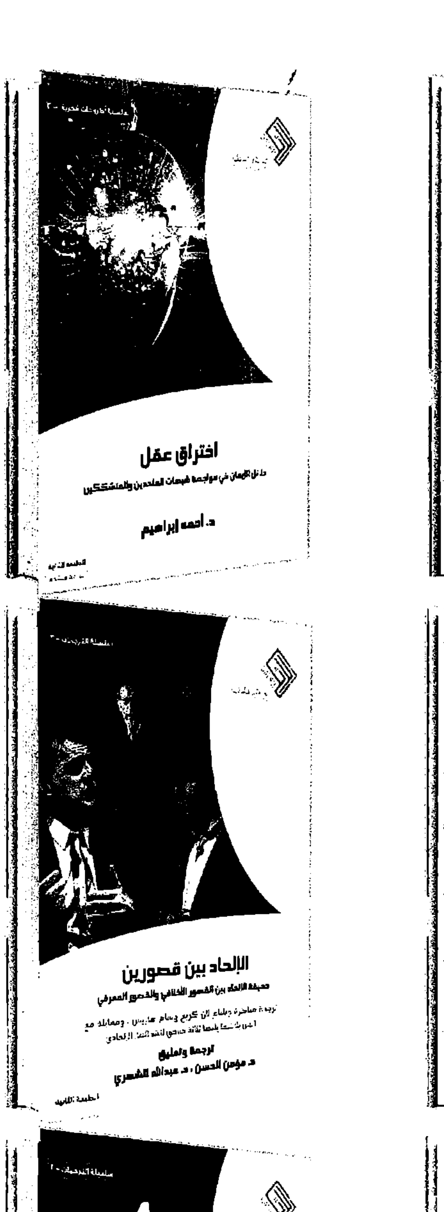
# إصدارات مركز دلائل ...

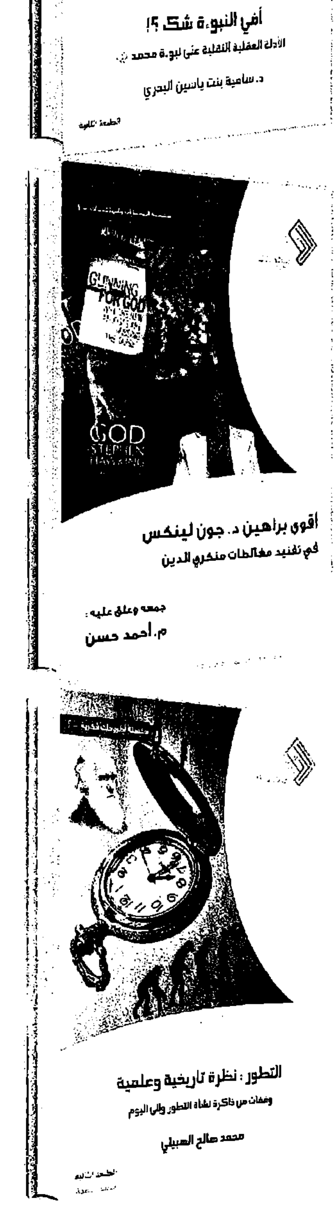
أفي النبوة شك؟!

الأدلة العقلية النقلية على نبوة محمد ﷺ

د. سامية بنت ياسين البدري

الطبعة الثانية




الرجل ذو السروال الأحمر

عبد الرحيم جرين

ترجمة

الطبعة الثانية


العائدون إلى الفطرة
٧١ عائداً وعائدة من الإلحاد واللادينية إلى الإسلام
تجميع وترتيب وتوثيق

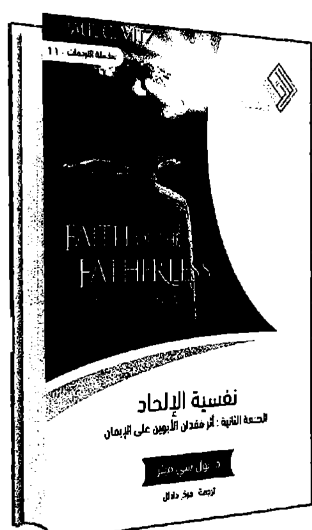

الميديا والإلحاد
م. أحمد حسن


قطيع القطط الضالة
سامي أحمد الزين
تقديم الشيخ الدكتور: محمد العوضي

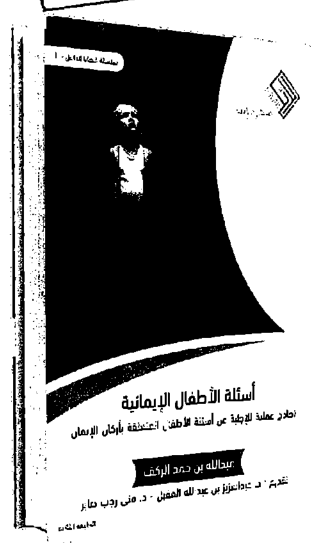

معبد داروين
صفحات من التاريخ المنسي لأفكار داروين
خالد بن عبد الرحمن الشايع

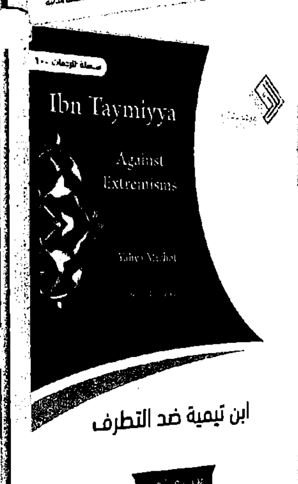

مؤشرات التطرف لدى الشباب
دراسة ميدانية :
اقتصادية واجتماعية ونفسية وفكرية
- الطبعة الثالثة -


نظرة خلف الستار
سامي أحمد الزين


سلسلة الترجمات - ١١
FAITH OF THE FATHERLESS
نفسية الإلحاد
الطبعة الثانية : أثر فقدان الأبوين على الإيمان
ترجمة : مركز دلائل

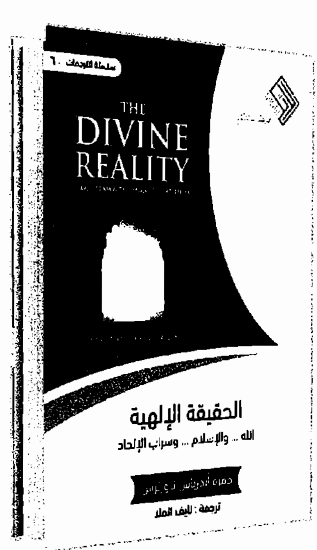

ATHEISM AND ITS SCIENTIFIC PRETENSIONS
وهم الشيطان
الإلحاد ومزاعمه العلمية
ديفيد بيرلنسكي
ترجمة وتعليق : عبد الله الشهري
الطبعة الثانية


أسئلة الأطفال الإيمانية
نماذج عملية للإجابة عن أسئلة الأطفال المتعلقة بأركان الإيمان
عبدالله بن حمد الركف
الطبعة الثانية


سلسلة الترجمات - ١٠
Ibn Taymiyya
Against Extremisms
Yahya Michot
ابن تيمية ضد التطرف
ترجمة : مركز دلائل


سلسلة الترجمات - ٥
الإيمان بالخالق والعلم
اقتباسات موثقة لمشاهير العلماء في العصر الحديث
ترجمة : مركز دلائل


ISLAM AND THE DESTINY OF MAN
الإسلام ومصير الإنسان
موقف المسلم في العالم الجديد
ترجمة : مركز دلائل
مراجعة وتعليق : د. عبدالله الشهري


سلسلة الترجمات - ٦
THE DIVINE REALITY
الحقيقة الإلهية
الله ... والإسلام ... وسراب الإلحاد


الدهرية
عتبة في المفهوم والآثار
م. نادر بن عبدالعزيز العبدالكريم


الصُنع المُتقن
دلالات الفيزياء على وجود الخالق
مصطفى نصر قديح

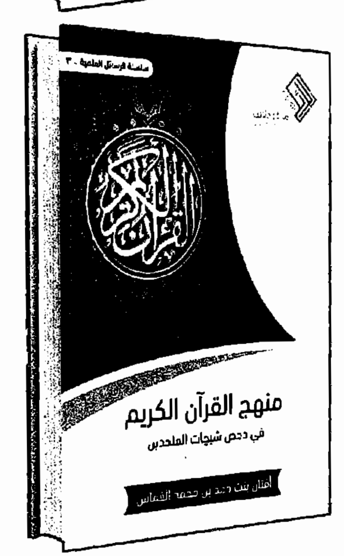

المرأة بين الداروينية والإلحاد
معالم عن المرأة في التعاليم الداروينية والمنهج المادي
د. جيري بيرغمان
الطبعة الثانية

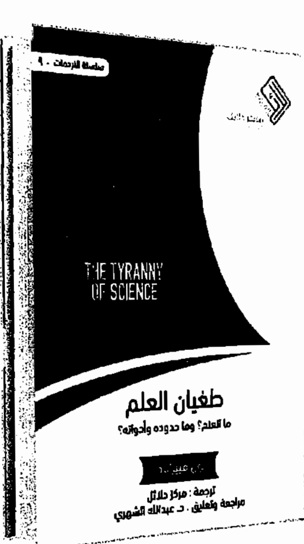

أوهام الإلحاد العلمي
هل تتعارض الاكتشافات العلمية مع الإيمان بالخالق ؟
أ.د. محمد باسل الطائي
أستاذ الفيزياء الكونية بجامعة اليرموك


تناقضات منهجية
يوسف سمرين
الطبعة الثانية

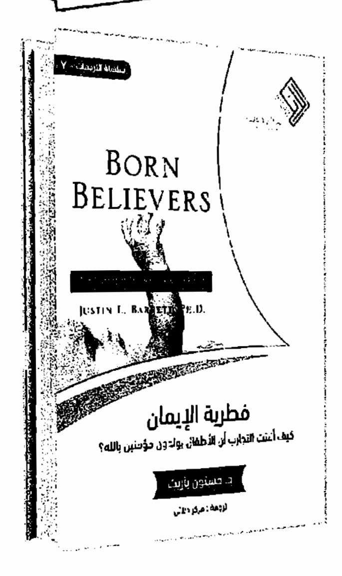

A Guide
For the Perplexed
VINTAGE SCHUMACHER
دليل الحائرين
ترجمة: مركز دلائل
مراجعة وتعليق: د. عبد الله الشهري


كيف تحاور ملحداً ؟
الطبعة الثانية


منهج القرآن الكريم
في دحض شبهات الملحدين


THE TYRANNY
OF SCIENCE
طغيان العلم
ما العلم؟ وما حدوده وأدواته؟
ترجمة: مركز دلائل
مراجعة وتعليق: د. عبدالله الشهري


لماذا نحن هنا ؟
تساؤلات الشباب حول الوجود والشر والعلم والتطور
إسماعيل عرفة


BORN
BELIEVERS
فطرية الإيمان
كيف أثبتت التجارب أن الأطفال يولدون مؤمنين بالله؟
ترجمة: مركز دلائل

لطلب وشحن الكتب:

نادي الكتاب: Www.club-book.com

إيميل: contact@club-book.com

تويتر: @book_club77

جوال: ٠٠٩٦٦٥٣٢٥٨٩٢٧٦ / ٠٠٩٦٦٥٣٢٥٨٩٢٨٣

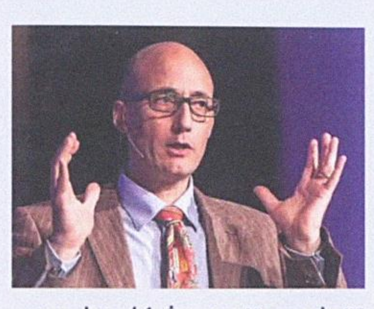
دار مورق – تويتر: @Dar_moreq

جوال: ٠٠٩٦٦٥٠٧٢٠٤١٧١

النيل والفرات: www.neelwafurat.com

جرير: www.jarir.com

فطرية الإيمان



« وبغض النظر عن الثقافة ودون الحاجة إلى التلقين أو الإملاء القسري، فإن الأطفال يكبرون مع نزعة للبحث عن معنى ومغزى وفهم محيطهم، وبمنحهم المجال لذلك فإن عقولهم تتطور وتنمو بشكل طبيعي، ويوصلهم هذا البحث في النهاية إلى الإيمان بعالَم مُصَمّم بدقّة وبشكل هادف، وأن صانعًا ذكيًا يقف وراء هذا التصميم، ويقودهم إلى افتراض أن هذا الصانع المقصود مطلق القدرة، واسع العلم والمعرفة، واسع الإدراك وسرمدي الخلود. إن هذا الصانع ليس في حاجة ليكون مرئيًا أو متجسدًا كالبشر. ويربط الأطفال بسهولة هذا الصانع بمبادئ الخير وبكونه واضع القيم الأخلاقية. إن هذه الملاحظات والاستنتاجات تفيد في فهم سبب كون الإيمان بالآلهة بهذا المفهوم العام منتشر بشكل واسع عبر الثقافات وعبر التاريخ ».

د. جستون باريت

بروفيسور علم النفس ، متخصص علم الإدراك الديني والتنمية البشرية، ومشرف أبحاث سابق بمركز علوم الإنسان والعقل ، وبمعهد علم الإدراك وعلم الإنسان التطوري في جامعة أكسفورد.

BORN BELIEVERS

The Science of Chi...

JUSTIN L. BARRETT, PH.D.

E-Mail:dalailcentre@gmail.com جوال : ٠٥٣٩١٥٠٢٤٠

Dalailcentre/

DALAIL



9 786039 091431